الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

LEILA ABOULELA

مئذنة في ريجنت بارك

Minaret

رواية

مكتبة النخبة

ليلى أبو العلا

ترجمة

بدر الدين حامد الهاشمي

Table of Contents

عنوان الكتاب
صفحة الحقوق
بسم الله الرحمن الرحيم
الجزء الأولالخرطوم (1984 - 1985م)
الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الجزء الثانيلندن، 2003
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر
الفصل الثالث عشر
الفصل الرابع عشر
الفصل الخامس عشر
الفصل السادس عشر
الجزء الثالثلندن، 1998- 1990
الفصل السابع عشر
الفصل الثامن عشر
الفصل التاسع عشر
الفصل العشرون
الفصل الحادي والعشرين
الفصل الثاني والعشرين
الفصل الثالث والعشرين
الجزء الرابع2003 - 2004م
الفصل الرابع والعشرون
الفصل الخامس والعشرين

الفصل السادس والعشرين
الفصل السابع والعشرون
الفصل الثامن والعشرون
الفصل التاسع والعشرون
الفصل الثلاثون
الجزء الخامس1991
الفصل الحادي والثلاثون
الفصل الثاني والثلاثون
الجزء السادس2004
الفصل الثالث والثلاثون
الفصل الرابع والثلاثون
الفصل الخامس والثلاثون
الفصل السادس والثلاثون

مئذنة
في ريجنت بارك
Minaret

رواية

ليلى أبو العلا

ترجمة
بدر الدين حامد الهاشمي

مراجعة
جمال محمد إبراهيم

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي Minaret by Leila Aboulela All rights reserved Arabic Copyright © 2012 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012 م

ISBN: 978-614-02-0257-3

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد جارت علي الأيام، وانزلقت إلى مكان سقفه منخفض، لا يسمح بكثير حركة. كنت معتادة على مثل هذه الحالة في كثير من الأوقات. كنت بحالة طيبة في كثير من هذه الأوقات. رضيت بما قسم لي من عقوبة دون شكوى أو ضجر أو ندم. بيد أن تحركا ما في بعض الأحايين يجعلني أتذكر. يتغير الروتين السائد، وتجعلني بداية جديدة أدرك فجأة ما صرت عليه... واقفة في طريق تكسوه أوراق الخريف، يؤدي إلى متنزه تحفه أشجار مصفوفة بعناية. رفعت رأسي فرأيت مئذنة مسجد "ريجنت بارك" عالية فوق الأشجار. لم أرها من قبل في مثل ذلك الصباح الباكر وتحت ذلك الضوء الخافت. تبدو لندن أجمل ما تكون عند الخريف. في الصيف تكون المدينة قذرة وتبدو أكبر حجماً من حقيقتها، وتطغى عليها في الشتاء أضواء عيد الميلاد. أما في الربيع، فصل الميلاد، فثمة خيبة الأمل دوما. تبدو الآن في أجمل ما تكون. تقف منتصبة كامرأة ناضجة، ذهب جمال شبابها، وبقي تأثيره - للغرابة- نافذا قويا.

تخرج أنفاسي كالدخان. أنتظر كي أطرق باب شقة رقمها مسجل في مفكرة صغيرة أحملها. حددت لي الساعة الثامنة. اسعل، وأخشى أن يداهمني السعال أمام مخدمتي الجديدة، فقد تكون سيدة موسوسة وقلقة من إمكانية أن أنقل الجراثيم المعدية لطفلها. يصح أيضا أن لا تكون من ذلك النوع، فإنني لم أتعرف عليها بعد. رأيتها فقط للمرة الأولى في الأسبوع الماضي عندما أتت للمسجد تبحث عن خادمة. كانت تحوم حولها هالة من التعجل والتأنق. يزين رأسها وجيدها شال حريري ملفوف بلا كبير اكتراث. كان الشال كثيرا ما يقع من رأسها مبديا شعرها دون أن تأبه لوضعه على رأسها مجددا. لعلها كانت امرأة عربية- طالبة ثرية في أواخر العشرينات من العمر تعب من الغرب أقصى ما تستطيع... ما زلت لا أعرفها بعد. لم تكن في حالتها الطبيعية عندما كانت تخاطبني. قلما يكون المرء في حالته الطبيعية وهو في المسجد. يكون الناس فيه أكثر هدوءا وخشوعا... مغمورين بالجانب الأرق والمهمل من أنفسهم.

أتمنى أن لا تكن قد نسيتني. أتمنى كذلك أن لا تكون قد غيرت رأيها، ووضعت ابنتها الصغيرة في روضة للأطفال، أو عثرت على شخص آخر غيري. تمنيت أيضا أن لا تكون أمها التي كانت - وإلى الآن- ترعى طفلتها قد قررت تمديد فترة إقامتها في بريطانيا، وبذا تنتفي الحاجة لخدماتي. كان شارع سانت جونز وود هاي مزدحما بالمارة من كل صنف... رجال في سترات أنيقة، وفتيات في أبهى الأزياء العصرية، يدلفن إلى سيارتهن

الجديدة يقدنها إلى أماكن عملهن. هذه منطقة راقية تبدو على الناس فيها نضرة النعيم. أحن إلى ذكرياتي القديمة بيد أني لا أفتقد ما كنت أملكه. لا أرغب الآن في اقتناء معطف جديد، لكنني أتمنى أن أتمكن من إرسال معطفي للغسيل الجاف بأكثر مما أفعل. كم كنت أود لو أن عددا أقل من الأبواب أوصد في وجهي... أبواب سيارات الأجرة، وأبواب معاهد التعليم، وصالونات التجميل ووكالات السفر لتأخذني إحداها لحج البيت المعمور...

عندما ضغطت على رقم الشقة في الهاتف الداخلي عند بوابة البناية رفع أحدهم السماعة وذكرت اسمي بصوت متوتر منفعل عامر بالأمل في القبول: "السلام عليكم... هذه أنا، نجوى...". هي في انتظاري... الحمد لله. أثار الصوت الطنان عند فتح الباب مشاعري، ودفعت باب مدخل البناية والتي أدركت على الفور أنها بالغة الجمال، كل ما فيها خشبي الصنع، عالي الجودة، فائق الإتقان، وراقي الذوق. مبني فخم وعتيق، يشع منه الرسوخ والمهابة والجلال، وتدرك وأنت بداخله أن أجيالا بعد أجيال - حريصة على المال- تعهدته بالرعاية والصيانة الدائمة، وبالحب أيضا... ليس مثل مال أبي الذي صادرته الحكومة، وبدده عمر. لا أبرئ نفسي من اللوم، فقد أضعت نصيبي أنا أيضا من تلك الثروة ولم أفعل به شيئا مفيدا.

كانت هنالك مرآة موضوعة في ردهة المبنى. حدقت فيها فلم أر غير امرأة ترتدي معطفا بينا قديما، فاتح اللون عديم الشكل، وتربط رأسها بطرحة بيضاء، ولها عيون واسعة جدا ورموش أطول مما يجب. رغم كذلك كنت أبدو أليفة عطوفة وموثوقة، وفي عمر مناسب. عادة ما تكون مربية الأطفال صغيرة السن طائشة مهملة، بينما ستشتكي العجوز من الآم ظهرها. كنت في العمر المناسب تماما.

كان المصعد من ذلك النوع الكلاسيكي القديم الذي يتطلب أن تجذب بابه وتدفعه بقوة. صلصل صوته مخترقا هدوء ذلك المبنى الأنيق. مددت يدي لأضغط على زر الطابق الثاني لكني وجدت أنه مكتوب على الزر الأول 1 - 3، والزر الثاني 3- 4 والزر الثالث 4 - 6. حاولت فهم الأمر الملتبس، وبقيت أحدق في الأزرار في حيرة. فكرت في الخروج من المصعد وصعود الدرج. سمعت صوت باب يغلق بشدة في الطابق الأعلى، وصوت خطوات أحدهم وهي تنزل الدرج مسرعة. وقع نظري على القادم المسرع فإذا هو شاب طويل القامة ضخم البنية، مجعد الشعر، بدأت شعيرات لحيته في الإنبات. استوقفته لأسأله عن أزرار المصعد التي حيرتني. أجابني بلسان إنجليزي مبين، وكأن الإنجليزية لغته الأولى، بأن الأرقام في أزرار المصعد هي أرقام شقق المبنى، وليست أرقام الطوابق كما ظننت. لم تكن لهجته هي اللهجة

المحلية، بيد أنه من الصعوبة التعرف على أصول الناس من لهجاتهم في لندن. لو كان سودانيا، فسيعد من "البيض"، بيد أن لا دليل لي على أنه سوداني.

رددت عليه شاكرة وعلى وجهي ابتسامة، بيد أنه لم يرد على ابتسامتي بمثلها، وعوضا عن ذلك كرر ما قاله آنفا: "ما عليك إلا أن تضغطي على رقم الشقة التي ترغبين في الذهاب إليها". نظرت في عينيه فوجدتهما في لون العسل السائل، تلمعان... ليس بالذكاء (ليس كما عند أنور)، بل بسرعة البديهة. ربما يكون شابا حساسا، ولكنه ليس ذكيا بصورة خاصة... ليس نبيها ولا متسرعا كشباب اليوم.

شكرته مجددا فخفض من رأسه قليلا وهز كتفيه ليصلح من وضع أشرطة حقيبته. تذكرت مثلا يقول بأن المرء يمكنه أنه يشتم رائحة الجنة عند الصغار. عندما دلف نحو باب المبنى وخرج عاد كل شيء إلى وضعه المعتاد.

صعدت للطابق الأعلى وفتحت باب المصعد لأخرج على سجاد أنيق بالغ النظافة، وأخطو - يحدوني أمل كبير- نحو الشقة المقصودة. سوف آخذ البنت الصغيرة للميدان عبر شارعنا. سآخذها للمسجد، وسأوقت ذلك حتى أدرك الصلاة مع الجماعة، ومن بعد ذلك أطعم البط في "ريجنت بارك". من المحتمل جدا أن يكون في الشقة تلفزيون يلتقط المحطات الفضائية، وسيمكنني مشاهدة فيلم مصري على قناة أي آر تي، والأخبار على قناة الجزيرة. لمست شغاف قلبي وعقلي مقولة لأحدهم كان يتحدث في محاضرة عامة جاء فيها إن: "إن رحمة الله محيط واسع، وخطايانا هي قطعة طين صغيرة بين منقاري حمامة. تقف تلك الحمامة فوق غصن شجرة على حافة ذلك المحيط. ما عليها إلا أن تفرج عن منقاريها".

الجزء الأولالخرطوم (1984 - 1985م)

الفصل الأول

صحت فيه وأنا أهز يده التي تغطي وجهه: "يا عمر... هل صحوت؟"

"هممممم"..

صحت فيه مجدداً مطالبة إياه بالاستيقاظ؟ كانت غرفته لطيفة البرودة... ولا غرو فلديه أفضل مكيف هواء في البيت.

ردّ في تكاسل: "لا أستطيع الحركة"، وأزاح يده عن وجهه وغمز لي بعينه. أبعدت وجهي عن رأسه وأنا أفرك أنفي من بخر فمه.

صحتُ مهددة: "إن لم تستيقظ فإني سآخذ السيارة."

جاء ردّه متباطئا: "بالجد... لا استطيع... لا أستطيع أن أتحرك".

"حسنا. سأذهب إذن من دونك". مشيت إلى أبعد نقطة في غرفته متخطية خزانة ملابسه وصورة كبيرة لمايكل جاكسون. أغلقتُ مكيف الهواء، فتوقف عن الأزيز، وغرقتْ الغرفة فجأة في الحرّ. توقعت أن يقفز من فراشه ليشغله مرة أخرى.

"لم تفعلين ذلك بي؟"

رددتُ عليه في جزل وأنا اضحك: "الآن ستجبر على النهوض".

تناولتُ الشاي مع بابا في الطابق الأرضي. كان يبدو - كعادته- رائعاً عند الصباح، نظيفاً، حليقاً متعطرا.

سألني متذمراً: "أين آخوك؟"

"ربما يكون في طريقه للنزول"

"أين أمك؟"

"إنه يوم الأربعاء. اليوم الذي تذهب فيه أمي للرياضة". كنت أستغرب دوما من تعمد أبي لنسيان برنامج والدتي، وكيف كانت نظرات عينيه تبدوان خلف نظاراته حذرتان غامضتان عند الحديث عنها. كان قد تزوجها وهي من طبقة أعلى منه آملا في تحسين وضعه الاجتماعي. ترقى في المناصب مع مرور الأيام من وظيفة متواضعة إلى أن غدا مديرا في مكتب الرئيس بفضل هذا الزواج من تلك العائلة الثرية. لم أكن أود أن اسمع منه اعترافا بذلك، فهذا الأمر يربكني. كنت شديدة الشبه بأمي في أمور كثيرة.

تمتم والدي وهو يرتشف كوب شايه: "أنتم مدللون أكثر مما يجب. ثلاثتكم".

"سأخبر أمي بما قلت الآن!"

رد عليّ بحركة في وجهه تدل على عدم الرضاء، ثم أضاف: "هي ليست صارمة بما يلزم أمام أخيك. إن ذلك مما سيفسده أكثر. عندما كنت في مثل

سنه كنت أعمل ليل نهار... كانت لدي أحلامي وطوماحاتي...".

خطر ببالي (دون أن أنبس ببنت شفه) أن أقول: "يا إلهي... ليس مجددا". أدركت أن ما دار في دماغي قد بان بوضح على وجهي، فرد قائلا:

"بالطبع لا تريدين أن تستمعي لي".

"لا يا بابا. أنا آسفة". حضنته وقبلت خديه. يا لروعة رائحة عطره.

ابتسم وقال لي مشيراً لماركة عطره الفرنسي الثمين: "باكو رابانا"... وضحكنا معا.

كان أبي بالغ الاهتمام بملابسه وعطره أكثر من أي أب آخر عرفته.

"حسنا. حان آوان الذهاب للعمل". وبدأ في طقوسه المعتادة عند المغادرة. ظهر خادم المنزل من المطبخ وحمل حقيبته إلى السيارة. قفز موسى، سائقه، من حيث لا يدري أحد وفتح باب السيارة لأبي.

وقفتُ لمشاهدتهما وهما يغادران، ولم تبق في المنزل غير سيارة التايوتا كورولا الصغيرة في درب سيارات البيت. حتى الشهر الماضي كانت تلك هي سيارة أمي، ولكنها الآن صارت ملكاً لي ولأخي عمر. صار لأمي سيارة جديدة، وتوقف عمر عن استعمال دراجته النارية.

أجلتُ النظر في حديقة المنزل وفي الشارع خلفها. لم تكن ثمة دراجات هوائية في الشارع. كان لي "معجب" يجوب شارع منزلنا لأكثر من ثلاث أو أربع مرات في اليوم آملا بالطبع في أن يراني خطفا. كنت أحتقره. ولكن عندما يخلو الشارع - كما هو الحال الآن- فإنني كنتُ أصاب بشيء من خيبة الأمل.

صحتُ لعمر من الطابق الأرضي: "يلا عمر! سنتأخر عن المحاضرة".

عند بداية الفصل الدراسي كنا نصل مبكرين للجامعة، بل ونكون أول الواصلين. وبعد مرور ستة أسابيع على الفصل بدا أنه من الحذلقة (أو كما يقولون "السوفستيكيشن") أن تدخل قاعة المحاضرات في آخر ثانية قبل أن يفتح المحاضر فمه.

كان المحاضرون يأتون للمحاضرة بعد مرور عشرة دقائق من توقيتها، ويدعون الطلاب جميعا يترقبون وصولهم.

لم أسمع أي استجابة لمناداتي لعمر، فهرولت إلى الطابق العلوي. لا... إنه ليس في الحمام، فهو خالٍ. فتحت غرفة عمر فإذا هي - كما هو متوقع- كالفرن. رغم ذلك فقد كان منبطحاً على السرير كما تركته غارقا في النوم وهو يشخر بصوت عال. كان قد قذف بأغطية السرير على الأرض بسبب الحر، وغط في النوم والعرق يتصبب منه.

"إن كان الأمر كذلك، فأسقود السيارة بمفردي. لست بحاجة إليك".

تحرك قليلا وقال في فتور بائن: "ماذا؟"

كان صوتي ينبئ عن الغضب، لكني كنت أيضا خائفة وجلة. خائفة من نومه الكثير دونما مرض ظاهر، وخائفة من فتوره وتبلده الذي لا أستطيع مناقشته مع أحد من الناس.

"أين المفاتيح؟"

"ها؟"

"أين مفاتيح السيارة؟".. وفتحت باب خزانة ملابسه.

"لا. المفاتيح في جيب بنطالي الجينز... خلف الباب".

سحبتُ المفاتيح بسرعة، ومعها سقطت بعض العملات المعدنية، وصندوق سجائر "بنسون آند هيدجز".

"سترى ما سيفعله بابا إن علم بهذا"

"أعيدي تشغيل المكيف"

"لا"

"من فضلك يا نانا".

كان لاستخدامه "اسم الدلع" المفضل لي، فعل السحر، فرقّ قلبي لحاله، وتذكرت أننا توأمان، وللحظة عابرة كنت أنا الناعسة المتعبة الحرانة. أعدت تشغيل المكيف مرة أخرى وخرجت من غرفته.

رفعت زجاج نافذة السيارة لمنع الغبار والهواء الحار من الدخول وإفساد تسريحة شعري. كم كنت أتمنى أن أشعر بأنني طالبة شابة متحررة تقود سيارتها في ثقة. ألم أكن طالبة شابة متحررة تقود سيارتها للجامعة؟ في الخرطوم قلة فقط من النساء يقدن السيارات، وعدد الطالبات في الجامعة يقل عن 30% من عدد الطلاب الكلي. يشعرني كل ذلك بالاعتزاز - على نحو ما - بنفسي. رغم ذلك فإنني أفضل أن أكون بجنب عمر في السيارة. افتقدته الآن.

قدتُ السيارة ببطء وبحرص زائد عند الإشارات والتقاطعات، وكنت أحرص ما أكون على أن لا أمس سائق أي دراجة هوائية في الطريق. وفي شارع الجمهورية، وعند وقوفي أمام إحدى إشارات المرور طرقتْ زجاج سيارتي بنت صغيرة، منحنية الرأس ومزغللة العينين،. تطلب إحسانا. لأني كنت وحيدة في السيارة فقد أعطيتها ورقة مالية، ولو كان معي عمر لأعطيتها عملة معدنية- كان يكره الشحاذين. قبضت بيديها على ورقة الخمس جنيهات وهي تكاد لا تصدق، وأسرعت مهرولة نحو الرصيف. عند تغير الضوء إلى اللون الأخضر واصلت مسيري. من زجاج سيارتي رأيت تلك

المتسولة يحيط بها ثلة من صغار الشحاذين وبعض كبارهم أيضا. أثار إحساني الغبار والعراك فيما بينهم.

كانت يداي متعرقتان عندما طرقت باب قاعة المحاضرات101. كنت متأخرة بنحو 15 دقيقة. وأنا خارج القاعة كنت أستمع لصوت د. بشير وهو يلقي محاضرته في فصل آخر من كتاب مادة المحاسبة، أبعد المواد عن قلبي، ولكنها رغبة الوالد في أن يدرس عمر إدارة الأعمال، وبعد سنوات من الدراسة في رفقة البنات، أردت أن أكون في رفقة عمر. طرقت باب قاعة المحاضرات مرة أخرى، وبصورة أشد، ووجدت في نفسي الشجاعة لأدير مقبض الباب. وجدته مغلقا. إذن فقد نفذ د. بشير تهديده بحرمان كل من يأتي متأخرا للمحاضرة من الدخول للقاعة. استدرت ووصبت وجهتي نحو المقصف (الكافتيريا). كان مقصفي المفضل يقع خلف مباني الجامعة يطل على النيل الأزرق، والذي لا يري من الجامعة من شدة كثافة الأشجار. هدأ ظل الصباح الرطيب ورائحة أشجار المانجو من ما كان يدور في خلدي. جلستُ على أحد المقاعد وبدأتُ في التظاهر بالقراءة في مذكراتي. لم تكن تعني لي تلك المذكرات شيئا، بل ملئت نفسي بإحساس عريض بالفراغ. مضيت أتنبأ بالساعات الطوال التي يجب على أن أقضيها محاولة حفظ كل تلك الأشياء التي لا أفهم تماما معناها. رفعت رأسي فتبين لي أن أنور السر يجلس خلف الطاولة المجاورة. كان في سنته الرابعة بالكلية، مشهوراً بالذكاء، فلم يكن يتحصل على تقييم أقل من (A) في كل المواد التي درسها. كان يجلس وحيداً يرتشف كوباً من الشاي ويدخن سيجارة. كان يتميز من دون بقية زملائه الطلاب بأنه يحرص على لبس قمصان نظيفة، ويحلق شاربه، ويقص شعره قصيرا رغم أن "الموضة" في تلك الأيام كانت هي الشعر الكثيف. كان أخي عمر يدع شعر رأسه ينمو على طريقة مايكل جاكسون في صورته على غلاف البومه الغنائي الشهير "خارج الجدار".

كان أنور السر عضواً في الجبهة الديمقراطية (وهي الجناح الطلابي للحزب الشيوعي). لعله كان يكرهني، إذ سمعته يتحدث مهاجماً في ندوة طلابية البرجوازيين، ويسلقهم بلسانٍ حامي. كان يلقي باللوم على الأرستقراطيين وملاك الأراضي والرأسماليين لما حاق بالبلاد من خراب وفساد. حاولت الحديث مع عمر حول تلك الأقوال، فقال لي عمر بأنني "حشرية" بأكثر مما ينبغي. لم يكن لعمر وقت يقضيه في الحديث عن أنور السر وأمثاله. كانت له شلته الخاصة من الأصدقاء. كانوا يتبادلون فيما بينهم شرائط الأغاني الغربية الخفيفة، ويأملون في السفر لبريطانيا يوما ما. كان عمر شديد الإيمان بأن وضع السودان كان أفضل بكثير تحت الحكم

البريطاني مقارنة بالحكم الوطني، ويأسف أشد الأسف على خروجهم من البلاد. كنت حريصة على أن لا أدعه يكتب أي من هذه الأفكار في مقرارته الجامعية في مادة تاريخ الإقتصاد. كان سيرسب بالتأكيد، إذ أن كل الكتب والدراسات والمقالات تجمع على أن الإستعمار هو أسّ البلاء وسبب تخلف التنمية في بلادنا.

كنت سأبدو صبيانية سخيفة إن قمت من مكاني، بيد أنني لم أشعر بالارتياح لجلوسي مقابلة لأنور. تبسم في وجهي، وكانت تلك مفاجأة لي. ظلّ ينظر في وجهي. أحسست بقميصي يضيق، وبوجهي يسخن. لابد أنني عبرت عن ضيقي بإطلاق صوت زفير عالي فباغتني قائلا: "الجو حار. أليس كذلك؟ وأنت معتادة على مكيفات الهواء بالطبع". أحسست بأنه يحاول إغاظتي بكلماته تلك. رغم ذلك تضاحكت وأجبته في صوت بدا غريباً حتى على أذني بأنني على كل حال أفضل الحر على البرد.

رد على بسؤال آخر وهو يلقي بعقب سيجارته على الأرض ويغطيها بقدمه بالرمل في حركة لطيفة: "لماذا؟"

"إن الحر "طبيعي" أكثر" أليس كذلك؟" كانت هنالك طاولتان تفصل بيننا ونحن نتبادل الحديث، وتسألت في نفسي عمّن سيقوم أولا بالقيام إلى طاولة الآخر.

"هذا يعتمد بالطبع على المكان. فالشخص في روسيا مثلاً قد يعد البرد هو "الوضع الطبيعي".

"نحن لسنا بروس".

أطلق ضحكة لطيفة وسكتَ بعدها. أصابني صمته بخيبة أمل، وبدأت أفكر في محاولة لإعادة الحياة لذلك الحوار. قلبت في رأسي وبسرعة عددا من الجمل التي يمكن أن أبدأ بها معه لقطع دابر ذلك الصمت، وخطر لي أن أقول له "سمعت أن لديك أخ يدرس في روسيا" أو "إن مكيف سيارتي لم يعد يعمل" أو "هل تعلم أن د. بشير لم يسمح لي بالدخول لمحاضرته". عزفت عن استخدام أي من تلك الجمل، فقد بدا لي أنها سخيفة أو غبية أو غير ملائمة. ران الصمت علينا حتى كدت أسمع صوت قلبي يخفق بأعلى من أصوات الطيور. فجأة نهضت من كرسي وغادرت المقصف دون أن التفت إليه أو أودعه بكلمة. كانت الساعة قد قاربت العاشرة، وهو موعد محاضرة مادة "الإقتصاد الكلي". مرر المحاضر ورقة الحضور فكتبت أسمي، وأخرجت قلما آخر وكتبت به اسم عمر بخط حاولت أن يكون مختلفا.

خرجت بعد انتهاء المحاضرة لأجد عمر في انتظاري.

"اعطني مفاتيح السيارة"

دفعت بها إليه وأنا أذكره بأن هنالك محاضرة في التاريخ عند الثانية عشرة لا ينبغي له الغياب عنها.

صك وجه ومضى في طريقه دون أن يفتح فمه بكلمة. إنني قلقة عليه كثيرا. يؤلمني القلق البادي عليه ويعذبني.

عندما كنا صغارا أوصتني أمي برعايته، فأنا كما قالت "البنت الهادئة الرزينة العاقلة. قومي برعايته". وظللت منذ ذلك الحين ومع مرور السنين أغطي على عمر وأعرف نقاط ضعفه واستر أخطائه.

الفصل الثاني

أخرجتُ من حقيبتي المصنوعة من القش محفظة نقودي وكراسة وقلم، ووضعت الحقيبة خارج باب المكتبة. صادفت زميلتين من بنات دفعتي وتبادلنا الإبتسامات. لست متأكدة من اسميهما. كانتا ترتديان ثوبين أبيضين، وكانت إحداهما فائقة الحلاوة والجاذبية في وجها دمامل عميقة، وفي عينيها بريق أخاذ. كانت من فتيات الأقاليم، وأنا عاصمية الميلاد والنشأة، وهذا هو سبب عدم إتخاذي لهما كصديقتين. في حضورهما أكون - ربما للمرة الأولى في حياتي- واعية لذاتي ولملابسي، خاصة بلوزتي الضيقة وتنورتي القصيرة. لم تكن ملابسي تختلف كثيراً عن ملابس كثير من الطالبات الأخريات، فلم يكن في ملابسي غرابة، لكن ملابس طالبات الأقاليم تجعلني أشعر دوما بالحرج. كنت مدركة وواعية لتواضع أذواقهن في اختيار الملابس والمكياج، والثياب السودانية القطنية البيضاء التي يرتدينها لتخفي نحافة أجسادهن، وتغطي منهن الأيادي والشعر.

كانت الضجة التي تحدثها المكيفات ومراوح الهواء الصاخبة في بدروم المكتبة تملأ المكان. وضعت أغراضي على الطاولة وبحلقت في رفوف الكتب. هل من كتب روسية أتقرب إليه بها؟ أم هل من كتاب عن النظرية الماركسية أو الديليكتيك؟ لا. لن أفهم شيئا من هذه المواضيع. أخيراً استقر رأيي على كتاب بالغ الضخامة يحوي مجموعة من الأعمال الشعرية المترجمة.

فهمت الحكمة التي تقول: "لقد عشت لأدفن رغباتي"، بيد أني لم أعرف من أين أتى هذا الفهم. لقد عشت حياة رغدة سعيدة. والداي يحباني وكانا دوما كريمين معي. نسافر في الصيف إلى الإسكندرية وجنيف ولندن. لم يكن ينقصني شيء أو أن أحصل على شيء. لم تخب أحلامي يوما، ولم أدفن قط رغبة في حياتي، بيد أنني أتذكر أحيانا الألم كجرح قديم برأتُ منه، وأتذكر الحزن كحلم نسيته بعد أن أفقت.

"أحب الكُتّاب الروس". هذا ما قلته لأنور في اللقاء الثاني. نعم، كان هنالك لقاء ثاني. لم يكن ذلك اللقاء بمحض الصدفة مثلما كان اللقاء الأول. تمشينا سوياً بقرب مكتب البريد ومكتبة الجامعة.

"من؟"

رددتُ عليه: "بوشكين". لم يبد أنه سرّ بإجابتي.

"أنظري. إن أعطيتك بعض المنشورات، هل تساعديني على توزيعها؟"

"لا أستطيع. لقد وعدت والدي بعدم التورط في السياسة مع طلاب الجامعة."

هزّ كتفيه مظهراً عدم المبالاة وقال: "لا يدهشني ردّك. ما هي آرائك السياسية أنت؟"
"لا أدري. ليست لدي آراء سياسية."
"ماذا تعنين بقولك هذا؟"
"كل سياسي يلوم الآخر."
"حسنا. يجب أن تقع مسئولية ما جرى ويجري على شخص ما."
"لماذا؟"
"حتى يدفع الثمن."
لم يعجبني قوله "يدفع الثمن"
"والدك مقرّب من الرئيس. أليس كذلك؟"
"نعم. وهما أصدقاء كذلك؟"
"هل حدث أن قابلتيه؟"
"نعم. بالطبع. هو يهاتف والدي في المنزل، وكثيراً ما أرد عليه."
قال مبتسما: "هكذا!"
"نعم. ليس في الأمر غرابة. حدث ذات مرة، وقبل سنوات طويلة عندما كنت في المدرسة الابتدائية أن اتصل هاتفيا بأبي في البيت، وقمت بالرد عليه قائلة "هالو" بطريقة إنجليزية قحة. تخيلت نفسي أقول كالممثلة "هالو: 44959". سرتني الطريقة التي كان يراقبني بها أنور وأنا أتحدث، وبدا - من نظرات عينيه- أنه كان مستمتعا بحكايتي. واصلت قائلة: "عندها غضب الرئيس وصاح في قائلا: "تكلمي بأدب يا بنت! تكلمي بالعربية."
انفجر أنور ضاحكا. سعدت بأنني أفلحت في جعله يضحك.
"أحب الحديث معك". قال ذلك ببطء.
"لماذا؟". تلك هي الطريقة لسماع أشياء لطيفة مسلية. أسألني لماذا.
بعد مرور سنوات طويلة، وعند التفكر في ما مضى، ومحاولة تذكر علامات التوتر الخفي، والتدبر في السبب خلف ذلك الصفاء، مضيت أتذكر كل الصراعات والشجارات التي عددتها كشيء مفروغ منه. حاربت رائحة الغبار والمجاري، رائحة الياسمين والجوافة ولم ينتصر أحد من المتحاربين. تنحدر مياه النيل الأزرق من مرتفعات أثيوبيا، وتتمدد الصحارى، بيد أن واحد منهما لم ينتصر على الآخر. كان عمر يرغب في الهجرة. ظل عمر ولسنوات يحمل بالخروج، وظللت أنا - توأمته- متمسكة بالبقاء.
سأل بابا ونحن على مائدة الغداء: "لماذا يهاجر سمير ولا أهاجر أنا؟". كنا نأكل على أطباق صينية أصلية وأواني من فضة، ونمسح شفاهنا بمناديل قماش تغسل وتكوى يومياً.

أجابت ماما قائلة: "لأن سمير لم يحصل على درجات عالية بما يكفي". كانت قد أتت لتوها من مصفف الشعر، وشعرها ملفوف في شكل كور لولبية على كتفيها. كنت أشم منها رائحة مثبت الشعر والسجائر. لطالما كنت أتمنى أن أكون فاتنة وساحرة مثلها... منفتحة وسخية، صائبة القول، وتنجح دوماً في قول الشيء الصحيح، وفي الضحك أيضاً، في الوقت الصحيح. سأغدو مثلها يوما.

قلت مؤيدة لعمر: "هل من العدل أن يبقى هنا من تحصل على درجات عالية، بينما يسافر للخارج من تحصل على درجات متدنية؟" كان سمير ابن لخالنا صالح شقيق ماما، وقد بُعث به لكلية اتلانتيك في ويلز ليحصل على شهادة البكالوريا الدولية، والتي تعادل شهادة "المستوى المتقدم".

نظر إلى بابا شذرا وقال: "حتى أنت؟"

أجبنته مطمئنة: "لا. أنا لا أرغب في الذهاب إلى أي مكان. أريد فقط أن أبقى معك هنا." ابتسمت لملا وبادلتني الابتسام.

قال عمر ساخرا: "نجوى فتاة وطنية جدا".

ردّ عليه بابا في حزم: "كما ينبغي لك أنت أيضا".

قالت ماما للجميع - ودون أن يعير قولها أحد من الحاضرين-: "فلنأكل الآن ولتناقش فيما بعد."

قال عمر في ضيق بائن وهو يقصد تماما ما يقول: "أريد أن أسافر إلى لندن. أكره الدراسة هنا."

ردّ عليه بابا: "الدراسة هنا مفيدة لك. اخشوشن قليلا هنا، وهذا من مصلحتك. لقد أفسدتك كل هذه المدارس الخاصة التي درست بها. لقد رأيت بعينك في الجامعة كيف هي حال الآخرين. ستفهم يوما ما حقيقة بلدك، وتدرك بنفسك بيئة العمل فيه. عندما كنت في مثل عمرك..."

تأوّه عمر متذمرا. وبدأت استشعر ببوادر حدوث ثورة غضب قادم. توقعت أن ينفجر أبي غاضبا، وأن يغادر عمر الدار مغاضبا. إن حدث هذا فسأقضي بقية يومي اسأل عنه بالهاتف في مظان وجوده.

جلستُ وحيدة في مؤخرة الحديقة. مر"معجبي" بدراجته الهوائية. كانت ملابسه قبيحة وقصة شعرة بشعة. لم يكن إعجاب مثل ذلك الشاب بي ما يبعث على الإطراء أو الحسد. أحسست بما كنت أحس به دوما من غضب يزداد في نفسي. لعله كان مسليا أن اغضب منه. عبست في وجهه لعلمي أن أي تصرف آخر كان سيشجعه أكثر. ابتسم مؤملا بعض القبول ومضى في حال سبيله. لا أعلم عنه كبير شيء في الواقع.

أقبلت ماما في ثوب عادي أزرق اللون وصندل أسود عالي الكعب يصدر قرعا عاليا على رخام مصطبة مدخل البيت، وقالت لي: "تعالي معي يا نجوى". كانت تحمل كيسا محشو بالحلوى والمصاصات.

أتى موسى بالسيارة تسير الهوينى فوق الحصى تشق سكون الأصيل. فتح لأمي الباب، ودلف إلى داخل البيت ليحضر مزيدا من الأكياس المحشوة بملابس قديمة وسطلين ممتلئين بالبسكويت المصنوع في البيت. لاحظت في كيس الملابس قميص (تي شيرت) كوكا كولا يخص عمر، وفستان وردي اللون توقفت عن ارتدائه لأنه لم يعد يساير الموضة.

"إلى أين تذهبين؟" سألتها وأنا أدرك من ملابسها العادية أن مشوارها ليس بمشوار هام.

ردتْ وهي تجلس على مقعدها الخلفي في السيارة قائلة: "شيشير هوم". قالت كلمتي "شيشير هوم". بمرح وسرور وكأنها هدية صغيرة. لا يقدر علي فعل ذلك إلا أمي!

ترددت قليلا... تزعجني رؤية الأطفال البؤساء بعظامهم النحيلة الملتوية. أفضل كثيرا أن أرافق أمي عند زيارتها لمدرسة الأطفال الصم. هنالك تجد الأطفال (رغم عدم قدرتهم على الكلام بصورة طبيعية) تبدو على عيونهم لمعة الذكاء الحاد، وهم يلعبون ويتسابقون دون هموم أو قيود، ويستوعبون ما لا يسمعون. وضعت نفسي في السيارة معها، ومع بدء موسى لتشغيل السيارة فتحت أمي كيس حلواها ونفحتني علكة نعناع.

"ليتك رأيتي "ملجأ الأيتام" التي أخذتني إليها خالتك بالأمس. بالمقارنة فإن "شيشير هوم" تعد جنة أرضية. قذرة... قذرة بصورة لا تستطيعين تخيلها."

غطيت أنفية من فرط الاشمئزاز. حمدت الله أنهما زارا ملجأ الأيتام بالصباح، حيث أكون في الجامعة، ولم يجراني معهما.

واصلت الحديث فقالت: "وليس عندهم من شيء... ولكن هذا ليس عذرا لعدم تنظيف أولئك الأطفال."

لم تكن تنتظر مني إجابة. كان موسى يبتسم ويهز رأسه، وهو جالس في كرسي القيادة، وكأنها كانت توجه له الحديث. هذه كانت طريقتها في الكلام. في بعض الأحايين كانت تتكلم بصوت مفعم بالحيوية والحركة، وفي أحايين أخرى كانت تتحدث بصوت خفيض رقيق. من الغرابة بمكان أنها كانت في الحفلات والأعراس تبدو رزينة ومهمومة مشغولة البال، وفي ساعات الضيق والكوارث تكون قوية تعلو على الموقف الصعب. أيقنت من حديثها عن ملجأ

الأيتام أنها لن تدعه هكذا. ستحاول جر كل الخيوط المتاحة، وستلح على أبي، بل وستلح حتى على الرئيس نفسه حتى تحصل على ما تريد.

وصلنا "شيشير هوم". وجدتها ظليلة ومعتدلة البرودة وتقع في حي راقي. فيها مباني عتيقة وجميلة من طابق واحد فيها حدائق شديدة الخضراء. حسدت والدتي على قدرتها التصرف بيسر وسهولة ودون تعقيد، وعلى "اقتحام" المبنى وفي يدها كيس حلواها وبسكويتها، وسائقها موسى من خلفها يحمل بقية الأغراض. حيتها الممرضة سلمى كصديقة قديمة. كانت سلمى طويلة سمراء، عظام خدها طويلة، وأسنانها بيضاء لامعة. لم يخف زيها الرسمي الرمادي الباهت جمال قدها. بدت سلمى امرأة محترمة معتزة بنفسها تسربت بعض الشعيرات البيضاء لشعرها.

حيتني وقال لي: "مبروك على دخولك للجامعة". لم تكن قد رأتني منذ سنوات.

بدأت ماما في الثناء عليها: "لقد حافظت على هذا المكان نظيفا جدا."

"أوه... لقد كانت "شيشير" أفضل بكثير في الماضي."

"أعلم ذلك. ولكنها ما زالت جيدة. لقد زرت ملجأ الأيتام بالأمس وكان قذرا... قذرا جدا بصورة لا تستطيعين تصديقها."

"أي ملجأ تقصدين؟"

كانت الغرفة واسعة وبها سبورة سوداء معلقة في أحد الجوانب، وعدد قليل من مناضد ومقاعد صغيرة تناسب أحجام الأطفال. وعلى جانب حوائط الغرفة رصت مهود للرضع. كانت هنالك أيضاً بعض كرات وألعاب مبعثرة هنا وهنالك. بدت لي هذه الأشياء مألوفة- ربما أحضرتها ماما معها في زيارة سابقة. علفت على الجدران ملصقات تحض على التطعيم وأهميته، وصورة مرعبة عن رضيع مصاب بالجدري. أحضرت سلمى لأمي ولي كرسيين بينما جلست هي على أحد مقاعد الأطفال. تحلق حولنا بعض الأطفال، وكان بعضهم يحبا بقربنا على الأرض. كان هنالك ولد من جنوب السودان... سريع الخطو، يحوم في الغرفة بحرية وانطلاق بيديه وساق واحدة.

قالت ماما مخاطبة من تحلقوا حولها: "واحد واحد... وسأعطي كل واحد منكم مصاصة." تمت محاولة خجولة لتشكيل طابور منظم، سرعان ما خمدت وحلت محلها موجة صاخبة من الأيادي الممتدة. أعطت أمي كل يد ممتدة حلوى مصاصة.

صاحت سلمي في الولد الجنوبي: "جون! هلا توقفت عن هذا الدوران وأتيت لتأخذ مصاصتك."

أقبل علينا وهو يتنفس بعمق مبتسماً مشرق العينين.

سألته أمي: "أي لون تفضل؟"
أجاب وعينيه تجولان هنا وهناك، وكأنه يمسح كل ما هو أمامه، أو كأنه يفكر في شيء آخر: "الأحمر."
"هذه آخر واحدة حمراء عندي. خذها. كل البقية صفراء."
أخذ الحلوى وبدأ يفض ورقة المصاصة، وسأل ماما: "هل هذه سيارتك في الخارج؟"
أجابته أمي: "نعم."
وبّخته سلمى: "وما دخلك أنت".
تجاهله الولد الجنوبي، ومضى يسأل أمي وعينيه مصوبتان نحوها: "ما هي نوع سيارتك؟"
ابتسمت ماما وهي ترد عليه: "مرسيدس".
هز رأسه وبدأ يمص حلواه وقال: "سوف أقود لوري كبير."
ضحكت سلمي من قوله وقالت: "انظروا لهذا الولد الساذج. كيف ستقود لوري؟"
أجاب في ثقة: "سوف أفعل."
رفعت سلمى حاجبيها ساخرة ومستمتعة في ذات الوقت: "بساق واحدة."
تغير في ملامحه شيء ما... نظرات عينيه. مضت سلمى تقول: "تحتاج لساقين كي تتمكن من قيادة سيارة." تكور حول نفسه وجر نفسه للخارج.
قلت لهما: "توجد في أوربا سيارات خاصة للناس الذين ليس لديهم... أقصد للمعاقين". كانت تلك هي المرة الأولى التي تكلمت فيها منذ أن وصلنا. بدا صوتي غريبا. تجاهلني الكل.
فجأة بدأ جون يلقي إحدى المناضد، ويجر مقعدا حول الغرفة، ويخبط به على كل شيء.
صاحت فيه سلمى: "توقف يا جون. لا تكن مشاكسا."
تجاهلها، ومضى يجر في المقعد حول الغرفة. لولا أن ذلك المقعد اصطدم بمقعد آخر لأصاب سلمى إصابة مباشرة.
انتصبت سلمى واقفة وقالت: "سأستدعى الشرطة. سيأتون ويوسعونك ضربا."
لا بد أنه صدقها، إذ أنه سكن وتوقف عن الحركة تماما. اتكأ على الجدار، وبرزت للخارج ساقه الوحيدة في وضع غريب، واسند رأسه على الجدار، والمصاصة في فمه... متجمد في ذلك الوضع الساكن.

تناهي إلينا وسط ذلك الصمت صوت نحيب. كانت صبية في الحادية عشر أو حتى الثانية عشر من العمر. كانت بالغة النحافة وعلى ساقيها... وترتدي فستانا ورديا أصغر منها. كيف ستتزوج هذه، وكيف ستعمل؟ لا يجب أن نسأل مثل هذه الأسئلة... هكذا كانت تقول ماما. لا فائدة من التفكير في مثل هذه الأمور. فقط يجب علينا أن نداوم على الزيارة.

سألت ماما سلمى: "لماذا تبكي هذه البنت؟"

"لا أعرف."

"تعالي وخذي مصاصة." نادت ماما البنت الباكية، بيد أنها واصلت البكاء.

صاحت فيها سلمى عاليا: "قومي فورا وتعالي لتأخذ مصاصة."

"دعيها يا سلمي تأتي عندما ترغب." وعندما لم تتحرك البنت، مشت نحوها ماما نحوها وأعطتها بعض الحلوى، وربتت على شعرها الأشعث المنكوش. لم يجد ذلك نفعا، ومضت تنتحب والحلوى في يدها حتى قمنا لنغادر المكان. قبل خروجنا لاحت مني التفاتة للبنت الباكية فوجدتها قد هدأت وتوقفت عن النحيب ومضت تفض غلاف المصاصة. وقفت منحنية وحدقت بعينين نصف مغمضتين، ومخاطها يسيل من أنفها على فمها وهي تجاهد كي تفض غلاف المصاصة لتصوبها نحو فمها. كنت أظن أن ساقيها هما المعطوبتان فقط، ولكن يديها كانتا معطوبتين أيضا.

الفصل الثالث

كان الحفل في "النادي الأمريكي" في أوج تألقه عندما وصلت إليه مع عمر. دلفنا إلى قلب المنطقة التي تنطلق منها موسيقى الديسكو والأضواء الزرقاء والحمراء.

سألتني صديقتي الصدوقة رندا وهى تجاهد كي يصل صوتها لي فوق صوت الموسيقى الصاخبة: "أين كنت؟ رافقيني للحمام."

أجبتها: "ولكني قد وصلت للتو." حاولت الاحتجاج والتهرب منها، ولكنها قبضت بيدها على ذراعي وجذبتي إليها.

قلت لها: "تبدين رائعة!" كانت بالفعل كذلك... ترتدي "تي شيرت" أسود اللون بشريط محكم على الرقبة، مع تنورة واسعة. لم أبذل نصف جهدها في التزين والتأنق. كان الحمام حاراً كريه الرائحة. وضعت رندا علي شفتيها مادة ملمعة بنكهة التوت، وأصلحت من وضع حواجبها. لم تنس أيضا أن تنثر حبيبات لامعة على شعرها وعلى كتفيها العاريين.

"هل ذهبتِ إلى مصفف للشعر؟"

"نعم ذهبت لمصفف للشعر."

"بنطالي ضيق جدا." التفتُّ بطريقة خرقاء كي أرى وركي في المرآة.

"بنطالك لا بأس به- كيف دخلتي فيه؟"

"أها..."

"كنت فقط أمزح.."

"هل هو هنا؟"

"نعم. سعادته شرّف قبل دقيقتين فقط. وأنا هنا منذ السابعة!"

سعادته هو "أمير"، تلك الشخصية الغامضة التى صادقته رندا منذ نحو ستة أشهر مضت. لقد بدأ يتصرف بطريقة غريبة بعض الشيء في المدة الأخيرة.

قالت: "سوف آخذ منه الليلة بعض الأجوبة."

تحاشيتُ نظراتها. لقد سرت شائعات بأن أمير قد اتخذ له صديقة أخرى من "النادي العربي". لم أجد في نفسي الشجاعة لأخبر رندا. وعوضا عن ذلك قلت لها: "تبدين رائعة اليوم."

"شكراً يا حبيبتي."

"فلنخرج من هنا. إنني أكاد أختنق هنا."

"انتظري"... وأخرجت من حقيبتها ما لا يمكن الاستغناء عنه. رذاذ النعناع. فتحت فهما وبخّت منه بخّتين. التفتت إلي، ومع كراهيتي لرذاذ النعناع إلا أنني فتحت فمي على كل حال.

خارج الحمام كان الهواء عليلا، وكان بعض الأطفال ما يزالون في حوض السباحة. من جهة المطبخ حمل الهواء رائحة الشواء اللذيذ والبطاطس المقلية.

صرحتُ لها بأني جوعانة.

"هل هذا وقت أكل؟"

أصابتني بعدوى حماسها وشدة انفعالها فمضينا نسير نحو ظلام الحفل المثير متشابكتي الذراعين ونحن نقهقه في حبور. كانت الفرقة تشدو بأغنيتي المفضلة "الفتاة السمراء وسط الدائرة" لفرقة "بوني إم"، وبدأت أرددها مع المغنيين. في وسط حلبة الرقص كانت الفتاة الهندية "سندراي" في وسط الدائرة وهي ترقص مع شريكها الجندي البحري، وخصل شعرها الأسود الطويل تتطاير في الهواء، وتسقط طربانة جزلة. كانت لها طريقة مميزة في الرقص، إذ كانت تتحرك بعيدا عن شريكها في الرقص، وبحركة فجائية سريعة تعود إليه مرة أخرى. كان شريكها يشبه السودانيين جداً، بيد أني ورندا قمنا بعمل تحليل عميق لذلك الشاب وخلصنا إلى أنه لابد أن يكون من طريقته في المشي والحركات أمريكيا (من أصل أفريقي)، ولابد أنه غير راض عن هذا الجزء المنسي من العالم الذي بعث للعمل فيه.

لم يكن على الانتظار طويلا. طلب مني أحد أصدقاء عمر أن أراقصه، فتركت رندا واتجهت معه إلى وسط دائرة الرقص. انبعثت فجأة من أرضية المكان سحب دخان أبيض كالتي ظهرت في فيلم "حمى ليلة السبت"، فعدت أدراجي مسرعة مصطدمة بأيدي الراقصين الأخريين.

أتت بعد أغنية "بوني ام" السريعة للأسف أغنية بطيئة لفرقة "بي جي" هي "كم هو عميق حبك"، وتناقصت أعداد الراقصين في الحلبة إلى عشرة. شعرت بالحر والظمأ فذهبت واشتريت لنفسي زجاجة بيبسي كولا، وطفت أبحث عن صديقتي رندا بين الطاولات المتناثرة في المكان، وانا أحيي من أعرف بـ: هاي... هاي. أخيرا عثرت على رندا تجلس على طاولة مع عمر والشاب الجاد دوماً أمير. التمعت في الظلام نظارته التي كانت تخفي عينيه. كانت رندا تبتسم في أمل.

سألته رندا: "كيف هي الحال في الجامعة؟"

أجاب متشدقاً "لا بأس".

سألته أنا: "متى ستحمل تلك المسطرة على شكل تي؟" كان ما يميز طالب المعمار في حرم الجامعة هو حمله لتلك المسطرة والدوران بها وسط الطلاب.

رد باقتضاب: "العام القادم". كان إملاله من النوع المعدي! فقدت الأمل في أي حديث ممتع معه، واكتفيت بصب البيبسي في كوبي، والاسترخاء في كرسي ومشاهدة الراقصين والراقصات. كان بعضهم يرقص متلاصقا مع الآخر، بينما كان البعض الآخر يرقص على مسافة ذراع أو نحوه من شريكه أو شريكته. كانت الهندية سنداري وشريكها الجندي البحري من النوع الأول- كانت يديه تضمان خصرها النحيل والتي كانت خصل شعرها الطويل تتدلي فيه. رفعت رأسها الذي كان يتوسد كتفيه وحركته قليلا لتسر إليه بشئ في أذنه. تبسم من قولها ضاحكا. تصورت نفسي أراقص أنور، بيد أني لمت نفسي وزجرتها عن فعل أي شيء أحمق. هذا النوع من الحياة هو بالضبط ما يحتقره أنور: طرق حياة الغربيين وموسيقاهم. لم أكن قد أخبرت رندا عنه، فهي لن تفهم. نعم، كانت ستوافقني على أنه وسيم، ولكنها لن تعده واحداً منا، وستقول إنه لا يشبهنا... زد على ذلك فهو عضو في "الجبهة الديمقراطية"... هي لا تدري معني كلمة "جبهة"!

قدم عمر لأمير سيجارة. هبت فجأة ريح في تلك اللحظات اطاحت بمفرش الطاولة. سيحل الشتاء قريباً، وسنرتدي سترات البرد الصوفية، ولن نسبح بسبب برودة الماء.

بادرتنا رندا فجأة بالقول بأنها ستغادرنا الشهر القادم.

صرخنا أنا وعمر بصوت واحد: "ماذا؟" سألناها: "إلى أين مكان ستذهبين؟" وتوالت أسئلتنا.

لم ينبت أمير ببنت شفة أو يظهر دهشة لسفر رندا. أجابتنا رندا وهي تواجه أمير (وكأنها تخاطبه) وترقب رد فعله وتختبره:

"سأذهب لإنجلترا لأدرس للمستوي المتقدم."

"ولكني حسبت أنك ستتقدمين مرة أخرى لإمتحان المستوى العادي وتحاولين دخول جامعة الخرطوم..."

"يريد أبواي لي أن أسافر."

قال عمر وهو ينظر لأمير آملا في تعاضد أو على الأقل اعتراف بالمفارقة الساخرة: "تماما مثل إبن خالتي سمير. لم ينجح هنا ويريد والداه أن يبعثا به للخارج، بينما نحن نرزح هنا." لم يبد أمير أي تجاوب من أي نوع.

"يالله يا عزيزتي رندا. أنني حزينة جداً لسماع هذا الخبر". لطالما تمنيت منذ أن بدأنا الدراسة الثانوية معاً، أن ندرس الجامعة سويا. لما علمت أن درجاتها كانت ضعيفة، تمنيت أن تحاول رندا مرة أخرى وأن تدخل الجامعة العام القادم. كنت أحلم بها أن ترافقني في الجامعة وترى أنور، وأن تتعلم ما هي "الجبهة". قالت وصوتها يفيض بالإصرار: "يمكنني أن أعود بعد أن

احصل على المستوى المتقدم." فجأة بدا لي شعرها اللامع ولمعان شفتها أقل جمالا مما كانت عليه.

التفتت نحو أمير وسألته بصوت حاد قليلا: "ما هو رأيك يا أمير."

هز كتفه بلا مبالاة وقال: "لم لا؟"

استرخت في مقعدها وقالت: "بالضبط، لم لا؟"

هكذا إذن. لم يكن ليهتم. تألمت من أجلها، وزاد من صدمتي أنها ستغادرنا بعيدا. أستطلب مني أن أذهب معها للحمام الآن؟ أستنفجر باكية؟ بدا تعبير مشوش يظهر على وجهها.

قالت: "هيا يا عمر... دعنا نرقص."

ران صمت لابد أن أخي بدأ خلاله في تسجيل واستيعاب وتحليل ما قالته رندا للتو. تردد قليلا وهو يختار بين إطفاء سيجارته، أو أخذها معه لحلبة الرقص. أطرقت أنظر للأرض. مشيا معا نحو حلبة الرقص، وهناك حجبا عني رؤية سنداري وصديقها. لم أنظر إليهما يرقصان، وبقيت استمع مجبرة على شعر غناء فرقة "بي جيز" الغث. لم يفتح أمير فمه فأكملت شرب البيبسي وأنا أقضم كل قطع الثلج في الكوب. كنت في انتظار انتهاء الأغنية البطيئة، وفي انتظار عودة عمر ورندا.

بعد الحفل الراقص ذهبنا مع رندا إلى منزلها، حيث تركني عمر معها وذهب لحفل آخر... حفل خاص هذه المرة - حفل يبدو أن فيه أشياء غير مهذبة لا يريد أخي أن يطلعني عليها. لقد بدأت أعداد مثل تلك الحفلات المريبة تزداد، كما تتزايد أعداد أصدقائه وأماكنه التي لست على علم بها.

في بيت رندا كان أبواها يتناولان طعام العشاء، ولتحاشي لقائهما دخلنا من باب المطبخ، متجاوزين الخدم المفزوعين من دخولنا هكذا، والأرضية اللزجة ببقايا زيت القلي وبقايا قشر الخضروات. كانت غرفة رندا في الطابق العلوي مرتبة، ومكيف الهواء فيها ينفث بصوت ناعم نسائم باردة لطيفة. لبست فوق التي شيرت لبذي كانت ترتديه قميصا طويل الأكمام حتى كما قالت: "نذهب ونتناول بعض الطعام." جذبت بلوزتي خارج بنطالي الضيق، وتركتها هكذا رغم أنها كانت "مكرمشة" لتغطي وركي، ولأبدو أكثر احتراما قليلا.

كان والدا رندا مجنونان قليلا مقارنة بوالدي. كانا قد درسا بإنجلترا، حيث ولدت رندا، وعادا منها بعادات وطباع إنجليزية غريبة الأطوار. خلافاً لكثير من السودانيين فقد اقتنيا كلباً صغيرا، وكانا يستمتعان برياضة المشي، واستضافة الأصدقاء للعب الورق. كانت والدة رندا هي أول بروفسيرة جامعية بالسودان. لذا كان فشل رندا في دخول الجامعة مصدر خيبة أمل

كبيرة للعائلة. الآن سيبعثون بها لإنجلترا للدراسة - تلك خطوة جريئة أخرى، إذ لم تكن هنالك فتيات سودانيات كثر يذهبن بمفردهن للدراسة بالخارج.

أكمل والداها عشائهما، ومشيا للحديقة، وبذا تفادينا تحيتهما والحديث معهما. قبل أن يبدأ الخادم في نظافة وترتيب غرفة الطعام، أخذنا طبقين كبيرين من الطعام وعدنا بهما لغرفة رندا. تنبهت إلى أن رندا حزينة على عدم اهتمام أمير بها فلم تمس كثير من طعامها. أتيت على طبقي وعلى ما لم تمسه من طبقها كذلك.

سألتها ضاحكة: "هل رأيت ساندراي وصديقها الجندي البحري؟ يبدو أن الأمور أخذت منحى جاداً."

"هل أخبرتك أنني شاهدت سيارتها تقف أمام مبنى البحرية؟"

"لا أصدق! هل تمزحين؟"

"لست أمزح... وكان ذلك وقت القيلولة!"

صرخت وضحكت رندا. تمالكت نفسها مرة أخرى، ومضينا نضحك معا ونثرثر ونتبادل القصص والنميمة حول كل من كانوا في حفل الديسكو في النادي (عدا أمير بالطبع)- ما كانوا يلبسون، ومع من كانوا يرقصون، وما درجة تلاصقهم في الرقص. انتظرت أن تتحدث رندا عن أمير لكنها لم تفعل. أخذت الصحنين الفارغين إلى المطبخ وقالت بأنها ستحضر طبق التحلية.

تركتني في الغرفة وحيدة، وفعلت ما حاولت أمي (دون نجاح) انجازه طول سنين كثيرة... أن لا أتجسس ولا أتحسس. فتحت خزانات رندا ونقبت في محتويات أدراجها. وجدت صورة لكلينا في المدرسة ونحن نرتدي زياً موحدا- مئزر داكن الزرقة، وحزام أبيض. تشابكت أيدينا ونحن نبتسم للكاميرا. كانت رؤية رندا يوميا في تلك الأيام تفرحني... يوميا... وأن أجلس بجانبها في الفصل، وأن أهمس لها أثناء الدروس مما يثير غيظ الأساتذة، وأن نتبادل السندوتشات ونشرب من نفس زجاجة الدبل كولا.

قلبت سريعا مجلة البنات البريطانية "جاكي" ووجدتها طفولية ساذجة. لماذا تصر رندا على الاحتفاظ بأعداد كبيرة منها أرسلت خصيصا لها من لندن. تصفحت سريعا عددا من مجلة "تايم" الأميركية. خميني، الحرب العراقية الإيرانية، وبنات يسرن في مظاهرة وهن يرتدين الشادوف الأسود، طالبات جامعة... وامرأة تحمل بندقية. كانت تغطي جسدها بالكامل... من شعرها حتى أخمص قدميها، مخفية.

عادت رندا للغرفة تحمل سلطانية بها كريم كرميلا وتفاح وموز.

وضعت المجلة جانبا على الأرض ومددت يدي لتناول نصيبي.

أشارت إلى صورة المرأة المغطاة وقالت وهي تناولني ملعقتي: "متخلفة تماما."

ينبغي أن نتقدم للأمام ولا نتقهقر للعصور الوسطى. كيف لامرأة أن تعمل وهي ترتدي مثل هذه الملابس في مختبر، أو تلعب التنس أو أي شيء آخر؟"

"لا أدري". بلعتُ ملاعق قليلة من الكريم كراميلا، وحدقت في المجلة وأنا أقرأ بضع جمل من المقال.

قالت رندا: "هؤلاء مجانين. لم يأمر الإسلام بمثل هذا."

"ماذا نعرف نحن؟ نحن لا نصلي حتى". أحيانا كنت أشعر بذنب كبير.

ردت رندا: "أحيانا أصلي."

"بالله! متى؟"

قالت ضاحكة: "أيام الامتحان... لقد ساعدتني في كثير من المرات."

"عندما أصوم رمضان كنت أصلي. أخبرتني طالبة في المدرسة ذات مرة أن الصوم لا يقبل إن لم أصلي."

رفعت رندا حاجبيها من الدهشة. "أنت تقضين نصف شهر رمضان مدعية أن عادتك الشهرية لم تنقطع، وتتحاشين الصيام!"

"ليس نصف الشهر. أغش بعض المرات، ولكن ليس نصف الشهر."

"كنا في العام الماضي في لندن ولم تصومي البتة."

"هل هذا صحيح؟ لا يمكنني حتى تخيل لندن في الصيف، والصيف في لندن."

"كيف يمكن لأحد من الناس أن يصوم في لندن؟ سيفسد ذلك كل متعة."

"نعم سيفسد كل متعة." نظرت إلى صورة الفتاة المنقبة في المجلة ومضيت أفكر في زميلاتي من المحجبات في الجامعة، والأخريات اللواتي يرتدين الثوب. زينا القومي يغطي الشعر والأيدي.

سألتها: "هل سترتدين الثوب أبدا؟"

أجابت وهي تضغط بأصبعها على صورة غلاف المجلة: "نعم. ولكن الثوب يختلف عن هذا. ليس متزمت كهذا. بالثوب تظهر مقدمة شعرك وذراعيك."

"يعتمد الأمر على كيفية لبسك للثوب، وما تلبسينه تحته. بالطريقة التي تلبس بها بعض الطالبات الثوب فهو فعلا يغطيهن."

"ها!" ردت بسخرية وحرقة. ندمت أني أتيت على ذكر الجامعة، فتلك الكلمة تمس وترا حساسا عندها. تركت المجلة وأكملت الكريم كرميلا.

قالت وهي متجهمة: "لم أذاكر دروسي بما فيه الكفاية. لم آخذ الامتحانات بالجدية اللازمة."

"هذا ليس عدلا. أنت أذكي مني. السبب الوحيد الذي جعلني أدخل لجامعة الخرطوم هو أنه كان بمقدوري أن أجلس لساعات طويلة على مؤخرتي السمينة لأحفظ دروسي."

قالت بصوت هادئ خفيض: "ربما كان علي أن أفرح. أنا سعيدة - كما أتصور- لأنني سأسافر إلى لندن... ربما ليس إلى لندن ولكن إلى منطقة خارجها."

انتظرتها للتحدث عن أمير، ولتشتكي من تجاهله لها طوال هذا المساء. فعلت ذلك أخيراً، فأخبرتها بالشائعات عنه وصديقته الجديدة في "النادي العربي."

تجاوزت الساعة الثالثة صباحاً عندما وصل عمر ليرجعني إلى لبيت. كنت قد بدأت أقلق عليه، وهاتفت أكثر من مكان لمحاولة الوصول إليه. كان جميع من في منزل رندا قد ناموا، بينما بقيت أنا ورندا نشاهد فيديو المسلسل الأميركي "دالاس". من حسن الحظ أن ماما وبابا كانا في القاهرة، وإلا لثارت مشكلة. عندما وصل ليأخذني كان يبدو متعبا، وتفوح منه رائحة البيرة وشيء آخر... شيء حلو.

قال لي: "تولي قيادة السيارة." لم يعجبني ذلك. قدت السيارة، ولم يضع شريط "بوب مارلي" كما كان يفعل دائما. جلس بقربي هادئا وساكنا، لكنه لم ينم. شممت منه رائحة لم أشأ أن أصدقها... حشيش؟ ماريجوانا؟

مع قرب وصولنا للدار تناهى لمسامعنا صوت آذان الفجر. أيقظنا الحارس الذي يلتحف الأرض ليفتح لنا الباب. أيقظت مشاعري صوت الآذان وكلماته وطريقة إلقائه. سرت كلماته عبر الرائحة التي ملأت السيارة، وعبر المتعة العابرة التي حصلت عليها في ديسكو ذلك المساء، ونفذت إلى مكان لم أكن أدرك أنه موجود. مكان أجوف. ظلام دامس يجذبني ويقضي علي. ركنت السيارة، وأغلق الحارس بوابة الدار خلفنا. لم يخلد بعد ذلك للنوم.

"عمر، لقد وصلنا للبيت... عمر." انحنيت وفتحت له باب السيارة. فتح عينيه ونظر إلي بوجه يخلو من التعبير. خرجنا من السيارة وأغلقت الباب. لم تهب في الجو نسمة باردة واحدة. كان الليل ساكنا والهواء خامدا، ورغما عن ذلك كان بمقدوري أن أسمع الآذان. استمر الآذان واستمر. ومن بعيد سمعت صوت آذان آخر وصدى صوته يتردد في الآفاق، يحرك الراكد في دواخلي، ويوكز الخدر المخفي، تماما مثلما ألمس ساقي عندما يصيبان بالخدر.

تحرك الخدم، وفي الجزء الخلفي الدار سمعت صوت مياه متدفقة، وشخص يبصق، وصوت عطسة، وجرجرة أرجل ترتدي شبشبا على الأرضية

الأسمنتية. أضأت لمبة كهربائية. كانوا يستعدون لصلاة الفجر. لقد هجروا عزيز النوم من أجل إقامة الصلاة، بينما كنت أنا مستيقظة ولم أفكر في الصلاة.

الفصل الرابع

لم يعد أصدقائي يستغربون من انتظار أنور لي بعد المحاضرات. كنا كثيرا ما نذهب معا لمقصف قسم العلوم لأن عددا قليلا فقط من الناس يتعرفون علينا في ذلك المقصف البعيد، رغم أن وجه أنور مألوف للكثيرين نسبة لنشاطه السياسي. لم يكن يتحدث معي في السياسة، لكنه كان يسألني أحيانا أسئلة غريبة.

"كم من الخدم يعملون في منزلكم؟"

بدأت أعد أشياء لم تخطر لي على بال من قبل. "الطباخ، الخادمة الإثيوبية، خادم المنزل، الحارس وموسى السائق. هؤلاء فقط. لا... ليس صحيحا. هنالك أيضا الجناييني، ولكنه لا يأتي يوميا."

"ستة."

"نعم... ستة."

"وأنتم أربعة.؟"

ردتت عليه مدافعة "ولكن لدينا ضيوف كثيرون." كان الحرم الجامعي شبه فارغ. كان الساعة ساعة الغداء، وهو وقت للقيلولة يخلد فيه كثير من الناس لمنازلهم اتقاء حرارة الشمس. لكن كان الفصل شتاء وحرارة الشمس محتملة. بعد الخامسة عصرا تبدأ حرارة الشمس في الانخفاض، ويمتليء الحرم الجامعي مجددا بالطلاب ليشهدوا المحاضرات المسائية.

"ألم يدر بخلدك أنه من الخطأ الشنيع أن توجد مثل هذه المفارقات الكبيرة بين الناس؟ توجد في غرب البلاد مجاعة. بلادنا من أفقر بلاد العالم قاطبة."

تململت في مقعدي وتمتمت بالقول: "ليس هنالك شيء أستطيع فعله حيال ذلك."

رقق من حدة صوته ونظراته لي قليلا وقال بود: "ولكن ذلك ليس بصحيح. أمر تغيير النظام متوقف علينا. يتوقف الأمر دوما على الطلاب والعمال ليغيروا الأوضاع."

أخبرته بما قرأته في مجلة "تايم" عن الخوميني والثورة الإيرانية. بدا مستمتعا عندما علم أني أقرأ مجلة "تايم". ربما لأن لغة المجلة كانت الإنجليزية، ولغتي الإنجليزية كانت جيدة جدا لأني تعلمت في مدارس خاصة. ربما لأن مجلة "تايم" أمريكية.

كنت تواقة لأعرف رأيه في الثورة. تحدث عن الثورة قليلا، مبديا موافقته على إزاحة الشاه، ولكنه كان معارضا لحكومة إسلامية. كرر نفس الكلمات

التي رددتها رندا- "يجب أن نتقدم وليس للخلف"- وكان يزدري بالشادور الأسود.

ابتسمت وأنا أقول له: "أنت تقدمي جداً إذن عندما يتعلق الأمر بالنساء وحقوقهن". كنت سعيدة بمجرى الحديث في ذلك الإتجاه، والتي اتاحت لي فرصة مغازلته بكلمات ثناء، ولأثبت لنفسي مرة بعد أخرى أنه، وبالرغم من عدم موافقته ورضائه عن خلفيتي، فإنه معجب بي.

كان أنور من كتاب أحد جرائد الطلاب.. جريدة الجبهة. كانت الجريدة تكتب باليد وتدبّس على لوح خشبي معلق في المقصف. يتقاطر الطلاب عليها ويزدحمون واقفين على أطراف أصابعهم عند لحظات تعليقها الأولى لقراءة صفحاتها العليا، ويجلسون على كعوبهم لقراءة صفحاتها السفلى. أذهب بعد يوم أو يومين من تعليق الجريدة حين يقل الزحام، وأذهب لأقرأ ما فيها. كان معظم ما هو مكتوب فيها يثير مللي، بيد أني كنت أداوم قراءة ما يكتبه أنور، وأبذل جهدي لأفهم ما يكتب. كثيرا ما يشغلني جمال الخط وروعة الألوان عن تدبر معاني ما هو مكتوب من كلمات. كانت العناوين مكتوبة بحروف كبيرة حمراء وسوداء، وذات أبعاد ثلاثية. كانت هنالك رسومات أيضا، لصفقة شجر خضراء أو حمامة طائرة عند نهاية كل مقال، وهناك أيضا رسومات كاريكتيرية ساخرة واسكتشات ونوادر ونكت لاذعة. كانت حرية التعبير مكفولة داخل أسورة الحرم الجامعي، والتي كانت له قداسة وحرمة، ولا يسمح حتى للشرطة بالدخول إليه. رغم ذلك يعلم الجميع أن هنالك للحكومة جواسيس وأعين في كل مكان. قال لي أنور مفتخرا بأن الشرطة السرية لها ملف كامل عنه.

الطريقة التي ينطق بها اسمي. الطريقة التي يقول بها: "إن لك تأثيرا علي." أحيانا تؤلمني كلماته عني... قال ذات مرة إنني غبية أو شيء كهذا، وأحيانا تجعلني كلماته أضحك.

أخبرت ماما عنه. قالت لي في بساطة: "لا تخاطري بسمعتك، ولا تضيعي زمنك في صحبة شاب لن يغدو أبدا زوجا مناسبا لك." كانت تدرك أنني لست مقتنعة بما تقول، وكانت كلماتها الناصحة لي تزداد حدة: "إن أباك لن يوافق أبدا على هذا الشاب، ولن يكون بمقدورك العيش أبدا معه بذات المستوى الذي تعيشينه الآن... لا خدم ولا رحلات ولا سفر. صدقيني ستبدين أضحوكة أمام أقربائك وأصدقائك. سيكون وضعك إذلالا مهينا لك ولنا أيضا."

"أوكي،" وخرجت مني بصوت عال أشبه بالصراخ: "أوكي."

خففت من حدة لهجتها قليلا، وقالت وهي تحاول أن تشرح لي موقفها: "لقد نشأتك حتى تصبحين عضوا فاعلا في هذا المجتمع... حتى تعيشين في

مستوى معين."

خرجت من الغرفة وأنا الحظ في عينيها قلق صادق وحقيقي علي. كانت تخشى أن أعصي أمرها، أو أن أفعل شيء ما دون روية وتدبر. بيد أن إيقاع وتواتر ذهابي اليومي للجامعة، حيث ألقاه يوما، ولا ألقاه في يوم آخر، قد كبح تصرفاتي. لم أكن واثقة أن لي مكانا في خططه المستقبلية، إذ لم يكن قد صرح لي بشيء أو ألمح لآخر. أما بالنسبة لي، فقد واصلت في الغرق في أحلام من صنع الأغاني الغربية الخفيفة التي كنت أداوم على سماعها، والأفلام الأميريكية التي كنت أحب مشاهدتها. لكني سرعان ما افيق من حلمي واتذكر أن هذه هي ذات الأشياء التي يحتقرها أنور.

كان مستواه جيدا في اللغة الإنجليزية من حيث الذخيرة اللغوية والقواعد، بيد أن لهجته كانت - والحق يقال- ضعيفة. عادة ما تكون ملابسه أنيقة وذات ألوان جميلة- بيد أنها كانت قديمة الطراز، وكان يرتدي صنادل وليس أحذية وجوارب. لم يتعلم في مدارس خاصة، ولم يتلق أبدا دروسا خصوصية. كان طالبا ممتازا بذكائه واجتهاده فقط، وبقراءته الخاصة وارتياده للندوات والمحاضرات. كان والده فنيا عالي التأهيل في السكة حديد، وله من الأعمام اثنين، أحداهما مهندس معماري سجن ذات مرة بتهمة الانتماء للحزب الشيوعي السوداني. كان له من الأخوان والأخوات سبعة، كبراهم كانت تعمل شرطية ومتزوجة ولديها طفل، وله أخ يدرس في موسكو، وآخر في جامعة القاهرة فرع الخرطوم، يليه أنور، ثم أختين صغيرتين في المدرسة الابتدائية. كانت إحدى أخواته مريضة، لكنه - لسبب ما- لم يكن يرغب في الحديث عنها. أمه عملت كممرضة مؤهلة، ولكنها تقاعدت الآن. كانت له عمة، تزوجت وسافرت مع زوجها للسعودية. عاش غالب سنوات عمره في داخليات المدارس والجامعة، وقلما كان يعيش في منزل والديه، رغم أن ذلك البيت لم يكن بعيدا، فقد كان عبر كبري النيل الأزرق في حي الصافية. كان يدخن التبغ يوميا، ولا يشرب الخمر إلا لماما. لم يكن يصوم رمضان إذ لم يكن يرى له من سبب أو منطق أو فائدة. لم يسافر إلى خارج السودان، ولكنه طاف في أرجاء البلاد المختلفة من بورتسودان في الشرق، إلى الأبيض وجبال النوبة في الغرب، وزار جوبا في الجنوب. أنا لم أغادر الخرطوم.

سألني: "لماذا تسافرين إلى أوروبا ولا ترغبين في زيارة مناطق بلادك المختلفة؟" أردف قائلا وهو يشعل لفافة تبغ: "بلادنا جميلة." في غفلة الرقباء، وعندما كنا نضمن أن أحدا لا يرانا في ليل الجامعة في المناطق

قليلة الإضاءة كنا نتماسك باليدين، أو نجلس سويا متقاربين بحيث تتلامس أذرعنا.

وقف المتحدث على صندوق ميرندا بلاستيكي مقلوب تحت ظل شجرة. كانت الشمس معتدلة الحرارة، وريح خفيفة تلطف الجو، ولكني رغما عن اعتدال الجو كنت أضع كراسة مذكراتي على رأسي، وأحدق في المتحدث بعينين نصف مغمضتين. كنت في وسط حشد من المستمعين، منهم طالبات يرتدين ثيابهن البيضاء، وأخريات يضعن كراريسهن فوق رؤوسهن. جلس بعض الطلاب فوق العشب الأخضر، بينما فضل آخرون الجلوس على الحاجز الفاصل بين الحديقة وممرات المشاة. من على البعد كنت ترى رشاشات السقي وهي تدور مطلقة زخات ماء على العشب وشتلات الأزهار. كان هنالك مكبر للصوت (ميكرفون)، وهذا مما يجعل الأمر مختلفا، إذ جذب أعدادا أكبر من المستمعين، ووصل صوت أنور للمقصف ونفذ إلى داخل المكتبة.

تحدث بثبات في بداية الأمر... بنوع من البرود تقريبا، وتلت ذلك خطبة ألقاها بشغف وعاطفة محسوبة. حافظ على ثباته وهدوئه، وهو واقف منتصب القامة ينتظر التحديات والاستفزازات التي تصحب الأسئلة. كان ذلك هو الوقت الذي يبرز فيه أنور مواهبه، ويخرج أفضل ما عنده من إجابات ساخرة، وتحليلات ذكية، وحجج قوية، وردود قاطعة... يبتسم بعدها ويرفع حاجبيه وكأنه يقول: الآن أكملت مرافعتي. كان أحيانا يلقي بنكتة جيدة يسخر فيها من خصومه السياسيين، نكتة تجعل الجالسين فوق العشب يضحكون ضحكات مكتومة، وتجعل من هم في الخلف يبتسمون. كنت به فخورة، وكانت متعة النظر والاستماع إليه بمثابة هدية عظيمة القيمة... مثل الايس كريم عندي عندما كنت صغيرة... مثل مثلجات الشوكلاتا التي يردم فوقها الكريم، والتي أتلذذ بها وأتمنى أن لا تنفذ أبدا. ولكنه يؤذيني بكلامه، وكان يجب أن أتوقع ذلك منه. كان على معرفة أن ذلك لابد سيحدث... هجومه الحتمي على البرجوازية. كانت تلك هي كلمته الأثيرة. ومما زاد الطين بلة إنه صار الآن أكثر صراحة ووضوحا، فأستخدم اسم أبي واسم عائلتي... كل ما هو مقرب مني. تلك كانت ضربة مباشرة لي كلكمة في البطن! تمالكت نفسي، وسرت برودة غريبة في سائر جسدي، ولكن خداي كان يحترقان. صك أذني هدير التصفيق والهتاف والضحك، ومنعني الصخب من أن اسمع بقية جملته. لم ينظر إلى قط طوال خطبته. كنت بالنسبة له شخصا خفيا، ولكن ذلك كان اسمي في اتهاماته المباشرة لوالدي. كان ذلك اسمي هو السبب الذي أضحك الجميع. نعم، أنا اورستقراطية، من جهة أمي، حيث

لأسرتها تاريخ طويل في امتلاك أراضي زراعية شاسعة، وفنادق في العاصمة، وحسابات في المصارف العالمية، وحظيت الأسرة أيضا بتأييد البريطانيين. كأن كل ذلك لم يكن كافيا، يقف أبي الآن متهما ممن يخطب أمامي بأنه رجل فاسد.

دفعت بنفسي لأخرج بصعوبة من وسط زحام الحاضرين وأنا شبه صماء، ولا أعلم علم اليقين إن كان أحد ينظر إلى وأنا أنسحب هكذا. أعلم أنه يجب علي أن لا أبكي ولا أظهر الجزع، وأن أمشي لسيارتي موفورة الكرامة. جلست في كرسي القيادة على الكرسي البلاستيكي اللزج، وأنزلت عصا كوابح اليد، وبدأت في إشعال السيارة حين سمعت خبطا على زجاج نافذتي الزجاجي. عمر. كان عمر يبتسم وهو في مزاج طيب. ليس ذلك العمر الذي يرتاد الحفلات سيئة السمعة، وتنطلق من فمه رائحة مشبوهة، لكنه عمر الطالب النظيف المبتسم الذي يرتدي تي شيرت ناصع البياض وجينز أزرق. أنزلت زجاج النافذة لأتحدث معه.

"ما بك يا نانا؟"

كيف عرف؟ كنا في زمان مضى ننام سويا متقابلين في بطن ماما... نتقلب ونتلوى داخلها، ونركلها أحيانا. كم كنت أتمنى أن أعود لذلك الزمان. طفرت الآن فقط دموع غبية من عيني.

"ما بك يا نانا؟"

"لا شيء."

"حسنا. دعيني أقود السيارة."

"ولكني لا أود العودة الآن للبيت."

"حسنا. يمكنني العودة مرة أخرى."

"هذا سخيف." مسحت وجهي بظهر يدي واستنشقت بصوت عال.

"لا عليك. انتقلي للكرسي الآخر. سأقود أنا السيارة."

خرجت من السيارة لأجلس في مقعد الراكب. أشعر بدوار وتخبط ولم أكن أود الحديث.

رأينا حادثة سير بين سيارتين ونحن في طريقنا للبيت. سمعنا صوت زجاج يتهشم والسيارتان تتصادمان... كانت الأولى عربة أجرة والأخري داتسن زرقاء. تجمهر المارة حولهما وتعطل سير الحركة. التف عمر بالسيارة نحو شارع جانبي تفاديا لزحام السيارات الواقفة. كان في ذلك الشارع الجانبي مصرف للمياه، وبيوت فقراء أبوابها من المعدن الرخيص. على أحد الأبواب رأيت تصاميم وأشكالا متنوعة شملت القلب والماسة والأسباتي والآس.

أدخل عمر شريط "بوب مارلي" وطفق يردد مع المغني أغنية "صباح ضبابي".

الفصل الخامس

غطست في المسبح لتصدمني برودة ماء يناير. طفوت لسطح الماء وشعرت بضيق في صدري وصعوبة في التنفس... همهمت بكلمة واحدة: "متجمدة."

صرخت رندا من تحت مظلتها المركبة في منتصف طاولة بقرب المسبح: "أنت مجنونة." كانت تغطي عينيها بنظارة شمسية أنيقة، وتأكل سندوتشا مقلياً من الجبن. كان خياري الوحيد هو مواصلة السباحة إلى أن أتدفأ. كان سطح الماء دافئا لأن أشعة الشمس كانت مصوبة عليه طوال النهار، بينما بقي عمق ماء المسبح باردا، فلم أسبح عميقا. وصلت لنهاية الجزء الضحل من المسبح واستدرت دافعة بقدمي الحائط وعائمة بالصدر نحو الجزء العميق. كان هنالك بعض الأجانب يتشمسون وهم جلوس على كراسي المسبح، وأجسادهم ممسوحة بمنتجات "امبر سولاري"، يقرأون كتب "سيدني شيلدون". بقي المسبح لي وحدي إذ لم ينزل للسباحة منهم أحد.

سبحت لأشواط ثلاثة قبل أن أتخلص من التيبس والشد الذي أحدثه الماء البارد، وبدأت استمتع بالعوم رغم طعم الكلورين المعتاد في فمي، وما أحدثه في عيني من وخز وحرقة. كانت يداي وقدماي تشقان الماء وتمخر عبابه لأتقدم للأمام. بالأمس مررت من أمام أنور دون أن أحييه- كان مع بعض من أصحابه يثبتون جريدتهم الحائطية. شعرت بالرضاء عن نفسي من تجاهلي له. كان ينتظرني عند خروجي من محاضرة علم المحاسبة. ابتسم في وجهي وكأن شيئا لم يحدث. كان يتوقع أن أمشي معه، ولكني تجاهلته ومشيت مع بعض الطالبات نحو المقصف. كنت وأنا أسبح في الماء أفكر في الأمر وغضب عارم ثقيل يلفني.

خرجت من المسبح ولففت وسطي بمنشفة وجلست بقرب رندا.

داهمتني رندا بالقول: "لم يستطع منقذ حوض السباحة أن يرفع عينيه عنك."

رددت ساخرة: "يا لظرفك!" واختلست نظرة سريعة للرجل. كان يرتدي قميص "بولو" أصفر اللون فوق زي السباحة. كان إريترياً.

أخرجت مشطا من حقيبتي وبدأت أمشط شعري المبلول. لم يكن شعري ناعما أو طويلا كشعر ماما.

"ألن تقومي بأخذ دش وتغسلي شعرك بالشامبو؟"

"لا." بعد ما أخبرتني عن منقذ حوض السباحة أحسست بالخجل الشديد من أن أذهب وأقف تحت الدش، والذي كان بقرب مكانه.

قهقهت في غنج وهي تقول: "سيتفحصك جيدا إذن."

"بالضبط." أحسست بضيق لم أجد له تفسيرا. كانت ماما لا تعترض على أن أمارس السباحة شريطة أن لا أرتدي البكيني، لكني، ومنذ دخولي للجامعة، بدأت اشعر بعدم ارتياح حتى وأنا أرتدي زي سباحة كامل... أسود ومتحشم.

قالت رندا: "والدي حجز تذكرتي اليوم."

"لا!"

"نعم. سأسافر السبت بعد القادم، وسيبدأ الفصل الدراسي يوم الاثنين."

بدأت في عد الأيام المتبقية. عشر أيام فقط.

قلت لها: "سنقيم لك حفل وداع."

"سيكون ذلك رائعا."

بدأت في تخيل المكان الذي ستسافر إليه. سوف لا تسافر إلى لندن، بل إلى ويلز. قلت لها: "ابن خالتي سمير يدرس هناك أيضا. في "اتلانتيك كولدج". أخبرني أن عليهم ممارسة رياضة صعود الجبال ورياضات مشابهة أخرى. هذا جزء من منهجهم. يمكنه أن يخبرك كل شيء عن هذه الكلية. إنه موجود الآن في الخرطوم في عطلة عيد الميلاد."

حركت مقعدي من تحت المظلة حتى تجفف الشمس شعري... شعري المشبع بالكلورين. كان على أن أسرع بالذهاب إلى المنزل، وأغسل شعري وأسرحه لأن عندي محاضرة مسائية.

في ذلك المساء ارتديت تنورة "دينيم". كانت واحدة من قطعي المفضلة، فهي ضيقة وطويلة ومفتوحة من الخلف. كان لها جيبان وسحاب في المقدمة مثل ما للبنطال. لبست بلوزة حمراء قصيرة الأكمام مزينة بزهور زرقاء صغيرة في ياقتها. كانت تسريحة شعري رائعة ذلك المساء... جعلت شعري متموج الخصل وليس مجعدا. بذلت جهدا مضاعفا ذلك المساء لأبدو في أروع صورة وأبهى حلة. كنت بهذا أحاول إغاظة أنور، وجعله يفهم بأنني لا أبالي به وبما يقول.

لم يكن في الجامعة عند وصولي إليها عند الخامسة. وصلت متأخرة عن موعد المحاضرة لأن عمر كان قد أخذ السيارة ليذهب لمكان ما مع سمير. كان انتظاري لعمر غلطة. هبت نسمة لطيفة وأنا آخذ طريقا مختصرا عبر العشب الأخضر في حديقة الكلية. كان صبي الكنتين ينشر "برشا" (حصيرة تصنع من جريد النخيل) فوق العشب الأخضر، وكان يبسطها ويحركها من مكان لآخر حتى يضمن وضعها بالزاوية الصحيحة.

كانت محاضرة الاقتصاد ذلك المساء جيدة جدا. كانت عن نظرية روستو عن مراحل تطور التنمية، وقد فهمتها ووجدتها مقنعة ومنطقية دا. سينطلق

السودان يوما ما كطائرة، بيد أنه يتوجب علينا أن نظل نركض ونركض حتى نسرع من عملية التنمية، ومن هنا نبدأ... في البدء بوتيرة بطيئة، ثم تتزايد سرعة تلك التنمية، ورويدا رويدا تزداد السرعة حتى ترتفع "طائرة التنمية" وتقلع وتطير عاليا وبعيدا. حينها نغدو دولة عظيمة... دولة "طبيعية" كغيرنا من الدول الغربية الغنية. سنلحق بركب تلك الدول. كان أفهم كل ذلك، وأسجله في كراستي. كم تمنيت لو كان عمر معي في تلك المحاضرة. كان ستعجبه نظرية روستو. ولكن بعد ذلك أصلح البروفيسور من وضع نظارته فوق أنفه وقال: "والآن نتحدث عن نقد الماركسيين لتفسير روستو للتخلف الاقتصادي وعدم التنمية." إذن لم تكن تلك النظرية صحيحة على كل حال. لن نتمكن من الانطلاق. بدأ الطلاب في التململ وإحداث همهمات وأصوت بأرجلهم مشيرين إلى أن وقت صلاة المغرب قد حان. تجاهل البروفيسور هذه الاحتجاجات ومضى في محاضرته قائلا: "يعلمنا التاريخ أنه ليس كل الدول المتقدمة قد نمت بحسب نظرية روستو..." ارتفعت أصوات الهمهمات، وتجرأ طالبان شجاعان وخرجا من قاعة المحاضرات دون استئذان، وبدأت بعض الطالبات في الضحك. أضطر البروفيسور للتنازل وقال: "سنأخذ استراحة قصيرة لعشر دقائق."

تزاحم الجميع على الباب. قالت إحدى الطالبات اللواتي كن يجلسن بقربي وهو تبتسم: "لأنه شيوعي فهو لا يأبه ولا يهتم بالصلاة." كانت تلك هي الفتاة الريفية الجميلة ذات الدمامل. تخطتني متعجلة كي تغادر القاعة وهي تنادي على صويحباتها. كانت ترتدي شبشبا بكعب عال يصفع كعبها مع كل خطوة، وكانت ترتدي اليوم ثوبا أزرقا جعلها تبدو أكثر حلاوة. من المعتاد أن ترتدي الطالبات الثياب البيضاء في الصباح، والثياب الملونة في المساء. كنت أحب مشاهدة التغيرات التي يحدثها تغيير الثوب فيهن... من الأبيض في الصباح، إلى ما يلبسهن بالمساء من الزهري والأزرق والمطرز بالزهور والأشكال من الثياب الملونة بألوان فاقعة صارخة.

كنت من آخر من غادر القاعة. وجدت أنور يتحدث مع البروفيسور بتبسط كأنه صديق حميم قديم. مررت من أمامهما إلى الحديقة الخارجية، وجلست على سلالم إحدى الشرفات أرقب الذين كانوا يصلون. لم يكن كل الطلاب يصلون. لم تكن الفتيات غير المحجبات أو اللواتي لا يرتدين الثوب السوداني - مثلي أنا- يصلين. كان من الممكن أيضا أن تتعرف على طلاب الجبهة لأنهم لم يكونوا من المصلين. تراص الطلاب المصلون على ذلك "البرش" المنشور على العشب الأخضر، لكنه كان صغيرا لم يسع جميع المصلين، فصلى من لم يجد له مكانا في "البرش" على العشب الأخضر. فرش

محاضرنا في علم الرياضيات - وكان من الأخوان المسلمين- منديله الأبيض على العشب الأخضر في موضع سجوده ووقف كتفا بكتف بين الجناينية. كان من أم المصلين طالب يتلو آيات القرآن بأسلوب سهل صاف وشديد الخشوع. حدقت في ثياب البنات المصليت جميعا، ولاحظت تنويع الألوان فيها، ونسمات الهواء تحركها أحيانا. عندما كن يركعن تتدلى أقمشة البوليستر على العشب الخضر.

فجأة جاء صوت من الخلف. "لماذا تتجاهليني؟" أحسست أنه كان يقاطعني... يقاطعني في ماذا؟ لا أدري. لم أجبه. نهضت بسرعة واتجهت صوب قاعة المحاضرات. لم أعد أرى المصلين من الطلاب، واحسست بطعنة من الحسد تجاههم. كان ذلك مفاجئا وغير عقلي ولا منطقي. ماذا عندهم، وليس عندي، لأحسدهم عليه؟

تبعني أنور. كنا وحيدين أمام مدخل قاعة المحاضرات. جذب ذراعي فوق المرفق وقال في حدة: "لا تعبثي بي."

حاولت سحب ذراعي من قبضته ولكنه ظل ممسكا بها وقلت: "أنا الذي يحق له أن يغضب."

"أنتي غضبانة بسبب ما قلته ذلك اليوم في الندوة."

"نعم. بالضبط أنا غضبانة بسبب ما قلته ذلك اليوم في الندوة."

ترك ذراعي وقال: "هذا ليس له دخل بك البتة..."

قاطعته: "لكنه اسمي. إنه أبي."

"إنك تأخذين الأمور بصورة شخصية. وسعي من عقلك."

"لا أريد أن أوسع عقلي."

"هل تعلمين ماذا يقول عنه الناس؟"

"لا أريد أن أعرف."

"يسمونه مستر تن بير سنت (عشرة في المائة). هل تعلمين لماذا؟"

"توقف عن هذا."

"لا تستطعين دفن رأسك في الرمال. يجب عليك معرفة ما يفعله والدك. هو يستغل وجوده في الحكومة. إنه يفرض عمولات على كل صفقة تبرمها الحكومة مع شركة أجنبية."

نطق أنور كلمة عمولات بالإنجليزية. كوميشنز. بدت لأذني تلك الكلمة رسمية ومحايدة ولا تضمر أي لوم أو اتهام. لذا اجبته في تهكم: "وماذا في ذلك!"

خفض من صوته، بيد أنه كان أكثر حدة: "هو يختلس الأموال. هذه الحياة التي تنعمين بها- سيارتك الجديدة، بيتكم الجديد. إن عائلتكم تزداد غني مع

مرور كل يوم. ألا ترين؟ هذا فساد."
كان غضبي كستارة ثقيلة تحول بيني وبينه. "كيف تجرؤ على التلفظ بهذه الأكاذيب عن أبي! أبي هو أنا، وعائلتي هي أنا."
"حاولي أن تفهمي هذا الأمر. إن مشاعري نحوك، وسياستي أمران مختلفان جدا... لا جامع بينهما. يكفي أن علاقتي معك تجعلني أضحوكة وسط زملائي."
"إذن دعني وشأني. فقط دعني وشأني، ولن يضحك عليك أحد."
زفر بنفاذ صبر، واستدار وذهب بعيدا. دخلت إلى قاعة المحاضرة، ولم أجدها فارغة، بل وجدت فتاة ترتدي الحجاب جالسة وهي تقلم أظفارها. بدت لي خالية من الهم وراضية عن نفسها وهي تهذب من أظفارها في القاعة. ربما تكون قد سمعت كل ما دار بيني وبين أنور من حديث. ماذا كانت تفعل وحيدة في القاعة؟ ولم لم تذهب للصلاة مع البقية؟ ربما تكون في عادتها الشهرية. جلست في مقعدي، ولأثبت لنفسي أنني لست منزعجة لما حدث للتو، أخرجت ورقة وقلما وبدأت في كتابة اسماء من أرغب في دعوتهم لحفل وداع رندا.

الفصل السادس

بيتزا وبيبسي وشيبس (رقائق بطاطس محمرة) وكاتشب (صلصة طماطم). كعك وطعمية. سمبوسة واكلير بالشوكلاتا من محل ال"جي بي". سندوتشات تونا وبيض وسجق وجبنة بيضاء مع زيتون. آيس كريم فانيلا في كؤوس ورقية. وزعتها في الظلام وانتهيت برمي معالق بلاستكية في زهرة الأواني. كنا أشباحا داكنة السواد، وظلال بنفسجية على السيارات. كلنا كنا في غاية الجمال تحت ضوء القمر.

"آسف يا صحاب، مولد الكهرباء لا يعمل..."

"ليس بإمكاني تشغيل هذه الآلة اللعينة."

"لماذا يقطعون عنا التيار الكهربائي في عز الشتاء؟ ما هي مشكلة هؤلاء الناس؟"

"انتبه! والدهم هو الحكومة."

"أليس لديكم بطاريات لمسجل الشرائط."

"بطاريات. عمر... احضر لنا بطاريات. قم."

"سأذهب لأشتري بعضها."

"لا... لا."

"ستسافر لنيروبي لحضور العرس"

"خمسة دقائق في السيارة..."

"لديك أروع أسنان بيضاء رأيتها... هل سبق أن قال لك أحد ذلك؟ أنني استطيع رؤيتهما في الظلام!"

"إنك تحرج الرجل."

"هذا هو حفل وداعي. هذا؟"

"رندا!"

"أنني سعيد لأنني سأفارقكم... هل هذا أفضل ما يمكنكم عمله."

"انظر إلى هذه البنت!"

"بعد يوم الغد لن تقطع الكهرباء. الحضارة."

"خذ لك ساندويتش! هذا يبدو أنه بيض... لا استطيع التمييز... شمه... هذا بالتأكيد سجق..."

"قد يرجع التيار الكهربائي؟"

"ما المشكلة في مولد الكهرباء عندكم على كل حال؟ لماذا لم تستطع أن تشغله؟"

"دعنا نذهب..."

"لا أحد سيذهب لي مكان. لا يتحرك أحد منكم. سمير... ستفسد الحفل."

"لو كان لدينا موسيقي..."
"ماذا يفعل؟ لا... لا يمكنك الذهاب. من فضلكم لا تذهبوا."
"سمير، لا يمكنك أن تذهب الآن."
سطع ضوء السيارة على سمير بتسريحة شعره "الأفرو" وشاربه الجديد. جلس في المقعد بجانب السائق، وكانت رجله اليسرى ما زالت خارج السيارة، وباب السيارة مفتوحا. جلس ينظر إلى راديو ومسجل السيارة ويعبث بمقابضها، وفجأة دوي صوت هدير المسجل بأغنية هيت وييف "بوقي نايت".
بدأ يرقص أمامنا. ضحكت رندا عليه عاليا.
صرخت بصوت عالي فوق صوت الموسيقي: "سمير... أنت عبقري."
"يا رجل... أشعل محرك السيارة، وإلا ستموت البطارية تماما."
أحسست بحزن وألم عند مغادرتهم. جلست في الشرفة بينما كان الخدم ينظفون المكان، والذي كان لا يزال مظلما لأن الكهرباء لم تكن قد عادت بعد، ولكن كانت عيناي قد تعودتا على الظلام، وكان بإمكاني أن أرى المنازل المجاورة والأرجوحة في الحديقة. لقد فشل الحفل فشلا ذريعا. ذهب عمر وثلة من الآخرين إلى أمكنة أخرى، وعادت رندا لمنزلها لترتب أغراض السفر. ودعتني وقالت لي إن الحفل كان رائعا. لم تكن تعني ذلك بالقطع. أعلم عين اليقين إنها لم تكن تعني ما قالت. أفسد انقطاع التيار الكهربائي كل شيء. كنا في دقيقة في داخل الدار نرقص في طرب على الموسيقى الصاخبة والجو عامر بالفرح والحبور، وفي الدقيقة التالية كنا في الحديقة في ظلام أخرس دامس تحت سماء مخيفة. لم تعد الأضواء مرة أخرى، وكان مولد الكهرباء عديم الفائدة. سيغتابوننا ويقولون بأننا أغنياء فاحشي الثراء، ولكننا بخلاء لا نمتلك مولدا للكهرباء يعمل جيدا. أعلم بأنهم سيقولون ذلك بالتأكيد لأنني كنت سأقول ذات القول إن كنت مكانهم.
فكرت في أنور، ومدى بعده من صحابي. لم يكن يعرف ابن عمي سمير ولا رندا. الآن عندما أراه في الجامعة يقول لي مرحبا، وأرد عليه بمرحبا، ولا أزيد. هذا كل شيء. أحيانا ينظر إلى وكأنه يريد أن يقول شيئا ولكنه لا يفعل. يبدو عليه الانشغال هذه الأيام بكثير من النشاطات في "الجبهة". لازلت أفكر في الأمور التي حدثني عنها، وأحاول فهمها. لماذا شعرت بالرعب عندما قال لي: "لن سيستمر الوضع في البلاد هكذا،" أو عندما قال: "سيسقط النظام لا محالة." لقد قال لي بأن أخته الأصغر كفيفة البصر وإنهم كانوا سيسافرون بها لألمانيا لإجراء عملية جراحية إن كانوا يملكون المال الكافي. كنا نسافر لأوروبا كل عام، ونقضي الصيف في شقتنا في

لندن أو في فنادق في باريس وروما لنتسوق من محلاتها. لو قضينا صيفا واحدا في بيتنا بالخرطوم، سيكون بمقدور أنور أن يأخذ المال ويجري لأخته العملية. عندما كنت صغيرة قبل دخولي للمدرسة الثانوية كنت أقع في بعض المشاكل مع ماما وبابا حول أشياء كهذه. كنت أعطي كل ما يعطي لي من مال لبنت في صفي. أعطيت ذات مرة حلق أذناي الذهبية لخادمة إثيوبية. جرى فصل الخادمة على الفور، بينما دخلت زميلتي التلميذة في مشكلة مع مديرة المدرسة. تقول ماما دوما إن هنالك قواعد للعمل الخيري. لا تعطي الصدقة بحسب الأهواء والنزوات. ستحتقرين وسيظن بك الظنون وتعد ساذجا.

تعلمت هذه القواعد. لا تعطي إلا الملابس التي لبستها. أعطي بعدل، وأعطي بحساب، وأعطي فقط ما هو متوقع. يمكن أن تسئ إلى الناس إن أعطيتهم أكثر مما يجب. يمكن أن تربكهم. يمكن أن تحرج الكثيرين إن وهبتهم هدايا باهظة الثمن، فيضطرون إلى مبادلتك الهدايا بمثلها. لا تعط لأحد شيئا وتنسى زميله أو شقيقه أو شقيقته. فكر. فكر جيدا قبل أن تعطي شيئا. هل الهدية متوقعة منك أم لا؟

ظللت مستيقظة حتى أتى عمر. نزل من سيارة أحد اصدقائه أمام بواية الدار، ومضى يمشي ببطء لداخل المنزل متعثرا عبر درج الشرفة، وكاد يسقط في إحداها. لم يرني حتى خاطبته. كانت هنالك في الشرفة أريكة بنيت على الحائط. ألقى بجسده عليها وهو يحلق في السماء ويديه تتدليان إلى الأرض. شممت منه ذات الرائحة الدخانية الحلوة، والتي استطيع تمييزها من رائحة البيرة.

"أنت في مشكلة عظيمة. وقعتك سوداء،" لم يعرني أدني التفاتة. "وجدت ظرفا مليئا بالبودرة في درجك."

أجاب وقد بدا هادئا ولكن أكثر تيقظا "هل أخذتِها؟"

"لا، ولكني سأخبر بابا عنها."

قال وهو يتكلم ببطء شديد: "هي لا شيء يا نجوى. هي مجرد بنقو. لا تسبب الإدمان- أقوى قليلا من السجائر - هذا كل ما في الأمر."

"أتظن أن بابا سيسعد عندما يعلم إن ابنه يدخن الحشيش؟"

"وهل سيسعد إن علم أن ابنته تصاحب شيوعيا؟"

"لقد انتهي كل شيء بيني وبين أنور."

رد وهو يحول جسده للناحية الأخرى وينظر إليّ في الظلام: ": كل ما الأمر إنكما تشاجرتما. ستتصالحا. وعندما تفعلان، هل تعلمين ما سيفعله بابا

به؟ سيرسل له مجموعة من البلطجية ليضربوه، وعندما يتخرج، سيعمل بابا على قفل الطريق أمامه فلا يجد له وظيفة محترمة."

تنهدتُ قائلة: "كلامك فارغ- ما تتعاطاه قد أفسد عقلك. بابا لن يفعل شيئا من ذلك."

رد ضاحكا: "سيفعل أي شيء لحماية إبنته." انقلب مرة أخرى على جنبه وبقي هادئا." بدأ يتنفس بإنتظام وكأنه بدأ في النوم.

"يستحسن أن تدخل لغرفتك قبل أن يرجعا."

أصدر شخرة.

"خذ هذا المصباح اليدوي". وضعته في يده.

عندما كان يسير نحو داخل الدار، رأيت أضواء سيارة بابا آتية نحو البيت. فتح حارس البوابة الليلي بعد أن سمع صوت بوق السيارة الآيتة. سمعت صوت عجلات السيارة تسير على حصى المدخل، وصوت ماما وهي خارجة من السيارة وهي تقول: "منذ متى وهذه الأضواء مطفأة؟"

حضنت بابا وكأني أخشى من شيء ما، وكأن حضنه سيذهب بخوفي. شممت فيه رائحة لحم مشوي وويسكي (والذي كان من المفترض أنه ممنوع قانونا في البلاد). تحركت بعيدا عنه. بدت ماما متعبة مهدلة الأكتاف. وحتى في ضوء القمر تبينت في وجها الماسكارا تخط ما حول عينيها. لم يسألا عن الحفل، وطفقا يكملان ما كانا فيه من حديث في السيارة.

سمعت أبي يقول: "سوف يخرج منتصرا... لقد واجه معارضة من قبل."

ردت عليه: "أتمنى ذلك. ما يضره يضرنا."

فتحت باب البيت. عاد التيار الكهربائي فجأة وجهرت عيني."

الفصل السابع

ليس من عادة بابا أن يشركنا في أمنياته، لكنه فعلها في ذلك اليوم. كنا في المزرعة، وكان يرتدي يومها بدلة سفاري. كان متوترا قليلا لأنه لم يكن يحب التجمعات العائلية التي تنظمها ماما. كان يؤثر لقاء الأصدقاء التجاريين والشركاء المحتملين على تلك الرحلات التي تستمر طوال اليوم حيث لعب الورق والأكل المتواصل طوال اليوم. كان جالسا على كرسيه المريح القابل للطي ويجيل بصره إلى السماء حيث كانت تحلق طائرة صغيرة من فوق رؤوسنا وتنثر مواد مبيدة للهوام. "يوما ما سأمتلك طائرتي الخاصة. ثلاث سنوات على أكثر تقدير- لقد خططت للأمر جيدا."

قلنا أنا وعمر في نفس واحد: "واو،". كنا جالسين على حصيرة على العشب الأخضر.

"فكروا في أبيكم يا أبنائي. لقد بدأت من الصفر... بلا أب، ولا تعليم جيد... بدون سند. والآن سأقوم بامتلاك طائرتي الخاصة."

قال عمر: "سأقودها لك... سآخذ دروسا في قيادة الطيارات."

نظر بابا لنا من خلال نظاراته المذهبة الحواف، وسأل عمر: "كم عمرك الآن؟"

هتف عمر: "19 سنة"

"وصلت 19 سنة الآن. أنتي أيضا يا نجوى؟"

"ابتسمت وقلت: "نعم"

كان يعابثنا ويحاول إغاظتنا: "كنت أظنك 18 سنة"

قال عمر: "كان ذلك في العام السابق." وضحكت لقوله.

كنا أنا وعمر نرتدي في ذلك اليوم ملابس بذات الألوان، وذلك أمر نادر الحدوث. كنا أيضا نرتدي بنطلون جينز رانجلير، وكنت أرتدي قميص بولو أصفر، وكان هو يرتدي قميصا طويل الأكمام بذات اللون. أتت ماما بآلة تصوير وصورتنا. بعد سنوات عديدة، وبعد أن تهاوى كل شيء، بقيت تلك الصورة والتي كنا نبتسم فيها معا، وفي شعري ترقد زهرة وردية، واضعة رجلي اليمنى علي اليسرى، مرفقي على ركبتي، ويدي على ذقني. كان عمر يجلس بجانبي، ظهره مقابل ذراعي... براق العينين، مادا رجليه، ومستندا قليلا إلى جهاز التسجيل، وفي حضنه (وعلى السجادة الحمراء ذات الترابيع) ترقد بعض شرائط الكاسيت مبعثرة. بعد سنوات عديدة، وبعد أن تهاوى كل شيء، كنت أمعن النظر في الصورة وأحاول أن استبين عن طريق ألوان وكلمات تلك الشرائط، والتي كنت نشتريها أثناء عطلاتنا الصيفية في لندن،

أسماء مغنيها: مايكل جاكسون وستيفي وندر وهوت شوكولت، وشرائطي الخاصة لبوني ام.

بدأ كل شيء ينهار في ذلك المساء... بعد ساعات طويلة من انتهاء تلك الرحلة... بعد الشواء وبعد أن غادر الضيوف إلى بيوتهم وعدنا... بعد الكباب المشوي وسلطة الفول السوداني والبيض المسلوق والبطيخ والجوافة. رجعنا بالسيارة صامتين فقد كنا كلنا متعبين. قمت بغسل شعري ذلك المساء مما علق به من غبار ذلك اليوم. تفحصت لدغة نملة على مرفقي. كانت متورمة ومؤلمة ولم أستطع أن أكف عن حكها. في الليل وقرب الفجر أتى ذلك الاتصال الهاتفي. سمعت صوت رناته وظننت أن أحدا قد مات. لقد حدث ذلك من قبل أن مات أحد أقرباء ماما القريبين، ووجب على ماما وبابا أن يغادرا المنزل في هزيع الليل الأخير. ظلا يكرران في الأيام التي تلت الوفاة: "جئنا للعزاء بعد لحظات من سماعنا لنبأ الوفاة... جئنا بالليل."

لم أغادر سريرى. لم أكن فضولية بما يكفي. سمعت صوت بابا يتحدث في الهاتف، بيد أني لم أتبين كلامه. كنت أنصت لصوته، وتبين لي أن شيئا ما ليس طبيعيا. لم تكن في صوته مشاعر الصدمة والحرقة التي تصاحب خبر الوفاة. جلست على السرير، وبدأت عيناي تتأقلمان على الظلام. كان الليل معتدل الحرارة فلم نكن نحتاج لتشغيل المكيفات. لو كانت المكيفات تعمل لتعذر علي سماع تلك المحادثة.

كان الباب المؤدي لغرفة عمر مغلقا. مشيت عبر الدهليز (الرواق) إلى غرفة والدي. كان نورها مضأ، وبابها مفتوحا جزئيا. رأيت حقيبة السفر موضوعة على السرير، ورأيت ماما تضع بعضا من جوارب بابا في حقيبة سفره، والتي كانت شبه ممتلئة. كان يرتدي ملابسه ويزرر قميصه. التفت ونظر إلي وكأنه لا يستطيع رؤيتي، وكأنه من الطبيعي أن يخرج من البيت مسافرا عند منتصف الليل.

سألته: "أمسافر أنت؟" لم يجب أي منهما. مضت ماما تذرع الغرفة جيئة وذهابا، وتملأ حقيبة السفر وهي في حيرة وذهول واشتغال بال، وكأنها تستمع لصوت في أعماقها... صوت كأنه يخبرها بما ينبغي عليها فعله. قالت لي: "عودي لسرير نومك."

كنت في أقصى حالات اليقظة. دخلت غرفة الحمام وطفقت أنظر لوجهي في المرآة. أصلحت من وضع حواجبي وأعجبني توافق لون بيجامتي الصفراء مع لون جسدي، ونسيت أمر بابا.

عندما خرجت من الحمام، سمعت صوت محرك السيارة. كان هو من يقود السيارة إذ أن سائقنا موسى كان يغادرنا كل يوم في المساء ولا ينام

في المنزل. سألت نفسي عن وجهة سفر أبي. لماذا لم يخبراني عن أن قريبا لنا قد توفي في الخارج. ذهبت لعمر في غرفته وبدأت في إيقاظه. استيقظ ولكنه رفض أن يأتي معي للنافذة. راقبت أبي من خلال ستائر النافذة وهو يخرج السيارة من الكراج، ويسير بها فوق الحصى إلى البوابة. رأيت الحارس الليلي يفتح البوابة للسيارة، ثم رأيت أنوار سيارة قادمة بسرعة نحو بوابة دارنا. وقفت تلك السيارة فجأة محدثة صريرا عاليا، وسدت الطريق على سيارة بابا المغادرة. خرج رجلان من السيارة، ووقف أحدهما بجانب باب سيارته، بينما تقدم الآخر لسيارة بابا وفتح بابها... كما يفعل موسى له يوميا... ولكن ليس تماما... ليس تماما. أوقف بابا محرك السيارة وخرج منها، وتحدث مع الرجل وأشار إلى صندوق السيارة. قال الرجل شيئا لزميله، فقام بفتح الصندوق واستخرج منها حقيبة بابا. بدأ الرجلان في التحرك نحو سيارتهما وتركا سيارة بابا واقفة في الطريق الممتد من البيت إلى للشارع... ليست في البيت، وليست خارجه أيضا. أستل بابا شيئا من جيبه، ربما بعض النقود أو مفاتيح السيارة، وأعطاها للحارس الليلي وركب مع الرجلين في سيارتهما. جلس في المقعد الخلفي، وكان هذا خطأ... عرفت أن الأمر ليس طبيعيا من ركوب بابا في المقعد الخلفي. لم أره في حياتي يركب في أي سيارة في المقعد الخلفي، سوى في سيارات الأجرة أو عندما كان موسى يقود سيارته. أتت ماما لغرفة عمر ووقفت بجانبي تراقب ما يجري. كانت تصرفاتها تخيفني. كانت تصك أسنانها، وتحاول جاهدة أن لا تنهار باكية وهي تخبط برفق بكفها على النافذة. قام عمر ووضع يديه حول كتفها وأخذها بعيدا عن النافذة.

كان عمر يقول لها: "ماذا يحدث؟ ما المشكلة يا ماما؟"

كان صوته هادئا وطبيعيا. نظرت إلى الشارع الخالي المظلم، وإلى سيارة بابا المهجورة في الطريق، وإلى الحارس الليلي يحاول - دون جدوى- إغلاق البوابة، فالسيارة تسد البوابة، وهو لا يستطيع تحريكها لجهله بقيادة السيارات. ينبغي عليه الانتظار حتى الصباح حين يأتي موسى.

جلست ماما وعمر على السرير، وكرر عمر السؤال بصوت صبور: "ما المشكلة يا ماما؟"

"لقد حدث انقلاب عسكري".

الفصل الثامن

مرت أسابيعنا الأولى في لندن بخير. لم نلحظ حتى أننا كنا نهوي. ما أن تخطينا صدمة مغادرة البلاد على عجل بعد يوم من الانقلاب واعتقال بابا، حتى بدأت أنا وعمر في الاستمتاع بلندن. لم نكن قد زرنا لندن في إبريل من قبل. كان أول ما فعلناه هو زيارة شارع أكسفورد لشراء ملابس جديدة. كانت متعة حقيقية أن نفعل الأشياء التي لم نكن نفعلها ونحن ببلادنا، مثل التسوق لشراء الخضروات والفواكه، ودفع المكنسة الكهربائية حول الغرف، وطبخ الأطعمة المجمدة. كنا سعداء بقيامنا بكل ما اعتدنا فعله في لندن في الصيف. ذهب عمر إلى ليستير اسكوير لمشاهدة فيلم في أحدى دور العرض، ولا أدري كم شريط اشتراها من محل "اتش إم في". طفت بكثير من محلات العطور والزينة، في أسواق "سيلفريدج" أجرب العطور وأنواع المكياج.

لم تتأقلم ماما على حالها الجديد. كانت في حالة ذهول شبه دائم. كانت تمر بحالات من البكاء المر دون سبب، وتهذي وتهمهم وتغمغم في نومها ليلا. أبدت مناعة شديدة ضد مباهج الحياة في لندن، ورفضت الخروج للتسوق، وظلت تقضي يومها تتابع أخبار الانقلاب، وتقرأ الصحف العربية وكذلك البريطانية مثل التايمز والجارديان، وتهاتف الكثيرين، وتدع جهاز التلفاز مفتوحا طوال الوقت. كانت شقتنا في "لانكستر قيت" تعج دوما بسيل من الزوار السودانيين من رجال الأعمال القادمين للندن، وموظفي السفارة السودانيين القلقين على مستقبلهم بعد الانقلاب، واحتمالات تغييرهم بعد تكوين الحكومة الجديدة. كلهم طمئنوا ماما عن بابا. كانوا يقولون لها أنه سيطلق سراحه وسيلتحق بها في لندن قريبا. كانوا يؤكدون لها أن الأمور ستهدأ، وأن فورة حماس وثورية الانقلابيين ستموت، وإن عليها الصبر، لأنهم سوف يستعرضون عضلاتهم في البداية فقط، وسترتخي قبضتهم فيما بعد وسريعا. كانت تستمع إليهم في صبر وهدوء، وكنت أقوم على خدمتهم بتقديم القهوة والشاي. كان وجهها صارما من دون مكياج، وكان شعرها غير مرتب وملفوفا على شكل كعكة، إذ أنها لم تعد تصصف شعرها عند مزين النساء، وكانت الملابس التي ترتديها تحت الثوب ذات ألوان قاتمة.

اتصلت بي رندا هاتفيا من كليتها في "ويلز" وصرخت: "أكاد لا اصدق أنكم جميعا بالفعل هنا!"

"أنا نفسي لا أصدق- لقد ودعتك قبل أيام قليلة..."

"ما الذي تنوون عمله الآن؟"

بلعت ريقي وأحسست بحرارة في جبهتي وأنا أقول: "نحن ننتظر بابا لينضم إلينا هنا. نحن قلقون عليه."

"وماذا بعد؟ كم من الزمن ستقضون هنا؟ وماذا عن جامعتك؟"

"لآ أدري يا رندا. أحضرت معي كل كتبي ومذكراتي..."

"ولكن يبدو أن هذه الحكومة الجديدة قد أتت لتبقى. لقد نجح الانقلاب. أتوقع أن تبقي هنا كلاجئة سياسية..."

"قد يسمحون لنا بالرجوع. لا أدري." لم أكن قد فكرت وخططت لمثل تلك الأشياء.

"يمكنك الحضور لي هنا كما تعلمين."

"ماذا تقصدين بـ "هنا". هنا أين؟"

"هنا في "اتلانتك كولج" معي."

لسبب ما غمرتني فكرتها برعب فظيع. "سوف يحب عمر الفكرة- لكن يا رندا، أخبريني عنها. أخبريني ما رأيك أنت. هل تحبين الحياة في ويلز. هل تعملين بجد واجتهاد؟ هل مارستي صعود الجبال؟"

"سأخبرك عن كل ذلك في خطاب سأرسله لك. لا أستطيع البقاء في الهاتف لمدة أطول."

"حسنا. أعطي الخطاب لسمير، فهو سيأتي إلينا في عطلة نهاية الأسبوع."

"يااااه! حسنا سأفعل. كثيرا ما أصادفه في الكلية."

"رندا... نسيت أن أخبرك. سنداري حامل..."

قالت بنرة مستهجنة: "مااااذا؟"

"كانت فضيحة كبيرة. حتى أن السفارة الأميريكية تدخلت في الأمر... ليس لهذا السبب أحضر الأمريكان جنود بحريتهم." حاولت - دون جدوى- أن أضحك علي طرفتي، بيد أن ما خرج مني من صوت كان أشبه بسعال ثقيل.

أتى سمير في عطلة نهاية الأسبوع وهو يرتدي بنطال جينز باهت اللوت وسترة جلدية، وكان يضع حول عينيه نظارة جديدة. أخذ عمر بالأحضان، وشعرت أنا مرة ثانية بتلك الحمي في جبهتي، والتي صارت تزورني بين حين وآخر. قبل خد ماما فبدأت في البكاء، مسببة لنا حرجا كبيرا.

سأل سمير بعد أن جلس على كرسي وثير في مقابل كرسي عمر: "هل من جديد؟". جلست أنا مع أمي على الكنبة. كان التلفاز مفتوحا... صورة دون صوت كما نفعل دوما هذه الأيام.

رد عمر بالقول: "سيقدمونه للمحاكمة." مسحت ماما، وفمها مفتوح، عينها الدامعة بمنديل كان في يدها.

حرك سمير جسده في الكرسي الوثير ذي الوسائد الناعمة وهو يقول: "إن شاء الله، تتعدل الأحوال." أردت أن أرد عليه وأسأله: "وماذا إن لم تتعدل الأحوال؟ ما الذي سيحدث إن وجوده مذنبا؟ ماذا سيحدث إن كان بالفعل مذنبا؟"... قلت ذلك في نفسي وكأني أفهم ما سيقدمونه للمحاكمة من أجله... الفساد. ماذا يعني ذلك؟ كيف لمثل تلك الكلمة أن تعلق بأبي. كان من الواجب علينا أن لا ندعه وحده. كان علينا البقاء بجانبه. ماذا نفعل هنا. كانت تلك فكرة خالنا "صالح" أن نأتي هنا. كان قد دبر كل شيء في ساعات معدودة، وأفحل في إدخالنا لآخر طائرة غادرت المطار قبل إغلاق المطار. ولكن ربما كان خالي مخطئا. ربما كان علينا البقاء. ربما يفسر سفرنا هكذا بأنه هروب قد يفضي لمزيد من المتاعب لبابا ويجعله يبدو مذنبا. أليس يبدو من تصرفنا هذا وكأننا مذنبين؟ بيد أنني لم أفتح فمي بكلمة. جلست أبحلق في إعلان في التلفاز عن الشيوكولاتا والقهوة ومسلسل درامي جديد مرتقب. كلما شاهدت التلفزيون نسيت أمر بابا والطعام الردئ الذي لابد أنه يقدم له في "البيت" الذي يحبس فيه، المحاكمة القادمة. كان الرئيس حين وقوع الانقلاب في أمريكا. أتصل بماما هاتفيا بالأمس. قالت ماما فيما بعد: "إنها غلطته هو. كل الذي حدث بسببه." لكنها كانت بالغة التهذيب معه في تلك المحادثة. تماما كما كانت معه دوما، تخاطبه بـ "صاحب السعادة".

سألت سمير وأنا فرحة برؤية وجه من الوجوه المألوفة: "هل ترغب في تناول شاي أم مشروب بارد؟"

أجاب سمير: "عندي لك خطاب من رندا." تناولته منه، وذهبت لأقرأه في المطبخ.

صاحت ماما: "أين ذلك الشاي؟". توقفت في منتصف وصف رندا لتعليمهم حلب الأبقار (يا للسخف أن يعد ذلك من ضمن المنهج!) وشغلت مغلاة الماء الكهربائية.

كان محل "بيتزا هت" دافئا وكانوا يشغلون فيه آخر الأغنيات الجديدة، والتي بدأت لتوي في التعرف عليها. تشارك ثلاثتنا في طلب قطعة بيتزا (مغطاة بمأكولات بحرية) من الحجم الكبير، وطلب سمير أيضا شيئا لم أكن قد تذوقته من قبل: خبز بالثوم مع الجبن. كان لذيذا جدا. كان الجو في الخارج في "ليستر اسكوير" حيث خرجنا باردا جدا، ولكن الأضواء الساطعة وحركة الناس أنستني أن الوقت ليل. خرج كثير من الناس من المسارح ودور العرض السينمائية قاصدين المطاعم ومحطات قطار الأنفاق. وقف على أبواب النوادي الليلية حراس غلاظ شداد وهم في صديرياتهم السوداء

المقلمة. في أحد دور العرض السينمائية كان فيلم "حمى ليلة السبت" لا يزال معروضا. توقفنا أمام أحد مراقص الديسكو. كنا نسمع من المدخل إيقاعات "مايكل جاكسون" العالية في أغنية "بيلي جينز"، ونرى وميض الأنوار الحمراء وبريقها.

سألت عمر ساخطة مستنكرة: "أمجنون أنت؟ كيف لنا أن نرتاد مرقصا للديسكو؟"

"أجاب وهو يقلد مشية أول إنسان على سطح القمر: "لم لا؟" كان تقليده لتلك المشية بديعا بيد أنني لك أكن في مزاج للثناء عليه.

التفت لسمير وقلت له: "أخبره لم لا." اكتفى سمير بهز كتفيه ولم يحر جوابا، ونأي بنفسه وذهب بعيدا. بدا رسميا ومتحفظا بصورة لم نألفها من قبل.

قلت لعمر: "لا نستطيع الذهاب للديسكو بسبب بابا. ماذا سيقول الناس عنا؟ الرجل في السجن وينتظر المحاكمة، وأبناؤه في لندن يرقصون."

"أي ناس؟ من تظنيينه يعرفنا هنا؟ دعك من هذا السخف." التفت لسمير بحثا عن مناصر له، فرآه بعيدا يتأمل في زجاج أحد المحلات.

"قد يكون هنالك فرد واحد يرآنا في المرقص ويتعرف علينا. ربما يحدث ذلك. لماذا نخاطر؟"

"أنت موسوسة بما يقوله أو سيقوله الناس عنك!"

"لست مسوسة ولا مهووسة. أنا فقط متأكد من أننا لو كنا في الخرطوم فلن نكون في ديسكو."

"لسنا الآن في الخرطوم. اسمعي. فقط عودي إلى البيت."

"حسنا. سأعود إلى البيت."

بدأ عمر في السير نحو المرقص، ودعا سمير إلى مرافقته.

قال لي سمير: "اسمعي. سآخذك إلى البيت أولا". لم يكن يرغب في أن يرجعني للبيت فعلا. أحسست أنه بدا متضجرا منا. كأن شيئا حدث جعلنا أقل منه شأنا. كأنه صار كبيرا في السن ونحن مازلنا صغارا.

رددت عليه: "لا. أبق مع عمر. سأكون بخير بمفردي."

كانت شقتنا علي مبعدة قليلة إن أخذت قطار الأنفاق. كانت أرضية القطار مليئة بأعقاب السجائر والعلب الفارغة. بدا على الركاب النعاس والإرهاق والتوتر. أحسست كأننا كنا نتحرك في زمان غادر متعفن. سيحاكم بابا وسيجدونه مذنبا. لماذا يحاكمونه إذن؟ سيكون ذلك هو العدل الذي ظلت الصحف تكتب عنه. النظام الجديد يحظى بتأييد الجبهة الديمقراطية. كان النظام الجديد محبوبا من الجماهير، فقد كان يعلن أنه ضد الاقطاعية، وضد

تكديس الثروات، وضد وضع ثروات ومقدرات البلاد في أيد قلة قليلة. أعطي بعض أفراد الجبهة الديمقراطية وظائف في قمة الحكومة الجديدة. عين محاضر الاقتصاد الذي كان يحدثنا عن نظرية روستو وانطلاق طائرة التنمية وزيرا للإقتصاد. كنت أقرأ كل ذلك في الصحف التي كانت تقرأها ماما وترميها. قرأت مقالا عن محاكمة بابا بقلم أحد الطلاب - أليس الطلاب هم طليعة الثورة؟ يقول الطالب في مقاله إن العدالة هي مطلب الشعب، وأنه ليس هنالك أكثر شيء عدلا من القصاص من المفسدين بشنقهم. كان المقال بقل طالب أعرفه جيديا. كان بقلم أنور.

ثمة أنواع متباينة من الألم، ودرجات للسقوط. في الأسبوع الأول لنا في لندن، أحسست بأن الأرض تهتز تحت أقدامنا. عندما وجد بابا مذنبا أصبنا بالإنهيار. امتلأت الشقة بوفود من المتعاطفين، وكانت ماما في حالة نحيب لا ينقطع. كان عمر يخبط على الأبواب ويقضي ليله كله خارج البيت. عندما تم شنق بابا أنشقت الأرض التي كنا نقف عليها هوينا إلى قاع سحيق لا نهاية له. كنا نهوي ونهوي دون نهاية ولا قرار. كانت تلك عقوبتنا. حفرة بلا قعر... صار كل واحد غريبا عن الآخر... فقط لأن لا أحد منا رأى من قبل الآخر وهو يهوي.

الجزء الثانيلندن، 2003

الفصل التاسع

وقفت لمياء، مخدمتي الجديدة، تمسك بباب شقتها المفتوح. كان ثمة ضوء فوق رأسها، وكانت أكثر استرخاء مما رأيته عليها في مسجد ريجنت بارك. عندما ردت على تحيتي بدا لي صوتها رخيماً كأنما استيقظت لتوها من النوم. كانت ترتدي بنطال جينز وسترة صوفية جذابة. لم يكن وجهها جميلا، بيد أن قوامها وملابسها وشعرها كانوا نعم العوض. خفضت عيني ورأسي كما عودت نفسي. لم تكن هذه هي وظيفتي الأولى. أعلم كيف أن الخادمة ينبغي عليها أن تراعي رغبات مخدميها. كنت أخلع حذائي وأضعه قرب الباب، وأخلع معطفي وأطويه وأضعه فوق حذائي- ليس من التهذيب أن أضع معطفي فوق معاطف أفراد الأسرة في رف المعاطف. أعلم أنه يجب علي أن أكون حذرة في كل شيء أفعله، وأن لا أسهو أو أنسى أبدا. لليوم الأول أهميته القصوى... وللساعات الأولى حساسيتها. سأراقب وأوضع تحت الاختبار، ولكن إن ظفرت بثقتها فستنساني وتأخذني كأمر مسلم به. كان ذلك هو هدفي. أن أجعل من نفسي "خلفية" حياتها. أغلقت الباب خلفي، وسمعت صوت التلفزيون وصوت طفل صغير وصوت امرأة كبيرة السن.

تبعت ليماء عبر الرواق إلى حيث صوت التلفزيون. كانت الشقة بسيطة متواضعة، وكنت أتوقع أن تكون أكثر بذخاً وترفا، كما هو حال معظم شقق ذلك الحي الراقي بمبانيه الجميلة. دفعت لمياء أحد الأبواب، وكان باباً خشبياً سميكاً يابسا يحك صوف السجادة. كانت غرفة المعيشة واسعة وذات نوافذ كبيرة تطل على أشجار الخريف في المنتزه. كانت أوراق الأشجار ترمي بظلالها على السجادة، وعلى لون الإضاءة البرتقالية في الغرفة التي كانت تشع على الأثاث المنجد الأخضر اللون، وعلى طاولة الطعام المصنوعة من خشب المهوقني وعلى نضد المائدة. حاولت منع عينيّ من التجول المفرط في محتويات الشقة. كثرة البحلقة والتلفت هنا وهناك يعد من السلوك غير المقبول من الخدم، وقد يخلف انطباعاً أنني من النوع السارق. تجولت بعيني في أرجاء الغرفة بقدر ما يسمح به رأسي المطأطأ. كانت هنالك بنت صغيرة ذات شعر مجعد ناعم جالسة على الأرض، وعيناها مثبتتان على التلفاز، وهي محاطة بألعاب متنوعة... دمي ومكعبات. كانت هنالك أيضا سيدة في منتصف العمر جالسة على أحد الأرائك الوثيرة، ونظاراتها منزلقة على أنفها وهي تقرأ في صحيفة "الشرق الأوسط" بصفحاتها الخضراء المميزة. رفعت رأسها وتفحصتني. عيناها من خلف النظارة بارزتان جادتان. تركت الصحيفة فوق ركبتيها. كان شعرها قصيرا ومقصوصا بصورة مبالغ فيها، ولكنه ملين ومصبوغ بألوان الحناء.

قلت: "السلام عليكم،"

قالت لمياء: "ماما. هذه نجوى." ثم التفتت إلي وقالت معرفة بوالدتها: "دكتورة زينب."

ردت الأم برفق: "أهلا نجوى. سأسافر غداً إلى القاهرة إن شاء الله، وستقع مسئولية كل هذا البيت عليك."

ابتسمت وأنا مذهولة قليلا من صوتها الأجش كصوت المدخنين. هاأنذا أتجه مباشرة لمسئوليتي الرئيسة. أنحني وأجلس بجانبها على الأرض.

أقول لها: "مي... مي. كيف أنت؟ ماذا تشاهدين؟". لا ترد.

يأتي صوت ليمء الناعس: "مي. سلمي على نجوى. هي تريد أن تلعب معك."

أعادت مي النظر إلي ولكنها لم تبد أي مظهر للاهتمام، وعادت لألعابها. ورثت من جدتها شكل العينين.

قالت الدكتورة: "دعيها. إنها تركز على التلفزيون. هذه علامة من علامات الذكاء عندما يركز الطفل جيدا." وعادت مجددا لتقرأ في صحيفتها، وكأنها تريد أن تريني كيف يكون التركيز.

قالت لمياء: "تعالي. دعيني أريك بقية الشقة قبل أن أخرج."

غرفة أخرى، غرفة نوم تطل أيضا على المنتزه مصنوعة من العاج بها سريرين وسرير أطفال.

قالت لمياء: "هذه غرفتي وغرفة مي. زوجي يعمل في عمان ويأتي كل ستة شهور تقريباً في عطلة قصيرة. لقد غادرنا للتو، لذا سوف لن يعود قبل مرور بعض الوقت."

غامرت بطرح سؤالٍ فضولي أعلم أن لا حق لي في إلقائه: "هل كنت تعيشين في عمان من قبل؟" كانت هي وأمها تثيران فضولي. كان واضحا أن الأم لهجتها مصرية، وهي مسافرة غداً لمصر. لكن كان بلهجة ليماء أثرٌ خليجي، وهي أكثر سمرة من والدتها.

"نعم. كنا في مسقط... دعيني أريك ملابس مي."

أرتني ملابس مي وحفاضاتها. قالت لي: "غيري لها الحفاضات على السرير. أحاول تعويدها على استعمال التواليت، لكن ما زالت ألبسها الحفاض. لقد بلغت لتوها عامها الثاني. ينبغي الآن تدريبها على استعمال التواليت." كان تجرجر الكلام وصوتها يخرج بصورة حالمة وكأنها غارقة في التفكير في أمور أخرى. لابد أنها ذكية. أعتقد أنها تحضر لنيل درجة الدكتوراه."

"هذا هو المطبخ." كان مظلماً قليلا، وفي وسطه طاولة طعام كبيرة ومستطيلة، وبه أيضاً كرسي مي العالي."

"يجب أن تشغلي هذا الشريط لمي عندما تأكل، وإلا فهي لن تأكل." أشارت بشكل مبهم إلى مسجل موضوع على منضدة المطبخ. "للأسف ليس لدينا غسالة أطباق." على حوض المطبخ تكوم الكثير من الأطباق.

أرتني أيضا غسالة الملابس، وبها أيضا مجففة. أرتني كيف أن دولاب المطبخ الرقيق يمكن أن يفرد للخارج ليصير طاولة لكي الملابس. وكان هنالك دولاب مليء بالملابس التي تنتظر الكي.

أرتني أيضا أين تحتفظ بالمكنسة الكهربائية والمكانس اليدوية والمماسح. أشارت بأصابع أقدامها إلى البلاط البلاستيكي الأحمر: "هذه الأرضية صعبة التنظيف. تعبنا أنا وماما من محاولة تنظيفها."

مشينا عبر الصالة. أرتني غرفة الغسيل والحمام. كان الحمام مغطي ببلاط بني. قالت لي: "هذا البلاط البني متعب في التنظيف. يجب أن نمسح أي نقطة ماء تقع عليه، وإلا فستكون بقعة واضحة عليه."

في نهاية الرواق كان ثمة غرفة صغيرة مظلمة. احتاجت ليماء لتضيء الغرفة لتريني إياها. كان هنالك سريران، وتسريحة وحوض صغير للغسيل في أحد الأركان. "هذه غرفة ماما وأخي تامر. لن ترينه كثيرا، فهو يذهب لمحاضراته في الصباح الباكر ولا يعود إلا متأخراً."

شيء في كلماتها جعلني أفكر في أن أخيها هذا أصغر منها، ولعله هو نفس الشاب الذي رأيته وأنا أدخل للمبنى.

قالت لمياء وهي ترمق تي شيرت ملقي على أرضية الغرفة: "عندما تغادرنا ماما غداً، ربما يجعل تامر من التسريحة هذه طاولة مكتب. لقد كنا أنا وهو نستخدم طاولة الطعام لذلك الغرض في المساء. أنه غير مرتب." ابتسمت لقولها وأنا أتذكر أخي عمر إبان صغره... عمر فتى الخرطوم، وليس ذلك الشخص الذي استحال إليه في لندن.

عندما تغادر لمياء الشقة إلى جامعتها، أقضي وقتاً في المطبخ، أغسل الأطباق، وأنظم الأشياء، وأكوي الملابس. تبقي الدكتورة زينب مع حفيدها في غرفة الجلوس حتى الحادية عشرة.

قالت لي الدكتورة عندما رأت قطع الملابس المكوية معلقة علي كراسي المطبخ: "أوه... لقد كويت عدداً كبيراً من القطع... ممتاز... أذهبي وأحضري شماعات من خزانات الملابس لتعلقي القطع وتوزيعها." طفقت أطوف بارتباك بين المطبخ والغرف، وأضع ملابس كل واحد في غرفته، إلى أن وزعت الملابس في أماكنها الصحيحة. كانت ملابس مي بالطبع هي الأسهل

في التصنيف. أمكنني أيضا التمييز بين ملابس ليماء ووالدتها، بيد أن القمصان الرجالية أربكتني. تبين أن بعض تلك القمصان هي لزوج لمياء وليس لأخيها، ولذا وجب علي أخذها لغرفة لمياء، ووضع البقية في غرفة تامر. كذلك كانت هناك بعض القمصان التي تخص والد لمياء، والذي غاب عن لندن لعدة شهور. بالفعل تراكمت الملابس التي كانت تحتاج لكوي!

أرتني الدكتورة زينب دولاب التهوية الذي تعلق فيه الملابس التي تخرج من المنشفة رطبة، وهو يقابل خارج غرفتها ويجاور الحمام. فتحت ضلفتي ذلك الدولاب ومضت تخرج منه الملابس، بينما تقرفصت على الأرض لأطويها بأسرع ما استطيع وأصنفها في أكوام. تبعثرت الأكوام بينما هي تسحبها الواحد تلو الآخر. كانت مي قد تبعت جدتها وبعثرت أكوام الملابس التي طويتها وصنفتها. ابتسمت في وجهها وأبعدت الملابس عن طريقها. وبخت الجدة حفيدتها على تصرفها، بيد أنه لم يكن لي حق الاحتجاج على أي فعل لتلك الصغيرة. كنت أعلم من سابق خبرتي أن الكبار لا يحبون أن يوبخ الخدم صغارهم الغاليين مهما فعلوا. لذا استمريت في طي الملابس وعلى وجهي ابتسامة، وخاطبت مي في رقة وأنا أريها كيف تطوي التي شيرت: "انظري يا مي... هذه هي طريقة طي الملابس."

صرخت مي وهي تربت على التي شيرت: "تا- ما- تا- ما."

قالت الجدة: "نعم. إنه قميص تامر. أنت بنت ذكية. ولمن هذا؟"

ردت بحماس وهي تشير إلى السترة الحمراء التي ترتديها وعليها صورة دب: "ما - وا، ما- وا."

"الآن تبقى هذا الكوم للكي. سيذهب إلى الدولاب في المطبخ. خذيه هناك... لكنك كويت كمية كبيرة من الملابس اليوم. اتركيها للغد."

في المطبخ قالت: "إنه وقت قهوتي" بطريقة دعتني لترك ما في يدي وتحركت لأعد لها القهوة، ولكنها كانت قد سبقتني بالضغط على زر المغلاة الكهربائية وغرف بعض مسحوق "النيسكافيه" في كوبها.

"حان الآن موعد قيلولة مي. سأعطيها عصير فواكه وآخذها إلى غرفتها لتنام نحو ساعة ونصف... أحياناً لساعتين كاملتين. في هذا الأثناء ستطبخين الطعام. بعد الظهيرة تبدو مي أكثر شغباً ولن تدعك تعملين شيئا. وأيضا عليك أخذها بعد الظهيرة - إن كان الطقس ملائما- لجولة في المنتزه. ستستمتع باللعب في الأرجوحة ورؤية الأطفال الآخرين. ما الذي تجيدين صنعه من أطباق؟ تامر يحب المكرونة." ذكرت اسم ولدها بحب شديد.

بعد الظهيرة خرج ثلاثتنا إلى المنتزه- بدت الدكتورة زينب بهية الطلعة بمعطفها الأسود وأحمر الشفاه الفاتح اللون، وشعرها في لون خريفي

مثالي. وضعت مي في الكرسي الذي يدفع باليد وهي متدثرة بطبقات من الملابس الدافئة. لما سمعت كلمة "متنزه" تصورت أننا سنذهب بها إلى ريجنت بارك، وأننا سنعبر الدوار الكبير الذي يتوسطه تمثال سانت جورج وهو يقتل التنين، ونمر بالمسجد، ونتجه شمالا إلى ريجينت بارك. لكن تبين لي أن الدكتورة زينب إنما قصدت المنتزه الصغير الذي يقع أمام بنايتنا. كانت هنالك أيضا ألعاب للأطفال، ولكن منتزهنا القريب كان أكثر هدوءا واسترخاء. مشينا تحت ذات الشجرة التي كنا نراها من نافذة غرفة الجلوس. كان الجو عاصفاً قليلاً ولكنه ليس بارداً جدا. اختفت شمس الصباح الباكر وحل محلها طقس رمادي، رغم أن أوراق الخريف المتساقطة على الأرض ما زالت جافة وتسحق بجلبة.

كنت أحاول التقرب من مي وكسب ثقتها، بيد أن ذلك كان أمراً عسيرا بسبب وجود جدتها معنا طول الوقت. كانت متعلقة تعلقاً شديداً بجدتها ولم تدعني حتى لأدفع كرسيها. دفعت الجدة بالكرسي وبقيت أنا في حالة من الخجل والقلق من أن يأتي المساء وتعود لمياء لتخبرها أمها إن المربية الجديدة "لم تنجح في التعامل مع مي."

"هل عائلتك هنا أم في السودان يا نجوى."

حاولت أن أبدو منفتحة وطبيعية فقلت: "لدي شقيق هنا." تلقيت بالأمس أمرا بالزيارة من عمر. يسمح له بكتابة الرسائل، بيد أنه نادرا ما كان يكتب لي.

"هل لديك أطفال؟"

"لا. لست متزوجة."

"هل كنت تسكنين في الخرطوم؟"

"نعم. في الخرطوم."

قالت الجدة: "لمياء ولدت في الخرطوم. والدها سوداني."

رددتُ عليها باختصار: "صحيح؟". خفق قلبي سريعاً كما يفعل دوماً عندما يلوح لي خطر أن أقابل شخصا يعرفني، أو يعرف بأمري ومن كنت. كم من مرة كذبت مدعية إنني ارترية أو صومالية.

واصلت في الحديث. "أطفالي سودانيون بالاسم فقط. لا يتذكرون السودان. قضينا سنوات في عمان - وأنجبت ولدي تامر هناك. والآن نحن في القاهرة."

"هل تذهبون للسودان في العطلات؟"

"ليس لزوجي أخوان أو أخوات هنالك.. ربما لهذا السبب لا نذهب إلى هناك كثيرا."

طمأنتني كلماتها. وضح لي أن ارتباطهم بالسودان واه جدا. حتى إذا كشفت لهم عن اسم عائلتي فربما لا يعرفونها، ولن يتذكروا أبي. وعلى كل، فإن الدكتورة زينب أصغر كثيراً من أبي، وليست من جيله. لا أعتقد أنها تكبرني بأكثر من عشرة أعوام، رغم أني أشعر بأنها أكبر من ذلك. إن كنت أشعر بأني صغيرة السن، فمرد ذلك هو أنني لم أنجز في حياتي شيئا يستحق الذكر. ما حدث أعاقني تماما.

توقفت عن دفع كرسي الطفلة وأعطتني له في صمت لأدفعه، ثم سألتني: "مع من كنت تعملين قبل أن تعملين معنا؟" سررت لخلاصي من الإحراج البالغ الذي كنت أعانيه وهي تدفع الكرسي، بينما أنا أسير وألوح بيدي. لكن مي طفلة حساسة جدا، فما أن رأتني أدفع كرسيها حتى بدأت في الصراخ. تناولت الدكتورة زينب مقبض الكرسي مني مرة أخرى.

"كنت أعمل مع سيدة لبنانية تعيش قرب محطة أنفاق "سويس كوتيج". كان لديها طفلان، وهي الزوجة الثانية لرجل أعمال سعودي يعيش مع زوجته الأولي في الرياض. أتي إلى لندن ليزورها فاحتاجت لمساعدة منزلية، فعينتني مربية للأطفال. كانت تخرج كثيرا مع زوجها وتترك الأطفال تحت رعايتي. أخيراً عين لها زوجها خادمة دائمة من سيريلانكا أحضرها معه من السعودية."

ابتسم لنا زوجان عجوزان وتوقفا قليلا ليعبرا عن إعجابهما بمي. نظرت في المنتزه وخلفه رأيت من بعيد مستشفى "هيمانا ويلنجنتون". لم أرها من قبل من زاويتي هذه. لم تبد لي مألوفة أبداً رغم أني قضيت بها عدداً من الأسابيع مع ماما. أذكر لون سجادها، والهاتف في يدي، والتلفاز المعلق عاليا في الحائط. لو أخبرت الدكتورة زينب أن أمي ماتت في ذلك المستشفى الغالي هل يا ترى ستصدق كلمات مربية حفيدتها الجديدة؟

رأت مي الأرجوحات في أماكن الألعاب، وبدأت تظهر رغبة في النزول من كرسيها بالإشارة، وبالحروف المتقطعة، والتململ في كرسيها. فككت حزام الكرسي عنها.

جثمت بقرب كرسيها وأنا أحاول أن تقع عينها على عيني. بدوت يائسة وأنا أقول لها: "مي... هل آخذك للأرجوحة؟"

قالت جدتها في حزم: "مي. سأتمشى قليلا، وستأخذك نجوى للعلب في الأرجوحة. أوكي؟"

نجحت الخطة. أبقيت الكرسي قرب إحدى الأرائك الخشبية، بينما ذهبت الدكتورة زينب بعيداً، وسمحت لي مي بوضعها في الأرجوحة. بدأت في الاستمتاع بوقتها، والتعود علي. هطل فجأة مطر اضطررنا معه للرجوع

للشقة. كانت الشقة دافئة مريحة، ومع إسدال الستائر أخذت الغرفة لونا رقيقا ناعما. قرأت لمي قصة، بينما ذهبت الجدة لغرفتها لتنهي ترتيب أغراضها في حقيبة السفر. كان تركيز مي قصيراً فأرادت اللحاق بجدتها في الغرفة. نشبت معركة صغيرة بيني وبينها... فأنا أحاول إبقائها معي في الغرفة وهي تحاول الخروج. حاولت إلهائها بالتلفاز وبمختلف الألعاب، وببعض الطعام.. ولكن دون جدوى... كانت كل هذه الحيل تنجح، ولكن لدقائق قليلة فقط. هي طفلة سريعة الإثارة والهياج.

كم كانت سعادتي عندما سمعت صوت المفتاح في الباب الخارجي. عادت لمياء لبيتها وهي تلهث قليلا وسترتها مبللة بماء المطر، ولكنها بدت سعيدة. رأيت ذلك في عينيها. حضنت وقبلت طفلتها وحملتها على جنبها. كانت مي سعيدة جدا، وبدت أمها أكثر حيوية من حالها في الصباح؟ سألتني أسئلة عديدة، وتفقدت الطعام الذي صنعته وهي ترفع أغطية قدور الطبخ. بدا من تقاطيع وجهها أن ما قمت به من أعمال أعجبها. هل هذا ما تشعر به عادة امرأة ثرية، راضية عن عملها، عندما تؤوب لبيتها وتقابل طفلتها الصغيرة. أشهد أني خالصة من الحسد، وأن قلبي مبرأ من الأحقاد.

الفصل العاشر

كان اليوم هو الاثنين، يوم حصة التلاوة والتجويد في المسجد. لذا عوضا عن الذهاب للمنزل، أذهب للمطعم الحلال على الجانب للمقابل لشارع المسجد وأتناول عشائي هناك. يقدمون طبق عدس لذيذ الطعم مع خبز بيتا ساخن. ترهقني دوما الأماكن الجديدة والأشخاص الجدد. هذه وظيفة جيدة. هكذا أحدث نفسي. عندما أتعود عليه لن يكون عملا مرهقا. من أخدمهم يبدون أناس طيبون. غدا ستغادرنا دكتورة زينب وسأستطيع تربية مي وكبح جماح تصرفاتها بصورة أفضل. سأكون وحيدة في الشقة وسيكون ذلك أقل إجهادا لي. أكمل طعامي بسرعة حتى أتمكن من الذهاب للمسجد وآخذ قسطا من الراحة قبل بدء الحصة. أحتاج لأمدد رجلي قليلا.

كان جناح النساء في المسجد فارغاً حين وصلته. لم يكن هذا مصدر عجب لي. سيتوافد معظمهم بعد قليل لحضور الحصة، وسيأتي بعد ذلك الكثير من الأخوات برفقة أزواجهن لصلاة العشاء. أضئت المكان، وأديت ركعتي تحية المسجد، ثم طويت معطفي ووضعتها تحت رأسي كوسادة ورقدت على سجادة المسجد. أحسست بحرارة في باطن قدمي، وألم بسيط في ظهري. حركت كاحلي في أكثر من اتجاه، ومددت أصابع قدمي وثنيتها. الحمد لله. هي وظيفة جيدة. هكذا أحدث نفسي. الناس يأخذون وقتا طويلا لإكمال رسالة الدكتوراه. هذه الوظيفة يمكن أن تسندني لأعوام قادمة إن شاء الله.

أغلق عيني. أستطيع شم روائح المسجد... خليط من البخور والند وروائح المعاطف والسجاد. غفوت قليلا فحلمت بنفسي وأنا صغيرة في الخرطوم... مريضة وقلقة وعابسة... محتاجة إلى ملايات نظيفة ونضرة في غرفة هادئة أرتاح فيها... أشتهي غرفة والدي... أشتهي أن أقوم وأذهب لغرفة والدي. أتتني أصوات رجال من الطابق الأرضي... همهمات وسعال. أفيق من حلمي ويذكرني ذلك السعال في الحلم بوالدي... حلمي بغرفة والدي. لا أريد أن أكون اليوم ضعيفة معرضة للهجوم. أكون هكذا عادة عندما أصاب بالإرهاق الشديد. أنهض واقفة وأشعر بارتياح عميق عندما أرى أن شاهيناز قد وصلت لتوها وهي تحمل طفلها الصغير وحولها أطفالها الثلاثة الآخرين.

نهضت لأعانقها، وانحنيت لتقبيل أطفالها، ولمساعدتهم على خلع معاطفهم. جلست بنتها الكبرى بعيدة عنا وهي تلعب في "قيم بوي". جرى الولدان في الساحة... كل المسجد كان ملعبهم.

سألت شاهيناز: "هل نحن بمفردنا؟" عيناها المستديرتان سوداء مشرقة. ناولتني طفلها الصغير لتخلع معطفها. كانت ملابسها خضراء.

"بدأتي في استعادة قامتك القديمة." كان وجهها ما يزال منتفخاً من أثر الحمل، وبطنها كبيرا، لكن وزنها ينقص في كل أسبوع أراها فيه، وبدأت تبدو كحالها قبل الولادة.

سحبت ما كانت تربط به بطنها وردت: "ليس بعد. لقد طالت المدة هذه المرة." جلست ورجلها اليمني على اليسرى بجنبي وأنا وهي نسند ظهرينا إلى الجدار. سألتها إن كان بإمكاني خلع معطف وليدها أحمد، فالجو دافئ في داخل المسجد. هزت رأسها بالموافقة، فبدأت في فك سحابة بذلته.

قالت: "كان يجب أن أحضر كرسيه."

"لا تقلقي عليه. سأمسكه لك." وضعته في وضع جانبي على ركبتي. كان منظره وهو غارق في النوم بديعا، وهو يضع أصبعه على خده وكأنه رجل جاد متفكر. حولت قلنسوته عن رأسه فرأيت أن شعره الذي كان قد حلق قد بدأ في النمو مجددا... مستقيما وحالك السواد. أدخلت أصبعي في شعره.

قلت له: "يا حبيبي يا أحمد." أحسست أني أعرفه. كنت أعرفه منذ أن كان جنينا في رحم أمه. رأيته في المستشفى يوم مولده. كنت أراه أسبوعيا وأراقب التغييرات التي تطرأ عليه.

علقت شاهيناز وهي تفتش في حقيبة يدها: : "(يا حبيبي)... أنتم العرب دائما تقولون ذلك."

قلت لها: "انتظري حتى تأتي أم وليد. إنها تردد تلك العبارة بأكثر مني." أم وليد مدرسة سورية. تخاطب كل واحد بـ "يا حبيبي"، وكل واحدة بـ "يا حبيبتي". حتى الرسول عليه الصلاة والسلام تناديه وصوتها عامر بالإيمان بـ: "يا حبيبي يا رسول الله".

مضت شاهيناز تشمم في كم ثوبها وتقول: "تفوح مني رائحة زيت، أليس كذلك؟ لقد كنت أقلي الطعام ولم أجد وقتا لتغيير ملابسي."

طمأنتها قائلة: "لا. هذا في خيالك فقط." كنت مفتونة بطفلها الجميل، وظللت ممسكة بأصبعه وبخصلات شعره الأولى في أصبعي. كان غارقاً في النوم. قلت لها: "إن شعره ينمو."

"أعرف. لم نحلق شعره بالكامل. لم نقصه على الزيرو."

أقبلت أم وليد بأردافها الثقيلة برفقة توأمتيها. تبدو دوماً منزعجة. لا أدري لماذا؟ لقد توقفت عن توقع أن تلقي علينا في كل مرة قولا دراماتيكياً أو خبراً مثيرا، إذ أن إثارتها تنبع من دواخل نفسها، أو ربما من حياة منزلية عاصفة لا أعلم عنها شيئا. توأمتاها جميلتان وحسنتا المنظر، وشعرهما البني مصفف بحسب الموضة. تقلدان بصورة آلية والدتهما في كل شيء تقريبا،

ولذا قدما خديهما لي لأقبلهما. ذهلت من الروح العملية والجادة التي يتميزان بها.

نظرت إلينا أم وليد بتعجب وكأننا مسئولين بطريقة ما عن غياب الآخرين وقالت: "أنتما الاثنين فقط في الحصة؟ أين البقية؟ ماذا سأفعل؟ ماذا حدث لهم؟"

لفت شاهيناز مقلتيها تعبيرا عن التعجب مما قالته أم وليد، بينما اكتفيت بتحريك كتفي للتعبير عن جهلي بسبب غياب البقية، ولكني رددت عليها بالقول: "مازال الوقت مبكرا."

ردت بالقول وهي تخرج كتبها ومذكراتها من حقيبتها: "لا، ليس مبكراً. لقد حان الوقت. لقد أسرعت بالحضور وكنت أظن نفسي قد تأخرت."

فجأة دخلت علينا خمس شابات.

تغيرت أم ليد وتهلل وجهها وصاحت: "ما شاء الله. لقد حسبت أنكن لن تأتين أبدا."

قضينا الخمس دقائق التي تلت مقدم الشابات في تبادل مزيد من القبلات والضحكات والصرخات الفرحة المعبرة عن الإعجاب بطفل شاهيناز. تم أخذه من يدي وطيف به (تمريره) على كل الحاضرات. أطلقت أصغر الشابات الخمس وهي ما تزال تمسك بمفتاح سيارتها عبارة "مرري اللفة" وضحكت عاليا. وأتى تعليق آخر على الطريقة الجديدة التي تلف بها أم وليد وشاح رأسها. وكعادتها في الشغف بالتدريس فكت أم وليد الوشاح وأعطت الجميع درسا عمليا في ربط الوشاح وهي تتكلم ببطء مقصود: "الربع المعتاد يطوي على شكل مثلث، ولكن عند وضعه على رأسك، دعي جانبا يكون أطول من الجانب الآخر. كما ترين. دبوسك يجب أن يكون تحت ذقنك. وبعد ذلك تأخذين الجزء الأطول - خذيه هكذا تحت الدبوس، وأرفعيه جانباً فوق الدبوس وأحشريه تحت أذنك."

"بهذه البساطة؟"

ردت أم وليد: "إنها طريق نساء حزب الله في ربط وشاح الرأس. لقد رأيتهن في القنوات الفضائية."

قلت الفتاة ذات الخدود المتوردة والعيون الحالمة التي تجاورني: "بديع." أعجبني الطريقة التي ترتدي بها الحجاب، وهي واثقة أن لديها من المغريات ما يستحق التغطية. عادة أحتار في أمر الفتيات اللواتي ولدن وترعرعن في بريطانيا، رغم إعجابي بهن. أجد نفسي دوما أحاول فهمهن. اكتشفت أنهن بريطانيات حتى النخاع، ويحببن لندن. بعضهن يرتدي الحجاب، والبعض الآخر لا يرتديه. لهن شخصيتهن الفردية الخاصة، ويتمتعن بصراحة لم تكن لدينا

عندما كنا في مثل أعمارهن. ما يفتقدنه هو "الغلاوة" و"السحر"، وهي صفات كنا نتمتع بها نحن فتيات الخرطوم.

تركت جمع النساء ونزلت للطابق السفلي حيث الحمامات، ولأجدد وضوئي. جلست في المقعد الرخامي المقابل للحنفية. كانت هنالك بعض النساء اللواتي لم أقابلهن من قبل. يبدو من شكلهن أنهن ماليزيات، عدا واحدة منهن يبدو أنها سودانية.. تذكرني بطالبة في جامعة الخرطوم كنت أعرفها. فتاة لم تكن من صديقاتي المقربات، ولكنها كانت من معارفي اللواتي كنت أتبادل معهن التحايا ونحن نغدو ونروح بين المحاضرات. كانت حلوة وعلى وجهها دمامل.. لا أدري إن كنت قد أخبرت والدي أبدا بحبي للجامعة التي اختارها لي. لم أكن أتحدث معه كثيرا. أعلم أنه لم يكن يأبه كثيرا بي، ليس لأنه لا يحبني، بل لأنني بنت، وتقع مسئولية تربيتي على عاتق أمي. كانت لديه خطة محددة ومفصلة لمستقبل عمر، بينما كان مقدرا لي أن أتزوج شخصا سيقوم بتحديد كيف سأقضي بقية حياتي. إنني سعيدة لأن باب لم يعش ليرى ما حدث لعمر. أو حتى لي.

نبهني صوت الماء المنصب من الصنبور إلى أنني بقيت الوحيدة في غرفة الوضوء. حدقت في رجلي المبللة مواجهة لماء الصنبور المتدفق. أغلقت صنبور الماء، ولما لم أجد ورق مناشف لأجفف بها يدي وأرجلي، فصدعت للطابق الأعلى تاركة آثار رجلي المبللة على السجاد. كانت الدرس الديني قد بدأ، وقد تحلق الجميع في دائرة كبيرة. جلست أم وليد على ركبتيها مما جعلها تبدو أعلى من الجميع... صوتها واضح وعالي. هي الآن شخص مختلف... شخص أحبه... معلمتي... محددة في كل ما تقول، وتنفذ مباشرة إلى صميم الموضوع. القرآن مفتوح على حجرها. تجذب وشاح رأسها على جبهتها، وترجع شعيرات من رأسها هربن للخارج. كانت كالسمكة في الماء، ولم تعد قلقة أو مرتاعة من أحد.

تناولت نسخة من القرآن من الرف وأفسحت شاهيناز لي مكانا بجانبها. كانت ترضع صغيرها أحمد، واستخدمت يدها الطليقة لتريني على صفحة المصحف الآية التي تشرحها أم وليد. درس التجويد هو درسي المفضلة. أتعلم نطق الحروف كما ينبغي، ومتى تدغم حرفين معا، وكيف تنطق حروف الغنة، والمد والقصر. يهدئني نفسياً هذا التركيز في تقنيات التجويد. يجعلني أنسى كل شيء حولي. أم وليد معلمة مؤهلة وتحمل درجة في العلوم الشرعية. كثير من الأخوات يجدن دروسها في القانون والتاريخ أكثر متعة وإثارة للاهتمام- تثير الكثير من المناقشات. كثير من الأخوات - خاصة الشابات من المولودات في بريطانيا والمتحولات للإسلام حديثا- يحببن

المناقشات وإبداء آرائهن. لكني أشعر في المناقشات بأني مشتتة الانتباه وضئيلة الشأن. لا أعرف أي من المتحدثين أناصر، أو أي نقاط النقاش أجد أكثر إقناعا. أجد نفسي مؤديا لكل متحدث، أو لكل من أحب. أخشي أن أؤذي مشاعر أحدهم، أو أغضب أحد، مما قد يعني - كما حدث من قبل- أن أتوقف عن المجئ للمسجد. في درس التجويد يسود الهدوء والسلام. نتدرب ونتدرب إلى أن نجيد مخارج الحروف. أريد أن أتلو القرآن بطريقة جميلة.

ينتهي الدرس وأجد نفسي متزودة بطاقة جديدة. استيقظ طفل شاهيناز، وحملته ويدي تسند رأسه. أتحدث إليه وأهز رأسي وأبتسم. يكافئني بتحريك شفتيه... لم يبلغ بعد ستة أسابيع من العمر، وهو أصغر من أن يبتسم. تحمله شاهيناز بينما نؤدي صلاة العشاء جماعة. تضعه على السجاد عندما تركع وتسجد، ثم ترفعه معها مجددا. أقف بجنبها في الصلاة، وأدرك وأنا في منتصف الصلاة أنني لا أعرف من يجاورني في الجانب الآخر من الصف... أي ذراع تلامس ذراعي الأيمن، وأي ملابس تحتك بملابسي. أسترجع نفسي وأغرق في التركيز في الصلاة من جديد.

خارج المسجد كان هواء الليل بارداً ومنعشا. عرضت على شاهيناز أن تقلني بسيارتها وقالت: "الوقت متأخر بالنسبة لك لتعودي لبيتك في هذا الوقت المتأخر من الليل."

رفضت عرضها بهزة من رأسي، إذ أنني أعرف أن زوجها سيقود السيارة وهي بجانبه، وفي الخلف ثلاثة أطفال وكرسي أحمد... ستكون زحمة مزعجة.

"لست في طريقكم."

حاولت الاحتجاج، ولكن ظهر ما يشغلها مع أطفالها، فتركتها ومشيت نحو محطة البص. السيارات تهدر وهي منطلقة بسرعة عالية على الشوارع الخالية نسبيا، وكوابح سيارات الأجرة اللندنية بصفيرها المميز قبل أن تتوقف أمام إشارات المرور. كان البص الأول الذي ركبته من النوع القديم ببابه المفتوح دوما والكمساري عليه. كان متجهماً كئيبا ولكني أحسست بالأمان في وجوده، وبمعرفتي لإمكانية أن أقفز من البص عند الحاجة عند توقفه عند أي إشارة للمرور. لم يكن في البص الثاني قاطع للتذاكر. أريت السائق بطاقة ركوب البصات. قفل الباب من خلفي، وكتمت الإحساس بأني صرت محاصرة. في المحطة التالية ركب البص ثلاثة شبان وهم يترنحون. من النظرة الأولى عرفت أنهم ليسوا أهل للثقة، ولا يعتمد عليهم، وليسوا مسالمين. بدأت في ترديد "قل أعوذ برب الفلق" وقرأتها في سري مراراً وتكراراً.

مشوا نحو نهاية البص وهم يترنحون. لمحني أحدهم فأسر إلى أصحابه بشيء ما. بقيت أنظر إلى النافذة وأحدث نفسي بأن الله سوف يحميني، وإن هؤلاء الشبان إن آذوني فلن أشعر بكبير ألم، ولن يعدو آذاهم أن يكون كألم وكزة خفيفة.

سمعت ضحكات من خلفي. خبط شيء ما على حافة المقعد الذي يجاورني وسقط على الممر. لقد أخطأوا الهدف هذه الأمر. هل سيقربون أكثر مني؟ وماذا سيفعلون إن استنفذوا كل ما لديهم من مقذوفات. نظرت إلى السائق في المرآة. التمعت عيناه ونظر بعيدا. حدقت في زجاج النافذة فلم أر غير انعكاس صورتي. من الأفضل لي أن أطأطأ راسي وأنظر في حذائي. كان البص يسير بسرعة عالية نسبة لقلة السيارات في تلك الساعة من الليل. لن يستمر الأمر كثيرا الآن. لم تتبق إلا محطتين. سمعت أصوات أقدام من خلفي وبنطال دينم يمر بجانبي. قال لي: "أنتم المسلمين... حثالة المجتمع." وفجأة أحسست بصدمة سائل بارد على رأسي ووجهي. شهقت وجاء طعم مشروب "تيزر" الغازي. عاد إلى مقعده وأصدقائه وهم يضحكون. صدري يؤلمني... أمسح عيني.

يقف البص ويفتح الأبواب. يهبط راكبان من الطابق الأعلى للبص ويتوجهان للمخرج. أتخذ قرارا بسرعة وأتبعهما لخارج البص. تهب الريح العاصفة بقوة على وشاح رأسي المبلل، وتكاد تجمد فروة رأسي. استخدم الجزء الجاف من الوشاح لأمسح وجهي. أنفس بقوة شهيقاً وزفيرا لأذهب عني سورة الغضب، ولأخرج لهيبه عبر أنفي. خداي لزجان من أثر المشروب السكري. أعض شفتي وأتذوق طعم السكر. كان يمكن أن تكون بيرة، ولكن الله سلم، وكنت محظوظة. أغمض عيني وأفتحهما، وأشعر بألم لأن رموشي صارت ملتوية والتصقت ببعضها. لم أكن أتخيل أن الرموش يمكن أن تؤلم. مشيت بقية المسافة إلى بيتي وأنا أفكر في رموشي، وعن ضرورة غسل شعري. لا أحب غسيله في الليل. لم يعد مجفف الشعر الكهربائي يعمل، ولا أستطيع النوم جيدا بشعر مبتل. إنه يضايقني... رطب ومنتشر في كل مكان من الوسادة.

الفصل الحادي عشر

اليوم هو اليوم الثاني لي في العمل. كدت أصل متأخرة. لما وقفت بباب الشقة وجدت لمياء على وشك المغادرة، ووجدت الدكتورة معها على الباب ترتدي روباً منزلياً بدا فاتح الزرقة تحت ضوء الصالة. أخرجت لمياء شعرها من تحت المعطف، وانحنت لتلتقط مظلتها. انتظرتها أمام مدخل الشقة حتى تنصرف ثم أدخل. كانت لها ذات الأعين الناعسة والحركات البطيئة التي لاحظتها في صباح اليوم السابق. نظرت إلى بأعين تخلو من الإنفعال أو التعبير. قدرت أنها من النوع الذي يحب العمل والحركة بالليل أكثر من الصباح..."شخص ليلي" كما يقولون. حضنت وقبلت أمها ومسحت على ظهرها بود وحب. تذكرت أن الدكتورة زينب ستغادرنا إلى القاهرة بعد ظهر اليوم.

قالت لأمها: "عندما يأخذك تامر للمطار، تذكري أن تعطيه المفاتيح التي معك."

"سوف أفعل. لا ينبغي عليه أن يضيع محاضرته. أستطيع أن أذهب وحدي."

هزت ليماء كتفيها وأجابت: "لا تنسي أن تطلبي سيارة أجرة قبل وقت كاف." قبلت أمها مرة أخري ومرت من أمامي. وقفت دكتورة زينب صامتة لعدة ثوان تراقب ابنتها وهي تهبط من الدرج. يبدو أن لحظات الوداع جعلتها منكسرة ضعيفة. قالت لي أخيرا: "أدخلي يا نجوى." ومضت تجرجر رجليها إلى غرفة الجلوس.

أغلق باب الشقة خلفي وأخلع حذائي وأضعهما قرب الباب. أطوي معطفي وأضعه فوق حذائي. بدأ يومي أقل مشقة من سابقه، وبدأت الأعمال تبدو معتادة أكثر من ذي قبل. تذكرتني مي بصورة لا تخلو من بعض الضغينة. ابتسمت في وجهها ومثلت دور المهرج. سيغدو عملي أكثر سهولة إن كسبت ثقتها. تحدثت معها حول الذهاب للمنتزه، وذكرتها بأني دفعتها في الأرجوحة بالأمس`. كانت مازالت ترتدي بيجامة نومها، فقمت بتغيير ملابسها وأخذتها للحمام، وتزلفت إليها وداهنتها كي تنظف أسنانها بالفرشاة. اكتشفت أن لمياء لم تعطها - كما فعلت بالأمس- طعام الإفطار فقدمت لها رقائق القمح مع حليب حار ونثرت عليه قليلا من السكر. لانت الرقائق وصارت عجينة ناعمة. مضيت أضع ملعقة من العجينة إثر أخرى في فمها. شربت دون مساعدة مني حليباً من كوبها الخاص.

كانت أطباق عشاء الأمس تملأ حوض الغسيل في المطبخ- لم يعبأ أحد بغسلها. لو شطفها أحد بالماء فقط لصار غسلها سهلا. والآن تيبست

والتصقت بقايا الطعام على الأطباق. فتحت صنبور الماء الحار عليها طويلا حتى لانت. أستمتع بالعمل في البيوت أكثر من العمل في نظافة الفنادق والمكاتب. أحب أن أكون جزءا من عائلة... ألمس أغراضهم وأعرف ما يأكلون وما يلقون به في سلة المهملات. أعرف دقائق حياتهم دون أن يعرفوا عني ألا القليل، وكأني إنسان خفي. لم انقطع عن العجب والتعجب من أني أمثل دور الخادمة بطريقة طبيعية جداً أذهلتني شخصياً. في اليوم الأول الذي عملت فيه كخادمة (ليس عندما عملت عند العمة إيفا- لم أشعر بأني خادمة عندها- لكن فيما بعد، عندما عملت عند صديقتها) تدفق في عقلي سيل من الذكريات. تذكرت كل ذلك الكم الهائل من الملق والمداهنة والرأس المطأطأة دوماً والعينين المسبلتين، وحركات الخدم الجانبية التي تعودت عليها الآن. كنت آخذهم كأمر مسلم به. لم أكن أعرف عنهم الكثير- الأعداد المتوالية من الخادمات الإثيوبيات، والخدامين الصبية وجناييني حديقتنا في الخرطوم- لابد أنني كنت قريبة منهم. تشربت طرقهم. والآن وبعد مرور كل تلك السنوات، وفي قارة أخرى، صرت واحدة منهم.

أتذكر خادمة إثيوبية قالت لي ذات مرة أن صديقاتها كن يطلقن عليها اسم "دونا صمر" لأنها تشبه تلك المغنية الأميركية السمراء. ضحكت عندما أطلقت عليها أيضا اسم "دونا صمر". تضع دونا صفار البيض في شعرها، وبياض البيض على وجهها، وتمسح رجليها بالفازلين. كانت ترتدي بلوزة من قماش الكوردروي في يوم راحتها الاسبوعية. كانت تقيم في السودان كلاجئة. تتحدث عن إثيوبيا وجبالها معتدلة الهواء، والأمطار والمدارس الجيدة هناك. تقول إنها ستذهب مع حبيبها إلى الولايات المتحدة.، وعندما تصل هنالك ستهرب منه في المطار... ستهرب. لماذا؟ سألتها فقالت لأنه ليس مؤهلا... ليس حتى ميكانيكا... كان يغسل الأكواب في محل لبيع العصير. الفتاة جد مرحة ويسعد المرء بحديثها... متألقة وجميلة وتهز أردافها في المطبخ.. كانت ترتدي دوماً قلادة فيها صليب برونزي يلمع بين عظمتي ترقوتها. مرضت يوماً فزرتها مع ماما. كانت تسكن في بيت طيني بائس واسع مترامي الأطراف... مثل مجمع مبان. يسكن فيه رجال ونساء كثيرون... كلهم شباب، وكلهم إثيوبيون، وكلهم لاجئون. لم نعرف إن كانوا أقرباء لبعض أم لا. كانت دونا ترقد في سرير صغير... هزيلة ومصابة بالحمى. لم أستطع أن أحدد إن كانت سعيدة برؤيتنا أم لا. عندما شفيتْ سرقت من ماما قميص نوم وحذاء لم يستعمل وزجاجة عطر... شانيل 5. لم نرها مرة أخرى. كان يمكن لماما أن تبلغ الشرطة عن دونا فهي تعلم مكان سكنها، بيد أنها لم تفعل - فقد أحبتها جدا، ربما أكثر مما يجب -

وشعرتْ بالألم من سرقتها، ولكنها أخفت الخبر عن بابا. جلبنا خادمة إثيوبية أخرى- ثقيلة الظل ولا تتحدث كثيرا. لم تبدُ فخورة بمظهرها ولا بقوامها. أظن أن دونا قد هاجرت للولايات المتحدة... إلي حيث كانت تؤمل في حياة أفضل كانت تؤمن بأنها تستحقها. كم أتمنى أن التقيها الآن، وأن أحتضنها بيدي وهما في قفازات المطبخ يسيل منهما الماء. كنت أرتدي تلك القفازات لأني - مثلها تماماً- أفخر بأن أحافظ على يدي ناعمتين. كنت سأقول لها عندما ألتقيها: "أنظري ما حدث لي. أنا ألان اغسل الصحون كما كنتِ تفعلين." وكنا سنغرق في الضحك معا.

قالت الدكتورة زينب وهي تضغط على زر مغلاة الماء الكهربائية وتغرف مبقعة من قهوة النسكافيه في كوبها: "حان وقت قهوتي." أعلم أن تلك إشارة لي كي أبدأ كي ما تبقى من ملابس الأمس- ضغطت على أحد الأزرار فخرج دخان له زفير، فعالجت المكواة بتدوير أزرارها..

مسحت بنظرها المطبخ وقالت لي: "أخرجت دجاجة مجمدة ليلة أمس حتى "تنفك" ويمكن لك طبخها اليوم. ذكرت لمياء بضرورة أن تخرج اللحم أو الدجاج المجمد ليلاً قبل أن تنام، حتى يسهل عليك طبخه في صباح اليوم التالي. أتمنى أن تتذكر ذلك."

غمغمت: "إن شاء الله."

"نشأ أطفالي في عمان حيث كان لنا دوماً خدماً في المنزل. لذا فهم مدللون ولا يستطيعون أن يخدموا أنفسهم. لا يستطيع تامر حتى أن يعد لنفسه كوباً من الشاي! لا أمانع في أن يأكل في الخارج... في ماكدونلادز أو في مطعم كليته، ولكن ذلك ليس طعاما حلالا. لطالما كان متمسكا بأهداب دينه، لا يأكل إلا اللحم الحلال. لا أدري من أين ورث نزعته الدينية هذه. لا أحد منا في مثل تمسكه بالدين."

لم أحر ما أرد به عليها، فواصلتُ كي الملابس.

"الحمد لله أن لمياء وجدتك. كانت فكرة جيدة أن تسأل في المسجد."

أجبت: "نعم."

صبت الماء الحار علي حبيبات قهوتها في الكوب وأضافت: "كنت سأبقى معهم لفترة أطول، ولكن ينبغي عليّ الرجوع. ما أتيت إلا لأساعدهم على الإستقرار، وقد استقروا بالفعل الآن. لم يعجب تامر بالحياة هنا في البداية، لكن والده أصر على أن يدرس في انجلترا كما فعل هو ذلك من قبل. ما أن أكمل تامر مدرسته العام الماضي حتى قدم له والده ليحضر هنا. شعرت بالزهو كون الدكتورة زينب تدردش معي في غير كلفة. أعجبتني كل كلمة خرجت من فمها بلهجتها المصرية التي أحبها. كنت أداوم مع ماما على

مشاهدة المسلسلات المصرية يومياً - حتى عندما كنا في زيارة عائلة ما، كنا نطلب منهم أن نشاهد المسلسل الذي كنا نتابعه عندما يحين وقت بثه.

كانت تلك أول مرة أضع فيها مي في سرير نومها، وكان ذلك تحدياً عظيما. التزمت حرفياً بتعليمات الدكتورة زينب- طقوس حمل الطفلة إلى المطبخ، وصب حليب "رابينا" الخالي من السكر لها في كوبها المفضل، وإضافة ماء "إيفيان" له (تعجبت جداً عندما علمت بأن لا أحد في هذه العائلة يشرب من ماء الصنبور)، ثم حمل مي لغرفة نومها، وقفل الستائر، ووضعها في سريرها الصغير، ووضع الكوب الصغير في فمها لتمص منه. أجلس على الأرض قرب سريرها. تقفز واقفة على السرير وهي في كامل اليقظة. "مي... أرقدي. نامي." آخذ منها الكوب وأقول لها: "نامي وسأعطيك الكوب." تبدأ في الصراخ. لا تترك لي مجالا غير أن أعطيها الكوب مجدداً خوفا من أن يدفع صراخها بالدكتورة زينب إلى القدوم للغرفة.

تمددت على الأرض وأغلقت عيني وقلت لها: "أرقدي يا مي، مثل ما أفعل أنا." بعد قليل سمعت صوتاً خافتاً مكتوما على مرتبة السرير. فتحت عيني لأجدها راقدة وقد أراحت أحد رجليها على أحد قضبان السرير الحديدية. يدها اليمنى تقبض على كوبها، وأصابع اليد الأخرى تعبث بأغطية سريرها. بدت راضية هانئة. وقعت عينها على عيني، فرفعت رأسها وبدت سعيدة. أغلقت عيني مرة أخري وقلت لنفسي لابد من أن أظل ساكنة تماماً حتى لا أوقظها. سرعان ما بدأت أسمع صوت تنفسها المتواصل. قاومت نفسي أن أنزع من فمها الكوب الذي كانت تمص منه حليبها. ربما سترغب - وهي في منتصف قيلولتها بأن تشرب منه، بيد أنه يجوز أيضا أن يقع الكوب من فمها ويصطدم بقضبان السرير الحديدية ويحدث صوتا قد يوقظها. خاطرت وقمت بأخذ الكوب من قبضتها برفق وبطء. حركت جسدها وانقلبت، وأصبت بالجمود التام مخافة أن تستيقظ، ولكن الله سلم وظلت غارقة في نوم عميق.

بعد منتصف الظهيرة جلست الدكتورة زينب في كرسيها الوثير في غرفة المعيشة تنتظر سيارة الأجرة التي طلبتها. بدت أنيقة في حلتها البنية ذات القطعتين، وبالغة التزين والمكياج، مع حذاء لامع عالي الكعب. كنت قد حملت من قبل حقيبتي سفرها من غرفة النوم إلى باب الشقة.

لاحظت توتراً عميقاً يغمرها وهي في إنتظار سيارة الأجرة، تقلب في عصبية ونفاذ صبر في صفحات جريدة يومية. يمنعها زيها المتأنق من حمل مي، لذا كان دوري هو حمل مي وجعلها تنشغل عن جدتها كي لا تفسد لبستها الجميلة. كانت تمطر في الخارج لذا لم يكن بمقدوري أخذ مي إلى

المنتزه. وقفت حاملة لمي ننظر من النافدة لهطول المطر. كانت النافذة محكمة القفل ولذا تركتها تقترب من حافة زجاج النافذة لتنشغل بالمطر الهاطل. كانت الأشجار تئن تحت وطأة المياه الغزيرة المنهمرة، وفقدت الأوراق بريقها ولمعانها. كنا نري المارة من تحتنا وهم يضعون المظلات القوية فوق رؤوسهم، والسيارات تحرك ماسحات الزجاج يمنة ويسرى. أظلمت الغرفة قليلا، فأضأتها الدكتورة زينب. رن الهاتف فتناولته وقالت بصوت حنون غير صوتها الأجش المعتاد: "تامر، حبيبي، ما الخطب؟ أين أنت؟" صمتت برهة ثم واصلت: "طبعا لا أمانع. أخبرتك هذا الصباح بأنه لا داعي لحضورك. أستطيع أن أذهب لمطار هيثرو بمفردي. إنك لا تسمع كلامي." جلستُ ومي على حجري على حافة النافذة- غدونا الآن صديقتين.

"لا. ليست هنالك مشكلة في إنزال حقيبتي. بالطبع لا." سكتت برهة، ثم ابتسمت. "يفرحني أنك لن تضيع محاضرتك اليوم."

سمعت صوت دخول مفتاح في باب الشقة، وشاب يدخل... كان هو ذات الشاب الذي رأيته في البهو في أول يوم لي في الشقة. كنت أراه من مكاني وهو في الدهليز، بينما لم يكن بمقدور الدكتورة زينب أن تراه. كان يتحدث في هاتفه النقال ويهمس: "أنت متأكدة يا ماما من أنك لا تحتاجين إليّ في المنزل؟ تستطيعين الذهاب إلى الصالة الرابعة في المطار بمفردك؟"

دخل الآن إلى غرفة الجلوس وهو يقول: "على كل حال فات الوقت الذي يمكن أن تآتي فيه... تامر!"وانفجرا يضحكان. أغلق هاتفه الجوال ووضعه في جيبه. لاحظت أنه يشبهها. خاصة في العينين الكبيرتين الجاحظتين، والأنف المعقوف، بيد أن هذه الصفات وسيمة عنده. انتصبت أمه واقفة وتعانقا. هي أقصر منه طولا، وبدا أقل حماسة منها في إظهار مشاعره. ضحكا معا. بدا لي أن علاقتهما طبيعية جدا يسودها التفاهم، بل اللامبالاة، مما لم ألحظه في العلاقة بين الأم وبنتها.

صرخت مي: "تا- ما، تا- ما" فالتفت إليها. انتبه لوجودي للمرة الأولى، وبدا عليه بعض الإحراج، وحاول أن يبدو أكثر انضباطا وتحفظا. وجهت نظري بعيدا... إلى النافذة. لا ريب إن أشار إلى والدته متسائلا عني، فقد سمعت أمه تقول: "تعال. لنذهب إلى غرفتي." لكن مي انسلت من بين يدي، وهرولت نحو تامر. جثا على ركبتيه وذراعاه مفتوحتان وحضنها ورفعها عاليا. تغير الحال في الغرفة تماما. بعض الناس لهم القدرة على ذلك. يدخلون غرفة ما ويغيرونها.

رأيت من النافذة سيارة أجرة سوداء تقف أمام المبنى. خرج السائق ودق جرس دارنا. مشى تامر نحو هاتف المدخل ليرد. لاحظت أن لهجته تميل إلى اللهجة الأميركية. لابد أن ذلك من تأثير المدرسة الأميركية التي درس بها في عمان.

هتف من بعيد لوالدته التي توجهت نحو الحمام: "سآخذ الحقائب للتاكسي." فتحت له الباب، وأسرعت لجلب المصعد لطابقنا. رفع حقيبتي أمه معا في ذات الوقت. كدت أضحك من المجهود الذي بذله ليدعي أنها ليست بثقيلة. توجه نحو السلم لكني ناديت عليه بأن المصعد قد وصل. منعت مي من الدخول إلى المصعد مع خالها. كانت مفعمة بالحماس والإثارة من حالة أن هنالك الكثير مما كان يجري حولها في وقت واحد. مع هبوط المصعد، استطعت أن اصطاد ما بدا لي كابتسامة خاطفة موجهة إلى، وصورته جلية واضحة وهو يقف منتصبا بين الحقيبتين في بنطال جينز وحذاء نايكي الرياضي، ومعطفه الأخضر وعليه حبات من ماء المطر. عزيت مي قائلة: "سوف يأتي مرة ثانية." كانت مرتبكة جدا. قبل دقيقة كان تامر يقذف بها في الهواء ويلتقطها ثانية، وفي الدقيقة الثانية تقبلها الدكتورة زينب قبلة الوداع.

بعد لحظات كان تامر يقفز في الدرج صاعدا. بعد أن أدخل الحقيبتين إلى سيارة الأجرة بدا عليه نفاذ الصبر والرغبة في الذهاب. ارتبكت قليلا ومي بين يدي وسألت نفسي إن كانت لديه الجرأة ليقبل الدكتورة زينب قبلة الوداع. مضت تضع معطفها في بطء أثار تامر فردد: "ماما.. هيا... هيا."

قالت له: "تامر. طلبت مني لمياء أن أعطيك مفاتيحي، ولكن كيف ستدخل نجوى الشقة مرة ثانية إن أخذت مي للتنزه في الحديقة؟" نظر إلي عندما ذكرت أمه اسمي، ثم نظر إلى أمه. بدا عليه الضجر مما تقول.

واصلت حديثها قائلة: "مفاتيحي يجب أن تظل في الشقة- لنجوى لتستعملها حين تخرج. ها هي هنا" ثم دفعت بمجموعة مفاتيحها على الرف قرب الباب. كانت المفاتيح في سلسلة خضراء وعليها علامة محل هاروود الشهير.

"تذكري يا نجوى أن تأخذي معك المفاتيح عندما تخرجين."

"لن أحتاجها اليوم. لن نخرج اليوم، فالمطر شديد."

بدا عليها الغيظ فردت في غلظة: "إذا وقف المطر. وغدا وبعد غد - إن لم تأخذي معك المفاتيح فسوف تعلقين في الخارج أنت ومي." همهم تامر وتأوه وأسرع بالنزول من الدرج. وضح أنهما ضجرا من غبائي.

قالت لي الدكتورة زينب بلطف هذه المرة: "اعتني بالبيت جيدا. سأعود مرة ثانية إن شاء الله، وسأتصل بالهاتف. البنت هي مسئوليتك الرئيسة".

أجبتها وأنا أعلم أني لن أقبلها قبلة الوداع، واعلم أنها لن تتوقع ذلك" "إن شاء الله يا دكتورة ترجعي لنا بالسلامة."

راقبتها وهي تهبط الدرج بسرعة وخفة. لم أغلق باب الشقة حتى توارت عن الأنظار.

أخذت مي إلى حافة النافذة لنشاهد الدكتورة زينب وتامر يركبان سيارة الأجرة. نظرا إلى نافذتنا، حيث نقف، ولوحا بأيدهما. أنزل تامر زجاج نافذة العربة وابتسم. بدأت مي في البكاء. تلوت وزعقت ومضت تضرب برجليها على زجاج النافذة، ورغم أني كنت ممسكة بها فقد فقدت توازنها ووقعت. أمسكت بها في اللحظة الأخيرة، ومضينا ننظر من زجاج النافذة. لابد أن منظرنا كان لا يسر.- مي وهي في نوبة غضب عارم، وعلى وجهي تبدو البلادة وعدم الكفاءة.

الفصل الثاني عشر

يخرج القطار من النفق تحت الأرض، ويظهر الآن ضوء الشمس والعشب والبيوت خارج لندن. كلما وقف القطار في محطة ما، يكثر النازلون ويقل الصاعدون. نحن نقترب من نهاية الخط الحديدي. أقترب من عمر الآن.

ثمة حافلة ستأخذني من المحطة إلى مبنى السجن. هو مبنى عادي الشكل يقع بعيداً عن الشارع الرئيس، وتحيط به مساحة خالية واسعة، وبه موقف واسع للسيارات. لم يكن ذلك هو السجن الأول الذي ارتاده عمر. سبقته سجون كان معظمها أكثر إظلاما وأشد وطأة. بالنسبة لما سجن فيه من قبل، يعد السجن "المسالم" الحالي بمثابة "حفل التخرج". في المدخل أريت الحارس المسئول بطاقة الزوار. أخذ منى حقيبتي وأحتفظ بها. كنت على الموعد تماماً. بدأت مجموعات صغيرة من الزائرين في التجمع. امرأة شقراء مع طفليها الأسودين، وعدد من الأزواج متوسطي العمر، وامرأة أخرى مع طفلها الصغير. أدخلنا للمصعد مع حارس ودود يرتدي زياً قاتم الزرقة. داعب الطفلين الأسودين وأمهما وضحك. كانت متحمسة للقاء زوجها. وكما كنت أفعل في كل زيارة فقد كنت أبحث عن إحساس بالخجل، أو بالذنب، أو حتى بالتبلد، ولكن لم يكن هنالك شيء من هذا. كل شيء منظم، ومنضبط وعادي- وكأننا كنا نزور مرضى أبرياء في مصحة، أو مراهقين في مدرسة داخلية.

كان هنالك محل لبيع الوجبات الخفيفة في أحد جوانب الغرفة التي أخذنا إليها. توجه إليه الطفلان الصغيران وأمهما. في الغرفة طاولات مستديرة تحيط بها مقاعد مثبتة لا يمكن تحريكها.- كانت هنالك أيضا مقاعد بيضاء للزوار ومقعد أزرق للمسجون. جلسنا على مقاعدنا البيضاء وانتظرنا. جلس كل أثنين من الحراس بجنب بعضهما البعض على الأبواب يتسامرون. كانت دقائق الانتظار قليلة لكنها بدت لنا طويلة جدا. أتوا فرادى... ليسوا أثنين أثنين، ولا في مجموعة واحدة، ولا في صف واحد، بل أقبل كل واحد منهم متعالياً عن البقية، وكأن لا شيء يجمعهم، ولا تجربة، ولا زمالة تصل بينهم. بيد أن جميعهم كانوا في ذات الزي: قمصان زرقاء باهتة، وسراويل مختلف ألوانها. جاء رجل له شعر طويل مضفر واحتضن ولديه في لهفة، وقبل زوجته. أثارت تلك العائلة ضجيجاً عالياً، بينما بقينا نحن صامتين.

عندما أقبل عمر تيقنت أني قد كبرت في السن أيضا. مضى الزمن على غفلة منا. قال لي مرحبا: "هاي يا نينا." كان الوحيد الباقي في هذه الدنيا الذي يخاطبني باسم الدلع المحبب لدي. تصافحنا، وربت كل منا على ظهر الآخر ثم تعانقنا. مع مرور السنوات قل شعره، ثم بدأت معالم الصلع تبدو

عليه. تذكرته عندما كان يجعد ويدهن شعره كمايكل جاكسون في البومه الغنائي الشهير"أوف زي وال" في بداية الثمانينات. صار يضع على عينيه نظارات نظر من النوع العادي الذي تصرفه إدارة السجون. لا يبدو أنه في صحة جيدة، فهو مصاب بقرحة في المعدة، ومشاكل في الكلي، ونزلات البرد التي تأخذ زمنا طويلا لتبرأ.

"لقد انتظرت زمنا طويلا قبل أن تبعث لي بدعوة للزيارة. أنت تعلم أني بمقدوري أن أزورك في عطلة كل أسبوع إن طلبت ذلك." يؤلمني جدا أنه ليس بمقدوري أن أزوره حين أريد. لابد أن تأتي المبادرة منه هو.

هز كتفيه وقال: "المسافة عليك بعيدة."

"لا أبالي بذلك."

"لقد زرتني قبل أسبوعين. أليس كذلك؟"

"لا. بل مر شهر كامل."

بدا مرتبكا وقال: "شهر كامل؟ هل هذا صحيح؟" لم تكن ذاكرته كالعهد بها. أحياناً يفكر في أنه ليس صحيحاً، لا يشعر بأنه في تمام عقله وبدنه وذاكرته، وأنه لن يبرأ أبدا. وكأنما أراد أن يطمئنني عليه مال للأمام وقال لي في اهتمام: "إذن.. ما هي أخبارك؟". كان اهتمامه بي وما أقول يتركز في بداية الزيارة فقط، ثم لا يلبث أن يتضآئل وكأنه يصاب بالإحباط، وكأني لم أجلب له ما يود سماعه من أنباء. أخبرته عن وظيفتي الجديدة. أخبرته عن شارع "جونز وود" حيث لا تكتب المحلات الأسعار على الملابس المعروضة في الفترينات من شدة غلائها. أخبرته عن الدكتورة زينب وعن مي ولمياء. قلت له: "أخوها لم يبلغ سن العشرين، وهو متدين وطيب. لا يدخن ولا يشرب، وليس له صديقات، ولا يرتاد نوادي الليل. له لحية ويرتاد المسجد يوميا."

"يا له من مسكين!"

قلت وصوتي ينبيء بأني أدافع عنه: "لا. إنه ليس كذلك."

هز عمر كتفيه وكأن الأمر لا يعنيه أن يكون الشاب كما قلت أو لا. غير الموضوع بقوله: "هل هنالك من أخبار بخصوص خالنا صالح؟"

"لقد تلقيت خطابا منه للتو. يبعث إليك بتحياته."

"كيف حاله؟"

"بخير، الحمد لله. يتعود على الحياة كرجل مسن في تورنتو."

"وسمير؟ لم يعد يسأل عنا. لفظنا كالنواة."

"ليس هو الوحيد يا عمر." وسألت لنفسي هل هجرنا أصدقاؤنا القدامى بالفعل، أم أن السبل تفرقت بهم، وفقدوا الاتصال بنا."

بدا صوته غاضبا وربما حاقدا قليلا: "توقعت منه أكثر، خاصة وهو ابن خالنا."

ذات مرة، وحين كان سمير ما يزال في بريطانيا، بعث إليه عمر بدعوة لزيارته في السجن. لم يجب سمير الدعوة، ولم يرسل أي اعتذار، ولم يكتب لعمر أي رسالة.

"حسنا... لقد ترقى في سلم الوظائف عاليا الآن في شركة آي سي آي، وأطفاله يكبرون. أرسل خالي صالح لي بعض صورهم. البنت الكبيرة تشبه ماما جداً لدرجة لن تصدقها."

تحدثنا عن الماضي، قبل وفاة ماما، وتحدثنا عن موسيقى البوب التي كنا نحبها، وكيف أن فرق اليوم الموسيقية لا تعجبنا. تذكرنا حفلة "بوب مارلي" التي ذهبنا إليها سويا في إيرلز كورت. تذكرنا ما كنا نشتريه من اسطوانات موسيقية سوداء مصنوعة من الفينايل، وعن المساء الذي أخذنا فيه بابا لمشاهدة العرض الموسيقي ل"أوليفر" في شارع شافتز بري.

قال لي عمر وهو يبتسم: "هل تذكرين تزحلقنا على الجليد في كوينز وواي؟ أحب ذلك المكان. كان هنالك صندوق موسيقي لطلب الأغاني "جيوك بوكس" في المقصف. أول واحد من نوعه أراه.. كنا نلقمه عشرة سنتات ونضع على زر، ثم نختار الأغنية التي نحب سماعها."

"كيف تعلمنا التزحلق على الجليد؟ لا أذكر الآن!". ضحكت - أطفال قادمون من الخرطوم الحارة للندن في الصيف- يدخلون في ميدان تزحلق على الجليد في كوينز وواي، وكأن لهم الحق كل الحق في الوجود هنالك. كل هذا بسبب المال. المال أعطانا ذلك الحق.

"وددت أن أبقى هنالك طوال العام. تمنيت أن أبقى في لندن للأبد."

حمدت الله أنه بدا هادئاً ومسترخياً ومحباً للثرثرة ذلك اليوم. في بعض المرات يبدو مكتئباً ومتقلب المزاج، ولا يود الحديث حتى نهاية الزيارة.

قلت له: "كنت تبدو مريضاً قبل يوم أو يومين من موعد عودتنا للخرطوم."

"أهذا صحيح؟ لا أذكر ذلك." كان صوته يشي عن حبه لأيام طفولته تلك، حيث كان يزور مع العائلة لندن.

"كنت تصاب بشد في عضلات الرقبة. لم يكن بمقدورك تحريك رقبتك. كانت ماما تقول إن سبب ذلك المرض نفسي ليس إلا."

ضحك قليلا وقال لي إن مكتبة السجن تحسنت قليلا وأنه بدأ يقضي الوقت في القراءة في كتبها. كان يقرأ عن موسيقى البوب وعن حياة تاريخ مغني البوب. نصحته بقراءة القرآن. كانت تلك هي النصيحة الخطأ. هز كتفيه

وقال: "هذه الأشياء الدينية ليست لكل الناس." خلع ناظرته لينظفهما بطرف قميصه. التفت إليه أحد الحراس وحدق فيه، ثم حول نظره بعيدا.

بدأت في الحديث ولكنه قاطعني بالقول: "لا تضجريني يا نجوى." كانت هنالك ظلال سوداء تحت عينيه.

"ليس قصدي أن أضجرك."

"كلما تزورينني، تكررين نفس الكلام." كان صادقا. منذ اثني عشر عاما وإلى الآن ظللت أحاول إخباره نفس الأشياء بطرق مختلفة. منذ ن بدأت أصلي وأرتدي الحجاب كنت آمل في أن يتغير بمثل ما فعلت. وضع نظارته على وجهه مرة أخرى، وأثار ذلك انتباه الحارس، والذي صوب نظره عليه تارة أخرى.

"دعني أشرح لك شيئا. أعرف وأتفهم شعورك. لم ننشأ نحن الاثنين نشأة دينية في عائلتنا. لم نصادق في الخرطوم أي شخص له توجهات دينية."

"عدا الخدم. أتذكرهم وهم يصلون. موسى السائق مع الأخريين- كانوا يصلون في الحديقة."

كان لا يصلي في بيتنا غير الخدم. كان حارس الدار يفتح لسيارتنا بوابة الدار في الهزيع الأخير من الليل، ويظل مستيقظا يتلو القرآن حتى بزوغ الفجر. أتذكره جالسا في الحديقة ورجله تحت الأخرى، اسمراً كشجرة.

"لو كان باب وماما يصليان... لو كنا أنا وأنت نصلي لما حاق كل هذا بنا. كنا سنظل عائلة عادية..."

"لا تكوني ساذجة..."

"كان الله سيحمينا إن كنا طلبنا منه العون والسند... لكننا لم نفعل. لهذا عاقبنا الله." لم استطع الحديث بطلاقة وبطريقة مقنعة. كان مدخلي عنيفا، ففشلت في توصيل رسالتي.

"لا تكوني بلهاء. تصورين الأمر وكأن بابا قد ارتكب جرماً ما. لقد افتروا عليه. أين كل تلك الملايين التي زعموا أنه ابتزها وهربها إلى الخارج؟ لقد أتينا هنا ولم نجد شيئا."

"أنت محق، ولكن حدث هذا كله في الماضي. أنت من أشفق عليه. أنا قلقة عليك. أنا أهتم بحالك."

رد وهو ساهم، وكأن صوته آت من بعيد: "أنا أعلم ذلك."

"هؤلاء الناس الذين وضعوك في السجن- هل تظن أنهم يأبهون لحالك؟ أنت تعتقد أنهم إن عفوا عنك فسيطلق سراحك، لكن عفو الله هو الأهم. إن عفا عنك - سبحانه- فسوف يصلح حالك وتنفتح أمامك الأبواب. أبواب لم تكن تعتقد أنها موجودة أصلا."

هز رأسه بشدة يمنة ويسرى وقال: "يااااه. هذا فوق احتمالي يا نجوى... فوق طاقتي على الفهم! ما الذي تودين قوله؟ لا أفهم ما تقولين."... بدأ يتحدث بلهجة أخرى وقال ساخرا: "أبواب لم تكن تعتقد أنها موجودة أصلا... يا لله... هذا كلام عميق... عميق جدا."

بدأت أضحك، إذ بدا أن هذا ما أراده، ورددت عليه: "أنت ميئوس منك"

قال بلهجة حازمة وهو ينظر في عيني: "نجوى. أنت سعيدة بحالة كونك متدينة. هذا شأنك. لكنى راض بحالي هكذا."

كيف يكون راضيا بحاله هكذا؟ ذهب شبابه هدرا ويقول لي إنه راض عن حاله!

الفصل الثالث عشر

أحب عملي الجديد. مع مرور الأيام تزداد علاقتي بمي دفئا. تمسك بيدي وهي تسير من غرفتها إلى الحمام، وتبتسم حين تراني في الصباح. يسير اليوم على وتيرة ثابتة. لمياء تكثر من الشكوى في الصباح، وتهمس همسا وهي ترد تحية الصباح بفتور واضح، ثم تأتي عند المساء منتعشة تشع بالبهجة والسرور. لابد أنها تحب ما تدرسه. أشعر بالفخر وأنا أكوي لها ملابسها الأنيقة الغالية، وأنظم علب عطورها وزينتها على طاولة التسريحة. كان لها عدد من سلاسل العنق الذهبية، والتي كانت تعلقها فوق مسند خاص على هيئة شجرة ذات أغضان عارية من الأوراق. أمسكت بعقد لؤلؤ متعدد الألوان أتأمله في إعجاب. كان لي ذات يوم عقد شبيه بهذا العقد لكن عمر سرقه مني وباعه ليشتري بثمنه مخدرات. تستخدم لمياء وشاحاتها الحريرية لتضعها حول رقبتها وليس لتغطي رأسها. أحيانا أغطي بهم رأسي وأنظر لوجهي في المرآة. أتى على زمان كنت حسنة الشكل، بيد أني لا أهتم الآن إن كنت كذلك أم لا، وإن كنت مريضة أو لا، أو ما هو الشهر الآن. لم يعد شكلي ثابتا، ويبدو أن كل ملمح جميل فيه إلى زوال.

أجد المطبخ كل صباح في حالة عارمة من الفوضى. ساء الأمر بعد سفر الدكتورة زينب. ينقضي جزء كبير من وقتي في تنظيف ما ترك منذ الليلة السابقة متراكما على حوض الغسيل والطاولة. يؤلمني أنهم يتركون الطعام المطبوخ في الخارج طوال الليل. كثيراً جداً ما يفسد ذلك الطعام الجيد ولا أستطيع تناوله. كنت آكل من فضلة طعامهم منذ أن قالت لمياء وهي تشير لطعام الأمس: "نحن لا نأكل إلا الطعام المحضر للتو. يمكنك أخذه."

يتغير الضوء في غرفة المعيشة كل يوم بحسب تغير الطقس وتعري الشجر من الأوراق. عندما تنام مي نومة القيلولة أجلس على الكرسي الوثير الذي كانت تجلس عليه الدكتورة زينب، وأستمتع بالضوء الخافت في الغرفة وأشاهد ما تبثه القنوات العربية. أشاهد الكعبة والناس حولها يطوفون. لكم أتمنى أن أكون واحدة منهم. أرى صغار الفتيات وهن يرتدين الحجاب، وأقول لنفسي ليتني فعلت ذلك قبل حالي هذا، وليت لي في ماضي عدداً أقل مما ينبغي أن أتوب عنه وأشعر بالندم. تشعرني البرامج الدينية بالتماسك وكأنها تقول لي: "لا تأسي. سيحفظك الله، ولن يهجرك. يعلم بأنك تحبينه. يعلم بأنك تسعين وتحاولين جهدك... وسيكون كل ذلك في ميزان حسناتك في نهاية المطاف." كل هذا تعلمته من البرامج الدينية، وعلى جرعات صغيرة متفاوتة ومتباعدة. تعلمت أنه سيكون كل واحد في الجنة في عمر الثالثة والثلاثين بغض النظر عن العمر الذي مات فيه. كانت

أمنا حواء هي أجمل امرأة خلقها الله، وكانت سارة زوجة إبراهيم هي الثانية في ترتيب الجمال. وقف الرسول - صلى الله عليه وسلم- ليتحدث مع امرأة مجنونة في الطريق. تحدث معها لوقت طويل، فعجب الصحابة من أن يفرد الرسول زمنا طويلا لتلك المرأة التي لا يأبه بها احد.

مثل تلك الأحاديث والروايات تقع عندي موقعاً حسنا وأفهمها. لهذا السبب أداوم على الذهاب للمسجد لحضور الندوات والدروس. يحيرني أن ما اسمعه أعيه وأحفظه فوراً. في المدرسة قديماً، كنت أنسى كل ما أتعلمه لحظة انتهاء الامتحان. ذات مرة وفي أحد احتفالات العيد في المسجد أقيمت مسابقة قدمت فيها أسئلة حول الثقافة الإسلامية- أجبت على كل الأسئلة إجابات صحيحة وكانت جائزتي صندوقا من حلوى شيوكلاتا كادبيري.

كانت توجد في مكتبة شقة لمياء كتب إسلامية، بيد أني أشك في أن تلك الكتب لها. لم أعهد فيها توجها دينيا، وليس في غرفتها سجادة أو طرحة للصلاة. كانت الكتب في غرفة تامر، لذا أفترض أنها له. كتب عن الصوفية، وعن تاريخ الإسلام القديم، وعن تفسير القرآن. إنه يقرأها، وليست فقط لمجرد شغل الرفوف. أعلم أنه يقرأها لأني أحيانا أجدها مرصوصة على الطاولة بجنب سريره، أو مفتوحة على الطاولة التي كانت تستعملها أمه كتسريحة وصارت الآن طاولة مكتب له.

تزعجني غرفته. فهي مظلمة، ونافذتها الوحيدة تطل على سلم الخدم الحديدي، وتصلها أصوات أرجل العمال وجامعي القمامة وهم يمشون على السلالم الحديدية. كان على أن أشعل الضوء لأرى ما أنظفه في غرفة تامر. يطوي سجادة صلاته بعناية ويضعها فوق الكرسي، لكنه يدع سريره غير مرتب. تجد علب وصناديق العصير الفارغة وأوراق حلوى الشيكولاتا متناثرة حول سلة القمامة، وكأنه قذف بها من على سريره فأخطأ الهدف. التقط ملابسه المكومة فوق السرير. لها رائحته، وتجعلني تلك الرائحة واعية بنفسي. أمسح طاولة مكتبه، وأرتب كتب جامعته في ناحية، وكتبه الأخرى في ناحية ثانية. أرتب شرائط "عمرو خالد" واضعها في مكانها. أترك أمر تنظيف غرفته للآخر، بعد أن افرغ من كل مهامي الكثيرة. لا أزال أذكر نصيحة مجلة التخسيس المتعلقة بالتمارين الرياضية. تنصح تلك التمارين بأن تترك تمرينك المفضل للآخر حتى تكون حافزاً لك لتبدأ بما لا تحب وتسرع بإنجازه، ثم تختم بما تحب. أحيانا آخذ أحد كتبه لخارج الغرفة لأقرأه. عندما تكون مي نائمة أقرأ ما كان يقرأه هو. تغدو الشقة هادئة من دون صوت التلفاز. بعض كتبه عسيرة على فهمي. أقلب صفحاتها بسرعة، وإن بدأت أفهم ما فيها أواصل القراءة، وإن لم أفهم نحيتها عني.

نادراَ جداَ ما أرى تامر عند الصباح. يخرج في الغالب قبل أن آتي للشقة. أحياناً أراه عندما يرجع للشقة في المساء وأكون أنا خارجة منها. يخلع نعليه في المدخل وأنا ألبس حذائي. تامر شديد التهذيب. يبتسم دائما وهو يحييني: "السلام عليكم." فيه تواضع تفتقده لمياء. أحينا أصادفه عند الدرج. هو يسرع فيه ويصعد فيه أو ينزل منه درجتين درجتين. أمشي هونا دون أن أحدث صوتا، وكثيراً ما يفزع قليلا لرؤيتي في السلم. أتحرك بسرعة نحو اليمين لأدعه يمر، بينما يتحرك هو تلقائيا نحو الشمال. أتحرك إلى الشمال وأسد طريقه مرة أخرى فنضحك معا. يبقى معي سخف الموقف وضحكته إلى أن أصل لمحطة البص.

أحيانا أصادفه في نهاية السلم عند البهو، ويبدو انعكاس صورتينا معا في المرآة وكأننا أربعة أشخاص. رحيمة هي تلك المرآة. تجعلني أصغر وأجمل من حقيقتي، وترفع من روحي المعنوية. ترتفع روحي المعنوية أكثر حينما ألقاه، وهذا أمر طبيعي، فهو شاب جميل ومتدين وصاحب عينين جذابتين.

كان الجو ذلك اليوم دافئاً بصورة غير عادية. خرجت بمي إلى "ريجنت بارك" عند العصر. في الطريق إلى البيت رأيت تامرا يقف أمام المسجد. تقدم نحونا وسلم علي ثم عبث بشعر مي. لثواني قليلة لم تتعرف عليه مي. كانت نعاسة في كرسيها المتحرك بعد أن تعبت من اللعب في صندوق الرمل والمزالق. قال وهو ينحني لها ويجلس على أعقابه: "إنني أنا - تامر." أخذ بيدها وقبلها. كنا ثلاثتنا قد قفلنا الطريق على المارة، وبدأ البعض يتذمرون. دفعت بمي بكرسيها المتحرك، وتبعنا تامر.

قال: أردت أن آخذ مي لحديقة الحيوانات يوم الأحد الماضي، لكن كان الجو ماطرا. كان يتحدث بصوت عال، ومع اقترابنا من شارع "سانت جون وود" أحسست بأنه غدا غير مرتاح من نظرة الناس من حوله. حاولت أن أنظر إليه بعيونهم. فهو شاب عربي ملتحي، طويل القامة وأسمر وله عيون سوداء... تماماً كإرهابي. سرعان ما "نزع سلاحي" بقوله لي: "طبخك ممتاز جدا. شكراً لطبخك لنا." لم يحدث أن شكرتني أخته أبدا، لكنها كانت تدفع لي جيداً وفي الموعد المحدد، وهذا أهم من مجرد كلمات شكر.

عوضاً عن رد مجاملته الرقيقة قلت له: "في الليل أرجو أن تضعوا باقي الطعام في الثلاجة. فمع جو المطبخ الحار عادة ما يفسد باقي الطعام إن تركتموه خارج الثلاجة، وفي هذا خسارة وإسراف."

بدا عليه الخجل وطأطأ رأسه وهو يقول: "نعم. إن رمي الطعام هكذا ذنب وخطيئة."

تصورت أني خاطبته بلغة قاسية، فقلت له (وكأني العمة أو الخالة العجوز) وأنا أحاول إصلاح ما أفسدته: "كيف تسير معك الدراسة بالجامعة؟"
أجاب: "لا أعرف حقيقة كثيراً من الطلاب هناك."
"حسنا. ما زلت جديداً. عما قريب سيكون لك عدد من الأصدقاء."
توقفنا عند خطوط عبور المشاة.
"لقد انضممت للجمعية الإسلامية. إنهم ينظمون صلاة الجمعة في الكلية حتى لا نضطر للذهاب بعيداً للصلاة، وتفويت المحاضرات."
"هذا جيد. ولكن ماذا عن المقررات نفسها؟ ما هي حال دراستك؟" لا أتحدث هكذا عادة مع مخدمي. لن أفعلها مع لمياء.
"لا أحب ما أدرس الآن بصورة خاصة. لكنه أبي- يود لي أن ادرس إدارة الأعمال."
توقفت عند خطوط عبور المشاة سيارة بيجو صفراء وسيارة للأجرة. عبرنا.
"ما الذي تحب دراسته فعلا؟"
"أريد أن أدرس التاريخ الإسلامي."
"عظيم. جميل أن لك تلك الرغبة." بدأنا في السير في شارع "سانت جونز وود".
"هذا ما يقولانه أبي وأمي- إنه اهتمام بهذا الموضوع. إنهما يقولان إن علي أن أكون عملياً وأن أدرس شيئاً يؤهلني لنيل وظيفة محترمة."
"أنا متأكدة من الله سيثيبك لمحاولتك إرضاء والديك."
ابتسم وكأني قد قلت له عبارة ثناء ورد قائلا: "إن شاء الله."

لا ترتجف يداي وأنا أرتب سريره، وأصلح من وضع وسادته، وأفرغ جيوب بنطاله الجينز قبل وضعه في غسالة الملابس. أجد في جيبه ايصالات من مقصف الجامعة، وبعض العلكة، وقطع نقود معدنية، وإعلان عن مسيرة في ميدان الطرف الأغر لنصرة فلسطين. أنظف وأرتب مكتبه، وأجمع نفايات أقلام الرصاص بعد أن يسنها، وأمسح قطعة حبر هنا أو هناك. أجد ورقة مطوية، فأفتحها فإذا هي جدول المحاضرات، مع أرقام قاعات الدرس. ربما نسيها الآن، وهو لا يحتاج إليها بعد أن حفظ مواعيد المحاضرات وأرقام القاعات التي تقدم فيها. كتب على ركن الورقة: "الدراسة كريهة". اضحك وكأني أسمعه وهو يردد العبارة في غيظ شديد. أقلب كتبه في المحاسبة والاقتصاد وإدارة الإعمال. قبل سنوات طويلة كنت طالبة في جامعة الخرطوم أعاني من تلك المواد. كنت طالبة في الجامعة لمجرد قتل وقت الفراغ حتى أتزوج وأنجب أطفالا. كنت أظن أن جميع في الجامعة كن

يدرسن لذات السبب ولتلك الغاية، لكنني تفاجأت عندما رأيتهن يأخذن الدراسة مأخذ الجد ويفلحن فيها، ويؤملن أن تكون لهن وظيفة ومهنة فيما بعد. فاجأت أنا نفسي بعدم زواجي.

الفصل الرابع عشر

يندر أن تأتي شاهيناز لغرفة معيشتي. أفضل أن أزورها أنا في بيتها، وأن أكون محاطة بأطفالها الأربعة، وبحماتها، وصور أبناء عمها وخالها موضوعة على رفوف مكتبتها. أفضل سماع أصوات عيالها وهم يتصايحون بأسماء الدلع المحببة إليهم. أفضل هذا على شقتي المقفرة. أشترت ماما تلك الشقة قبيل موتها، وباعت الشقة الكبيرة في "لانكستر جيت"، واشترت عوضاً عنها هذه الشقة الصغيرة المبنية في آخر طابق في منزل في "ميدا فيل". لم تعمر طويلاً بعد شراء هذه الشقة. لا تزال بعض أغراضها التي جلبتها من شقتها الكبيرة مخزنة في صناديق وحقائب، ولما تفرغ بعد. كم وددت أن احتفظ بجهاز التلفاز، لكن رخصته تعد من الكماليات التي لا قبل لي بها.

قالت لي شاهيناز: "أنت محظوظة كونك لا تملكين جهاز تلفاز- أنه لا ينقل غير الأخبار السيئة." لم يكن أطفالها ليوافقون على ذلك. لم يكن معها في تلك الزيارة غير طفلها الرضيع أحمد. كان مستيقظا ويحمل في يده لعبة صغيرة حمراء.

انحنيت على الأرض لأقبله وقلت له مداعبة: "حبيبي يا أحمد." ثم قبلته ثانية. بالطبع هو أصغر من أن يعي. رفعته من كرسيه ووضعته على حجري. كانت له رائحة حلوة.

تخلع شاهيناز طرحتها عن رأسها، وتستريح على كرسي الجلوس المريح وهي تخلل شعرها بأصابعها. يا لروعة شعرها. طويل وأسود، ليس له من شبيه سوى ما عند شخصية "بوكهانا" في فيلم ديزني الشهير الذي تحب مي مشاهدته. تريد شاهيناز أن تقصه، لكن زوجها يرفض ذلك، وأنا معه في ذلك!

قالت: "أخبرته أنني يجب أن أخرج. كان علي أن أخرج من المنزل. العيال كادوا يفقدوني عقلي."

"هل هم في إجازة اليوم؟". اسقط أحمد لعبته الحمراء فتناولتها وأعدتها له.

"إنه يوم تدريب للمدرسين. واليوم هطلت أمطار فلم يكن بمقدورهم الخروج للعب. لذا فبمجرد حضور سهيل من العمل طلبت منه أن نترك الأطفال في معية والدته، وأن نذهب لتناول الطعام معا في الخارج، ثم نذهب للمسجد لحضور تلك المحاضرة الدينية. وافق على الاقتراح، ولكنه طلب أن نأخذ أحمد، حتى لا يثقل على أمه. قلت له حسنا، سنفعل ذلك ونأخذ أحمد ونترك لها البقية. ذهب بعد ذلك لغرفتها ليودعها."

لم أملك إلا أن ابتسم للطريقة التي كانت تتحدث بها شاهيناز. كم هي جميلة وهي تحكي بطريقتها الممتعة تلك... كانت تنسى نفسها وهي تستطرد في الكلام. انحنيت لأقبل رأس أحمد وأنا أداري ابتسامتي وسط شعره.

واصلت حديثها بالقول: "بدأت ألبس ملابسي، ولكنه دخل علي من غرفتها مصرحاً بأننا لن نخرج اليوم. سألته عن السبب، فأجاب ببساطة بأن أمه لا تريدنا أن نخرج. هكذا ببساطة"

"ما هو السبب؟"

"لا أدري. تكره أن يأكل أحدنا في الخارج - تؤمن بأن الأكل في المطاعم مضيعة للمال، أو أنها لا تستطيع رعاية العيال اليوم، أو فقط لإغاظتي."

"شاهيناز... بالقطع لا تقصدين ذلك!"

"أنا منزعجة جدا."

"حماتك امرأة ظريفة."

"طبعا... هي كذلك حقا. لكنها صعبة المراس أحيانا."

لابد أن عيش سبعة أفراد في بيت ضيق له حمام واحد (ولحسن الحظ يوجد فيه أيضا مرحاض به حوض غسيل) أمر شديد الإزعاج والصعوبة. أفراد هذه الأسرة هم الأكثر طيبة وحسن خلق من بين كل من رأيت من مرتادي المسجد. لم يتطفل ويسألني أحد منهم عن حياتي الخاصة، ولم يتوقع أي واحد منهم أي اعترافات من جانبي عن ماضي مقابل الخدمات التي أدوها لي. لماذا اختارتني شاهيناز كصديقة لها، ولماذا وافق سهيل على اختيارها لي؟ كانت تلك "ضربة حظ" لي لا أود السؤال عن سببها. لم يكن لدينا كثير من القواسم المشتركة. لو سألتها عن ذلك فسترد بأن كلينا أرادت أن تكون مسلمة أفضل.

رجعنا لموضوع حماتها. قلت لها: "انظري. لقد تحدثنا عن هذا من قبل. لو عاشت حماتك في مكان آخر، فسيقضي سهيل وقتا طويلا بعيداً عنك يقضيه في زيارتها.

"وسأكون حينها مجبرة على البقاء مع العيال في البيت طوال الوقت!"

"بالضبط. سكنكم في مسكن واحد هو أفضل بكثير. سيمكنك ذلك، أنت وعيالك، من أن تروه أكثر. يجب أيضا أن تفكري في ما ستكسبينه من ثواب الله في الآخرة."

"معك حق. المسكين سهيل. صرخت فيه فقال لي: "لماذا لا تذهبين إلى نجوى؟ أعلم أن التعاليم الإسلامية توجب على المرء طاعة والديه، خاصة

أمه، وأن علي أن أساعده على ذلك - لكن في بعض الأحايين يصعب الأمر علي." تغير صوتها ورق. غدت الآن هي نفسها شاهيناز التي أعرفها.

أعلم بأن ذلك اليوم كان طويلاً بما يكفي، ولكن رغم ذلك اقترحت عليها أن نذهب إلى تلك المحاضرة الدينية في المسجد إن كانت ترغب. سألتها: "عن ماذا هي؟"

بدت متحمسة وقالت: "رجل أمريكي ترجم كتابا قديماً لأحد الفقهاء المشهورين."

أوقفت أحمد على حجري فرفسني وبدأ يقفز، وقلت لها: "تبدو محاضرة مملة... أم ماذا ترين؟"

"لا. بالعكس. الرجل آتي كل هذه المسافة من الولايات المتحدة... لابد أنه مجيد. هل أكلت بعد؟"

"نعم. أكلت أثناء العمل. لمياء أعطتني ما بقي من طعام اشترته يوم عطلة الأسبوع من محلات هاروود. سألتها إن كان حلالا، فنظرت إلي شذرا." وقلدت نظرتها تلك لشاهيناز فضحكت وقالت: "لعل تلك كانت جرأة زائدة عن الحد منك لتسأليها ذلك السؤال."

ضحكت وأنا أتذكر وجه لمياء في تلك اللحظة وقلت: "أعرف ذلك. ردت قائلة إن تامر هو من اشتري ذلك الطعام، وكأن ذلك يعني أنه حلال بالضرورة."

"سهيل معجب جداً به، ويقول لي إنه يتمني أن يغدو أولاده ملتزمين بالحركة الإسلامية مثل تامر."

داعبت خدود أحمد قائلة: "هل سمعت هذا يا أحمد؟" فابتسم وسال لعابه على قميصي.

"لماذا يقول سهيل ذلك؟ ماذا رأي في أحمد؟ ماذا يفعل تامر بالضبط؟ أريد أن اعرف جانبا آخر لتامر."

"ليس هناك الكثير ليقال. يلعبون كرة القدم معاً، وكل أسبوع يحضر تامر كمية كبيرة من العصير لكل أفراد الفريق."

ضحكت وقلت: "وتسمين هذا التزاماً بالحركة الإسلامية؟"

"حسناً. يقول سهيل إن تامر مهذب وشديد التأدب مع من هو أكبر منه سنا- ليس له تلك "العجرفة" التي يمتاز بها الأخوان من الشباب المسلم الذي يرتاد المسجد."

"هذا صحيح. فقط تصورت من قولك إن سهيل يقدره أن له دوراً نشطاً في الحركة."

"حسنا. تعلمين أنه من عائلة ثرية، وأنه قد نشأ منعما، ولا أظنه معتاد على العمل النشط."

كان بإمكاني أن أحدثها عن الحالة التي يترك عليها فرشه، وعن بيجاماته التي يخلعها ويرميها مكومة على الأرض، ولكن تلك من الأسرار.

الفصل الخامس عشر

قال لي تامر: "رأيتك في المحاضرة." كنت أدفع مي في أرجوحة ريجنت بارك عندما ظهر تامر فجأة حاملاً حقيبته على ظهره، وكأنه من الطبيعي أن يزور ريجنت بارك ليبحث عنا في طريق عودته للشقة.

رددت عليه قائلة: "نعم. كانت محاضرة جيدة. حضرها الكثيرون. لابد أن منظمي المحاضرة كانوا سعداء بكثرة الحضور."

قال وهو يرمي بحقيبته أرضا: "سأدفع أرجوحة مي." وحل محلي. كانت ملاعب المنتزه شبه خالية ذلك اليوم. تلبدت السماء بالغيوم وكنت انتظر سقوط أول قطرة مطر لنعود إلى البيت. كنت أرى - وبوضوح- قبة المسجد فوق رؤوس الأشجار، وضوء أنوارها يشع عبر الزجاج.

قال لي: "أعجبني الجزء الذي تحدث فيه عن علامات يوم القيامة، وكيف أن الناس من قديم كانوا يحسون بأن القيامة قد قربت لتوفر شروط وعلامات قيامها، ولكننا الآن هنا، وبعد مرور مئات السنين لازلنا هنا."

"ربما تعني كلمة "قربت" هذه سنوات طويلة". كانت محاضرة قيمة تستأهل الحضور والتدبر. أعجبت شاهيناز كذلك. هزتنا من الأعماق. قلت لتامر: "بعض هذه العلامات غريبة ومخيفة حقا."

"قال المحاضر إنها قد تعبر عن معانٍ رمزية."

"أنا أؤمن بها حرفيا."

أمسك تامر بالأرجوحة، فصاحت مي عندما قذف بها تامر بعيداً.

"قد تكون حرفية. لم لا؟ سيعود سيدنا عيسى فعلا لا رمزا لهذه الدنيا. حتى مكان عودته معروفٌ سلفاً".

قال: "سأكون سعيد جدا إن عشت لأدرك ذلك الحدث."

ابتسمت لحماسته وثقته في نفسه وسألته: "ماذا ستفعل؟"

"سأطير لدمشق لرؤيته."

"وتترك جامعتك؟". كنت أحاول إغاظته، ولكنه لم يلاحظ.

"بالطبع نعم. لن أفكر مرتين. وأنت... ألن تفعلين ذات الشيء؟"

ابتسمت ولم أقل شيئا. ليس من المناسب أن اذكر له أنني لا امتلك من المال حتى ثمن التذكرة إلى دمشق.

واصل قائلا في حماس وهو يهز بيده سيفا متخيلا: "سأكون من جنود المهدي، أحارب أعداء المسيح بن مريم."

"أود أن أكون هنالك عندما يصلي سيدنا عيسى مع المهدي، بيد أني لا أحب الحرب، ولا أريد أن أكون طرفا فيها. أخاف من الحروب حتى التي

تعرض في التلفاز." أرادت مي الخروج من الأرجوحة، فأخرجها تامر. أصابعه طويلة وأظافره مقلمة من أثر عضه لها.

جرتْ مي للزلاقة. لا تخاف من الصعود على سلالمها، وأن تدع نفسها تنزلق على الجانب الآخر. كانت حتى الأسبوع الماضي تخشى الاقتراب من تلك الزلاقة.

جلس تامر على جانب من الأرجوحة ووضع رجلاً فوق رجل وقال: "قرأت في كتاب أن أحد شيوخ السودان في القرن السادس عشر قال إنه سيأتي على الناس زمان يتكلمون فيه بالخيوط ويسافرون بالبيوت - أليس ذلك مذهلا؟"

"نعم إنها مذهلة." تجعلني طريقة كلامه ابتسم. أو لعلني ابتسم سعادة بهذه الصحبة الجديدة. قلت له: "لعل الشيخ رأي ذلك في المنام."

"نعم. هذا صحيح. لم أفكر في هذا من قبل. لا بد أنها رؤية رآها في المنام".

"هل زرت السودان من قبل؟"

"نعم. عندما كنا في عمان كنا نسافر للسودان صيف كل عام. أنت سودانية. أليس كذلك؟"

عادة ما أرتاب في مثل تلك الأسئلة التي قد تجر لما بعدها. لكني شعرت بأن سؤاله برئ فأجبته: "نعم. لكني بقيت في لندن منذ عشرين عاما أو تزيد. عندما أعدم بابا وقدمت إلى لندن مع ماما وعمر، كان تامر بالتأكيد في سنين طفولته الأولى. بدأت أتحدث بسرعة: "هل تعتقد أنك ستعود يوما وتعيش في السودان؟"

"نعم. قد أفعل ذلك. هنالك الكثير مما يمكن للمرء فعله- الخرطوم ظريفة.

هرولت مي نحو صندوق الرمل. ساعدتها في خلع حذائها، وبدأت في اللعب مع طفل آخر كانت مربيته السريلانكية تقف على حافة الصندوق وهي تحمل في يدها اليمنى ملعقة، وطبقاً بلاستيكياً به أرز في اليد اليسرى. كانت تطعمه بينما كان يلعب بالرمل وبيده مجرفة صغير. جلست بجنبها. بعد تامر من الأرجوحة وجلس قرب كنبة قريبة.

سألني: "هل تذهبين في إجازات للسودان."

"ليس لي أحد لأزوره في السودان الآن."

"هل عائلتك هنا؟"

هززت رأسي بالموافقة. كان ذلك صحيحا. عمر هنا. عمر هو عائلتي الآن.

سألته: "أخبرني. ما الذي كنت تفعله في عطلاتك بالخرطوم؟" لقد مر زمن طويل منذ أن غبت عن الخرطوم. اشتاق إليها.

"كنت مع أبناء أعمامي. نذهب لصيد السمك ونلعب كرة القدم. كنا نتغدى كل يوم عند شخص مختلف. ما أشهى الطعام هناك."

ضحكت وقلت له: "يمكنني أن أطهو لك طبقا سودانيا إن رغبت."

"فعلا؟"

"نعم. وأين ذهبت أيضا في الخرطوم؟"

"ذهبنا للسباحة في النادي الأمريكي."

"صحيح؟ كنت أذهب هناك كثيراً عندما كنت صغيرة. كنا مشتركين." لا أزال اذكر رائحة الشواء والهامبيرقر. ذكرت صديقتي رندا معي في الحمام وهي تضع ملمع الشفاه، وذكرت ذلك الديسكو وأنواره المتلألئة. يا لها من سنين بعيدة انقضت، وبقيت ذكراها. لكن مازال المكان موجودا، ليس فقط في حافظتي.

سألته: "أتشعر بأنك سوداني؟"

هز كتفيه وأجاب: "أمي مصرية. عشت في كل مكان عدا السودان. عشت في عمان والقاهرة وهنا. تعلمت تعليماً غربياً، وهذا يجعلني أشعر بأني غربي. لغتي الانجليزية أفضل من لغتي العربية. لذا اعتقد أني لا أشعر بأني "سوداني" رغم أني أتمنى أن أكون كذلك. الآن أفترض أن هويتي الوحيدة هي أني مسلم. وماذا عنك؟"

حرصت على الكلام هنا ببطء: "أحس بأني سودانية، بيد أن أحداثاً كثيرة وقعت لي بعد خروجي من الخرطوم. وحتى عندما عشت هنا في لندن، تغيرت كثيراً. والآن فإني مثلك تماماً. ليس لي هوية غير الإسلام.

ابتسم لقولي. سألته عن لمياء، وهل تعتبر نفسها سودانية؟

تغيرت ملامح وجهه، وغداً أكثر تحفظاً، وكأنه يشعر ببعض الحرج عندما يتحدث عن أخته، وقال: "أعتقد أنها تعد نفسها عربية. زوجها مثلنا، هو سوداني لكنه نشأ وترعرع في الخليج، ودرس بأمريكا."

لم أر زوج لمياء. لم يكن يأتي للندن كثيراً مثلما زعمت دكتورة زينب.

بدأت المربية السريلانكية في تجميع أغراضها استعداداً لمغادرة المنتزه، فودعناهم بالتلويح. تسآلت في نفسي إن كان لتامر وللمياء مربية آسيوية عندما نشأا في الخليج. بدا ذلك أمراً محتملا.

سألته: "أيّ الأطعمة السودانية تفضل؟"

"سلطة الفول السوداني."

"هذه سهلة التحضير بزبدة الفول السوداني. سأصنعها لك. وماذا تفضل أيضا؟"

قبل أن يجبني صرخت مي، فقد كانت أمام لعبة لم تستطع تحريكها، وأثار ذلك غيظها فصرخت. قمت وجلست بقربها واستأنفت اللعب، وتامر يراقبنا. للحظات لم أدر من أنا. نجوى التي كانت ترقص في ديسكو النادي الأمريكي بالخرطوم، أم الخادمة التي عينتها لمياء ذات عصر في مسجد ريجنت بارك. أتحرك بحذر إلى الأعلى والأسفل في تلك اللعبة حتى لا تقع مي وتصاب بفزع، ولكني لا أتحرك ببطء شديد حتى لا تصاب مي بالملل.

بدأ المطر في الهطول. في البدء نقاط ماء كبيرة بدت سوداء على البلاط الأحمر تحت لعبتنا. حلق تامر ببصره في السماء ينظر للماء المتساقط. بدا أكثر ارتخاءً وانطلاقاً من اليوم الذي تصادفنا فيه في الطريق. قد لا يعلم أنه من الأفضل والأكثر أمانا لنا أن يلتقينا في ملاعب ريجنت بارك... سيكون آمنا وسط الأطفال. في لندن كثير من الأماكن يفتقد فيها الأمان. مجرد وجودنا يقلق من حولنا ويجعلهم يشعرون بالخوف والقلق. ربما كانت جامعته أحد تلك الأماكن، لذا فهو يحس بالوحدة هناك.

كان ذلك المطر من النوع الذي لا يحتاج معه المرء إلى مظلة. رغم ذلك فضلت إرجاع مي للبيت. نصبت الغطاء البلاستيكي الواقي من المطر فوق كرسي مي المتحرك، وغادر ثلاثتنا ريجنت بارك متجهين إلى ملاعب "لوردز". كان تامر يدفع بكرسي مي وأنا أفكر في أننا نبدو كزوجين... زوجين ومعهما طفلهما. أهكذا نبدو للناس من حولنا؟ أم سيظن الناس أنني والدته؟ بالتأكيد لا أبدو كبيرة إلى هذا الحد.

الفصل السادس عشر

استخدم تامر مفتاحه لفتح باب الشقة. أخرجت مي من كرسيها المتحرك، وانحنيت لخلع معطفها. كان الممر مضاءاً- يبدو أن لمياء كانت قد وصلت للشقة. خرجت من غرفتها. أعلم أنها تكون عالية الروح المعنوية عند رجوعها من الجامعة. لكن هذه المرة كانت عيناها شعلتان من الغضب، وبدت متقطعة الأنفاس وهي تخاطبني: "أين عقد اللؤلؤ؟ تركته هذا الصباح مع بقية مجوهراتي؟ أين هو؟"

انتصبت واقفة. هي لا تسأل، بل تتهم. "لا أدري." كانت نبرات صوتي عادية، لأن الأشياء اسودتْ فجأة في ناظري، إذ أنني يمكن أن افقد هذه الوظيفة في لحظات. هكذا ببساطة. "لم آخذه". لم تكن جملتي تلك مقنعة بما فيه الكفاية حتى لأذني.

ردت بصوت صرم وهي في أقصى حالة من العصبية: "هل اتهمتك بأخذه؟ لماذا تقولين إنك لم تأخذيه؟"

هذا سؤال خادع وسأرسب فيه بلا شك. أقف بلا حراك ويداي في جيوبي. تحاول مي خلع حذائها، وانحني لأساعدها. تجري وتحتضن أمها، ولما لم تجد استجابة ترضيها، تتجه بلا هدف نحو غرفة الجلوس. كان تامر واقفا بجانبي. قال لأخته بصوت هادئ ولكنه عال وكأنه يحاول مجاراتها: "لمياء. هل بحثت عنه جيداً؟ هل أنت متأكدة من أنك بحثت عنه جيداً؟" تكلم بنبرة هادئة وكأن ذلك كان أمراً عادياً يحدث كل يوم. خلع معطفه، وانحنى ليخلع حذائه الرياضي.

"نعم بالطبع. بحثت عنها. لم تكن راضية بوجوده وتعد تدخله أمراً مزعجا وغير مرغوب فيه. والتفتت نحوي وقالت: "حسنا. تكلمي. أين عقدي؟"

قال لها تامر وكأنه يعاتبها: "لمياء. سنبحث عنه مرة أخرى. أنا متأكد من أنك وضعتِه في مكان ما ونسيته." عبست في وجهي ويداها معقودتان كانت ترتدي البنطال البني الفاتح اللون الذي كويته لها بالأمس، وبلوزة وسترة بلون برتقالي فاتح. كان يبدو عليها التحفز لتفتيشي تفتيشاً شخصياً بحثاً عن عقدها الضائع. ربما كانت ستفعل ذلك لو لم يكن تامر موجوداً. كانت ستقلب في جيوبي، وتصفعني إن قاومت، وقد تأمرني بخلع حمالة صدري... بدأت في الصلاة في سري، وتداعت الكلمات في رأسي. دعوت الله مخلصة أن يخرجني من تلك الورطة، وأن يوقف ما يحدث أمامي. أعلم يا الله أنك تعاقبني لأنني جربتُ هذا العقد هذا الصباح أمام المرآة. وضعته حول عنقي، ولن أفعلها ثانية... أبدا. لن أجرب وشاحاتها مرة أخرى، ولن أزن نفسي في ميزان حمامها. لكني لم آخذ ذلك العقد. لم أحدث نفسي ولا

أحلم بأخذ أي شيء من حاجياتها. كل ما فعلته هو أني جربت عقدها ووضعته في مكانه على الفور. أنا متأكدة من أني وضعته في مكانه لأني سمعت مي تناديني، فوضعت العقد في مكانه.

قال لي تامر: "نجوى. يجب أن نبحث عن العقد. أنا متأكد من أننا سنجده." نظر إلى قدمي، فنظرت فيهما وتذكرت أني لم أخلع حذائي، وإنه يجب على أن أخلع الحذاء وأدخل لغرفة النوم للبحث عن العقد. خرجت مي من غرفة الجلوس وهي تحمل العقد في يدها. ضحك تامر وهو يقول: "هذا هو عقدك يا لمياء." نظرت إلى ابنتها وصفعتها بقوة. تراجعت الطفلة المسكينة، وطار العقد من يدها. انحنى تامر وأخذ الطفلة في حضنه. كانت تصرخ من هول الصدمة، ومن الألم أيضا. انقلب وجها إلى ما يشبه اللون البنفسجي، وتساقط اللعاب من فمها المفتوح على آخره. عاتب تامر أخته قائلا: "هذه قسوة يا لمياء. لم فعلتي ذلك؟"

لم أعد احتمل ما رأيته أمامي ففتحت باب الشقة ونزلت على الدرج جريا.

كان المطر يهطل بغزارة، والسيارات تسير ومصابيحها الكبيرة مضاءة. وقفت أمام أحد أركان البناية انتظاراً لتوقف المطر. أردت أن ابتعد بنفسي عن مسرح تلك الأحداث غير المتوقعة. أردت نسيان تلك الدقائق العصيبة. قضيت وقتاً طيباً في المتنزه، ثم يحدث هذا؟! ماذا لو لم تظهر مي بالعقد في يدها؟ لابد أنني نسيته على طاولة التسريحة ولم أعلقه على الشجرة التي تستخدمها لمياء لتعليق عقودها. لابد أن مي أخذته وذهبت به إلى غرفة الجلوس، ربما خبأته وسط أحد لعبها. كانت تلك إحدى المعجزات التي تدير الرأس. لي تجربة مع السرقة. قبل سنوات سرق مني عمر عقدي الذي يشبه عقد لمياء. كان عمر يطلب من أمه مزيداً من النقود، ويصرخ في وجهها ويهز كتفها. بلغ به الحد أن يهز كتفها ليرعبها لتعطيه مزيداً من النقود. ماذا لو لم تظهر مي بالعقد؟ انقبضت عضلات بطني من فرط التأثر بما قد يحصل حينها. كنت سأفقد وظيفتي بسهولة. اتكلي على الله. هذا ما كنت أقوله دوما لنفسي. سيحفظك الله ويرعاك في هذه الوظيفة أو غيرها. لماذا تشعرين بالارتباط مع هذه العائلة بالذات؟ سمعتهم يتحدثون بصورة عامة مبهمة في المسجد عن نية لانشاء منسج. سيكون ذلك مكاناً أكثر مناسبة لي، ويعطيني دخلاً ثابتا. بدأت في السير نحو موقف البص، ووصلت لنقطة عبور المشاة... سمعت صوت خطوات خلفي... شخص يجري خلفي. كان تامر يصيح يناديني باسمي. توقفت والتفت نحوه. قال لي: "ستأتين غدا؟

أليس كذلك؟ لم تغضبي؟" كان يتحدث وهو متقطع الأنفاس ولم يكن يرتدي معطفه.

"لا لم أغضب." تحركنا إلى جانب من الرصيف. نظرت تحتي ورأيت درباً للمشاة وقناة للمياه تحت الشارع تمتد شمالاً حتى حديقة الحيوان، وجنوباً حتى تقترب من "إيدجور روود".

قال: "ممتاز. لقد كنت... لقد كنا قلقين بعد أن خرجت هكذا."

"أنا آسفة. كان ينبغي أن أطلب الإذن أولا." خف المطر قليلا، ولكن ظل المشاة يمسكون بمظلات المطر فوق رؤوسهم، وظلت السيارات تشغل مساحات المطر فيها.

"انظري. لقد أخطأت لمياء. ما كان ينبغي أن..."

حاولت مقاطعته، فأنا لا أريده أن يعتذر عن ما فعلته أخته، لكنه واصل الحديث قائلا: "لا أوافق لمياء على كثير من تصرفاتها. فهي لا تصلي إلا لاماما، ولا تتحجب. كل هذا خطأ عظيم. لها أصدقاء سيئون تروح وتغدو معهم، وترتاد معهم الأفلام السيئة. إنهم يشربون الخمر ويدخنون. كلها أفعال مقززة. أنصحها ولكنها لا ترعوي. ينبغي على زوجها أن ينصحها، لكنه مثلها تماما. الأمر كله يتعلق بعزة نفسها. سلوكها اليوم معك كان سلوكاً مشيناً... لم يكن لها الحق..."

نجحت في مقاطعته هذه المرة وأنا أحاول الابتسام وقلت له: "لا عليك. لقد كان أمراً مؤسفاً ولقد حدث وانتهي، ويجب علينا نسيانه."

"حسناً" وكان شعره مبتلا من المطر وبدا مرهقاً وأنا بدوت أسوأ حالا.

قال لي وعيناه على الرصيف: "جميل. أنا سعيد لأنك لست غضبانة وستعودين غداً للعمل كالعادة."

"سأصنع لك غداً سلطة الفول السوداني كما وعدتك."

بدا سعيداً ومبتسما كالعهد به وقال: "شكراً لك."

"يجب علي أنا أن أشكرك ل..." وتبخر صوتي. كنت سأقول له: للوقوف دفاعاً عني... للوقوف بجانبي.

"أعرف أنك لن تأخذين شيئاً أبداً." كان واثقا. كان مثل مي... يثق بي ثقة لا حدود لها... ثقة طفولية. وكأني بحاجة لمن يذكرني بأنه صغير السن جدا.

قلت له: "أنت لا تعرفني معرفة جيدة. هنالك الكثير مما لا تعرفه عني."

نظر في عيني مباشرة نظرة ليس فيها فضول أو عدم اهتمام، وكأنه يقول: "إن أخبرتني أو لم تخبريني فلن أغير نظرتي نحوك."

كان اليوم التالي مختلفا. عندما ضغطت على جرس الباب فتح لي الباب تامر وليس لمياء كما هي العادة. كان يرتدي بيجاما نومه وكأنه قد استيقظ

لتوه. قال لي وهو يكح منظفاَ حلقه: "أصبت بنزلة برد. لم أذهب للجامعة. ذهبت لمياء مبكرة للجامعة اليوم." كانت مي ما زالت نائمة. عاد إلى غرفته، واتجهت أنا للمطبخ كالعادة. حاولت تقليل صوت ارتطام الأواني المزعج حتى لا أقلق راحته. كنت السبب في مرضه- لقد جرى خلفي تحت المطر دون معطف.

شعرت بالراحة لأن لمياء ليست موجودة في الشقة هذا الصباح، ولن أضطر لرؤيتها بعد حادثة الأمس. تعجبت من أنها - حتى بعد ثبوت براءتي- لا تعدني مساوية لها. كنت أحاول أن أتقرب منها، وأتمنى أن أتحدث معها كما أفعل مع أخيها. الآن أعلم أنها لن تفعل ذلك أبدا. لن ترى أبداً سوى حجابي، واعتمادي على ما تعطيني إياه من راتب، ولون جلدي (الذي هو أكثر سمرة منها بقليل). سترى هذه الأشياء، وهذه الأشياء وحدها. لن ترى أبعد منها. رغم ما قاله تامر عنها فإني أغبطها وأعجب بها لسعيها لتحضير درجة الدكتوراه، وعلى اجتهادها فيها، وعلى أناقتها وحسن مظهرها وجمال ذوقها في الملابس.

عندما استيقظت مي، غيرت لها ما كانت تلبسه، وقدمت لها إفطارها. بدأت في طهي الطعام عندما كانت مي مشغولة بمتابعة برامج الأطفال في التلفاز. حضرت شوربة عدس وسلطة الفول السوداني التي طلبها تامر. استيقظ عند الظهيرة وقال بأنه جائع. جهزت له طاولة المطبخ، وسخنت الخبز العربي. شرب شوربة العدس مع الخبز بينما كنت أقوم بكي الملابس. كان يعطس ويتمخط عاليا. قال ساخراً: "ربما أكون قد أصبت بأنفلونزا الطيور". كان يومي مختلفا.

بدأ يتحدث عن أيام دراسته للثانوي في عمان. "كانت مدرسة عالمية تتبع النظام الأمريكي". يترك للطلاب حرية اختيار المواد التي يرغبون في دراستها. لم يكونوا ملزمين بزي موحد. "كان مدرسي تلك المدرسة لطفاء حقا. ألطف من مدرسي هذه الجامعة." كان يأكل بشهية عظيمة، ويقطع قطعة كبيرة من الخبز مع كمية كبيرة من سلطة الفول السوداني المخلوط بالبصل والفلفل الأخضر. تعجبت من شهيته الكبيرة حتى وهو مريض.

قال لي: "مدرستي في مادة التاريخ تأسفت لأني لن أدرس في الجامعة تاريخ الشرق الأوسط أو الدراسات الإسلامية. كانت تدرك مقدار حبي لهذه المواد. لكن سياسة المدرسة كانت هي احترام رغبات العائلة وليس الطالب. وفي حالتي كان هذا يعني دراسة "إدارة الأعمال." بعد أن انتهي من الأكل وقف يبحث في الدولاب عن حبوب فيتامين ج الفوارة. وجدها

فغمسها في كوب ماء. واصل حديثه قائلا: "هنا لا تجد غير المشاعر المعادية للأمريكان. يزعجني ذلك. مدرسي الأمريكيين كانوا لطفاء حقا."

طويت فستان نوم لمياء، وبدأت أكوي تنورتها البنفسجية. "عليك بالثقة في حدسك وغريزتك وفراستك عندما يتحدث إليك الناس. كثيراً ما يقول الناس ما لا يقصدونه حقا."

قال: "ما يغيظني حقاً هو أنه إن لم تكن مهتماً بالسياسة، لن يعدك الناس مسلماً قويا." ازدرد باقي شرابه وسألني: "هل أنت مهتمة بالسياسة؟" هززت رأسي بالنفي وأخبرته عن سبب خوفي من السياسة، ومن الانقلابات والثورات. بدأت الحديث عن والدي... عن أشياء لم اذكرها لأحد قط. للعجب خرجت من فمي هذه "الأشياء" طازجة ومرتبة ومحسوبة- ربما لأنها حدثت منذ سنوات طويلة.

قال لي على سبيل الإعجاب وليس الشفقة: "إنك تعرفين الكثير."

أتى علي زمن كنت أتوق فيه للشفقة. كنت أحتاجها ولم أجدها أبدا. مرت عليّ ليالي لم أكن أتمنى فيها غير أن أجد من يربت على شعري ويرثى لحالي.

أنظر إليه الآن وقد امتلأ أنفه بما تحدثه الأنفلونزا، وأعتقد أنه سيرثى لحالي، يوماً ما، في الوقت المناسب، والمكان المناسب. سيقدم لي العزاء والشفقة التي لطالما افتقدتها. ولأني أسيرة هذه الفكرة، فإني أقول كما قال أحد حكماء المسلمين الأوائل ولعله الخليفة عمر، ولست متأكدة، من أن الروم (الأوربيين) أفضل منا في الصبر على الهزيمة. فعندما ينهزمون، سرعان ما ينهضوا وينفضوا غبار الهزيمة، ويرتبوا صفوفهم مرة أخرى ليحاربوا مرة ثانية. أحاول نسيان الماضي، وأن أنظر للمستقبل، ولكني لست مثل الأوربيين في الصبر والثبات. نبتسم لبعضنا البعض، وأكمل الكوي، ولكن المكواة لازالت حارة ولا يمكن إرجاعها. طويت طاولة المكواة وأرجعتها إلى مكانها.

قال تامر: "يجب أن اذهب لأصلي، فإني لم أصلي بعد." غادر المطبخ وهو يتمخط بصوت عال. غسلت الأطباق ومضيت أفكر في ما قاله لي: "إنك تعرفين الكثير." لو قالها لي غيره لعارضته بالقول: "لا. بالعكس. أنا لست متعلمة ولا مثقفة. أنظر إلي حالي وأنا أمتهن مهنة الخادم التي لا مستقبل لها." قبلت منه تلك المجاملة، ربما لأنه أصغر مني سنا.

حدث قبل سنوات أن حاولت شاهيناز - دون أن تصيب نجاحا- أن تعرفني بأحد أعمامها. رجل مطلق في بداية الخمسينات من العمر يبحث له عن زوجة. تذكرت مقدار الضيق الذي أصابني وهو يحقق معي بأسئلة كثيرة

وعميقة، ويبحلق في ويختبرني ليحدد "صنفي". لو قال لي عم شاهيناز في النهاية "إنك تعرفين الكثير." لشككت في أمره، ولحملته على محمل السخرية والهزء. سعدت عندما صرف النظر عن الاقتران بي وتزوج من أخرى.

طوال النهار أزعج تامر مي باحتكاره للتلفاز وحرمانه لها من مشاهدة برامج الكرتون التي تحبها. أدخل جهاز البلاي استيشن في التلفاز وجلس على الأرض يلعب لعباته المفضلة. أخذتها للمنتزه لما اعتادت عليه، ولإطعام البط. قرصها أحد الأولاد في صندوق الرمل فبكت وصاحت. أبعدتها عنه بقدر الإمكان، ومسحت وجهها، وطيبت خاطرها بصندوق من البطاطس المقرمشة. طفنا حول البحيرة ونادت الأوز العائم فيها، والكلاب التي تقوم بجولات مشيها المعتادة. فرحت وسعدت بكوننا سنجد تامر بالشقة عندما نعود إليها. في طريق العودة اشتريت له من مخبز في الشارع قطعة كيك جبن.

شربنا الشاي سوياً، وشاهدنا مع مي برنامج أطفال تحبه. كانت الغرفة في أبهى حالاتها بنوافذها الطويلة التي يمر عبرها ضوء خافت. التهم تامر كيكة الجبن دون أن يشارك فيها أحدا، ودون أن يسأل إن كنت اشتريتها من مصروف المنزل الذي تتركه معي ليماء، أم من حر مالي. يعجبني فيه عدم التزامه بالرسميات. يجعلني ذلك في غاية الارتخاء والراحة النفسية.

قال: "عندما كنت بالمدرسة، كنت أكره أن أتغيب ولو ليوم واحد بسبب المرض. كنت أكره أن أكون مريضاً. والآن لا اهتم."

أذكره بأن من الخطأ أن لا يهتم بدراسته، فوالده يدفع مالا كثيرا من اجل تعليمه في لندن. يتحاشى نظراتي ويركز في فيلم الكرتون. بعد أن شرب الشاي قال لي بأنه استمتع بقضاء ذلك اليوم في البيت.

استمتعت بكل لحظة قبل أن أسمع مفتاح لمياء يدخل في باب الشقة، لأقف في استقبالها. لا يجب أن تكون الخادمة جالسة على الأريكة الوثيرة تحتسي الشاي. يجب عليها أن تجلس على الأرض، أو تفعل شيئا ما في المطبخ. لا يجب على الخادم أن تتبسط بالحديث والأنس مع شقيق مخدمتها. لكم أتمنى أن لو كنت اصغر سنا... فقط بعدد قليل من الأعوام.

الجزء الثالثلندن، 1998- 1990

الفصل السابع عشر

فعلنا أشياء لم نكن لنفعلها لو كنا في الخرطوم. بعد وفاة ماما بثلاثة أسابيع تناولت طعام الغداء مع خالي صالح في مطعم "بيت الاسبقاتي" في شارع بوند. لو كنا في الخرطوم لكان المعزيين ما زالوا يتقاطرون على دارنا، ولأغلقنا جهاز التلفاز للتدليل على الحزن واحترام من رحل عنا. مضى خال صالح يمص حساء الطماطم، بينما كنت أغرس شوكتي في الأفوكادو المدهن. زاد وزني منذ أن جئت من الخرطوم. ضاقت علي أغلب ملابسي.

إبتسم خالي صالح من الجهة المقابلة لي في طاولة المطعم. لقد غدوت مسئوليته الآن. يشعرني ذلك بالأسف.

"هل غيرت رأيك في الهجرة معي لكندا؟"

هززت رأسي بالنفي.

"إذن ماذا ستفعلين؟"

أحسّ بشعور غريب أن أكون حرة بعد أن قضيت كل وقتي في الأسابيع الفائتة مع أمي خلال فترة مرضها. لم أكن أرغب في مفارقتها ولو لساعة واحدة. كنت في حالة بائسة من الاهتزاز وعدم الثبات، وكأني لم أكن معتادة على أن أكون خارج البيت ومع الناس. قلت لخالي: "ربما يجب أن أذهب للخرطوم لبعض الأسابيع."

وضع ملعقته جانبا، ورد علي بالقول: "لا يزال الوقت غير مناسب لك لترجعي للخرطوم. وأيضا قد يسألك الناس هنالك عن عمر. بماذا ستجيبين؟"

فازت حجته بالطبع. هذا ما كانت تريده ماما. أن لا يعلم أحد من الأهل والأصدقاء في السودان بما حاق بعمر. أكملت طبق الأفاكدو، ولعقت ما بقي منه في ملعقتي. قلت له: "كيف لي أن أترك السودان وأذهب إلى كندا؟"

"هذه تسمى هجرة. لقد مللت من عدم الاستقرار والكفاءة." بدا حانقا وحاقدا. ما حدث لأبي جعله يحس بعدم الأمان، وجاء موت أمي ليزيد من قلقه على صحته.

"وماذا عن سمير؟". كان سؤالي بريئا، ولكن ظهر علي خالي الاستعداد للدفاع وقال: "سمير قال لي أنه سيلحق بي فور تخرجه من كارديف. أنا شخصيا كنت أود لو أنه حول دراسته لجامعة كندية. قد يكون من الأفضل له الحصول على درجة جامعية كندية إن أراد العمل في كندا."

كلانا كان يعلم لماذا يود سمير البقاء في كاردف. لسمير في كاردف صديقة إنجليزية يحبها. كانت ماما وخالي يؤملان في أن يتزوجني سمير، بيد أن كل ذلك قد ذهب مع الريح الآن. كنت أود الزواج... ليس بالضرورة من

سمير (رغم أني كنت سوف أقبل إن طلب يدي)... كنت أريد أن أرزق بأطفال، وأن يكون لي بيت أعتني به. كانت ماما تكرر لي دوما الشكوى من أنني لم أكمل تعليمي. لكنني كنت واثقة من أنها كانت في خويصة نفسها سعيدة بوجودي بقربها وعلى مدار اليوم، وأن آخذها لمقابلة الأطباء، وأن أبقى معها في إنتظار نتائج الفحوصات. كان خالي يصفني بأني "ممرضتها"، لكن الحقيقة هي أن الممرضات هن اللواتي كن يقمن بكل شيء، خاصة عندما قربت النهاية المحتومة. كل ما كنت أفعله هو الجلوس ومشاهدة التلفاز. كانت الغرفة بمستشفى "هيومانا ويلنتقتون" أشبه بغرف الفنادق الفخمة. بها حمام بديع، وقائمة طعام لكل وجبة في اليوم.

أخد النادل أطباقنا الفارغة. قال خالي: "كنت أفكر في الأمر كان سيكون سهلا لو أنك وعمر كنتما في عمر أصغر، أو ما زلتما تدرسان..." سكت. لم أفهم تماما ما قصده الخال. ضيقت عيني لأركز في ما قاله. "نعم. أنتما الآن شبه بالغين، لكن...

قلت وأنا آخذ رشفة من مشروب الكاكاولا أمامي: "نحن الآن 24."

"هي مرحلة حرجة... خاصة فيما يتعلق بالوظائف وما إليه."

"لماذا تفكر في أننا لو كنا أكبر... في الثلاثينات من العمر مثلا، فسيكون الأمر أكثر سهولة."

تراجع قليلا وهو يقول: "نعم. أظن هذا أيضا. في الحقيقة لا فائدة من التفكير في مثل هذه الأمور."

أحضر النادل طبق كانيلوني (مانكوتي) لي، وطبق دجاج بالثوم لخالي. زاد من نشاطنا منظر الطعام ببوخه المتصاعد، وبالصلصة البيضاء التي تسيل من فوقه بفقاعات صغيرة.

التقط خالي صالح الشوكة والسكين وقال: "ينبغي أن تعلمي أن البقاء في لندن هو الخيار الأكثر كلفة."

رددت وفمي ملئ بالطعام وأنا أبتلع: "ماذا تقصد؟"

"الحياة هنا ليست رخيصة- ليس كما تعودتها. ما تركه الوالد والوالدة ليس كافيا."

"كيف ذلك؟"

"هذه هي الحقيقة. سوء حظ... ليس إلا. لقد جمدت هذه الحكومة الجديدة كل ممتلكات وأصول والدك."

"فهمت الآن." شعرت ببطني تضغط علي حزام تنورتي... إضطررت لفتح أحد أزرارها، وأخذتُ نفسا عميقا، أحسست بعده بأن السَّحاب قد انفتح قليلا. أحتاج لشراء ملابس جديدة أو أن أقلل من وزني بعمل حمية ما. ولكن

حتى إن أنقصت وزني، فملابسي غدت موضتها قديمة. قلت مبتسمة: "يمكنني أن أجد وظيفة."

"مثل ما؟ أنت غير مؤهلة يا نجوى. هل تريدين أن تدرسي لتنالي تأهيلا ما."

"لا."

"قد تكون فكرة ممتازة. ستقابلين الناس، وتصادقينهم."

أحسست في كلامه وكأنه يريد أن يخبرني بأنه لا فائدة في، وأنني مجرد جثة ضخمة. طفر من عيني الدمع، فمسحته بمنديل المائدة. لم يلاحظ خالي. قال: "لديك صديقة تدرس في اسكتلندا؟ أليس كذلك؟"

قلت بصوت عادي: "رندا. نعم. هي تدرس الطب في أدنبرا."

"لماذا لا تذهبين وتدرسين معها؟"

"أوه يا خال. لم أحصل على المستوي المتقدم. ألا تذكر؟ ذهبت لكلية أتلانتك، وعدت منها بعد أسبوعين."

قال ضاحكا: "نعم. أذكر. رفضتِ أن تحلبي البقرة."

ابتسمتُ وأنا اذكر رندا وسمير وعمر- كيف أحسوا بالخجل مما فعلت (أو مما لم أفعل). "من تظنين نفسك؟" أنت شديدة الغرور والصلف! هذا جزء من المقرر- يجب أن نكمل هذا الجزء من خدمة المجتمع. لكني لم أحلب أي بقرة سودانية، فلم يجب على أن أحلب بقرة بريطانية؟

سألتُ خالي صالح: "هل سبق أن حلبت أي بقرة؟"

"لا. لا أستطيع أن أقول أني قد فعلت ذلك؟ كنا مدللين في الخرطوم. كل شيء كان يصنع لنا." أضاف ضاحكا: لم أقرب من أي حيوانات من قبل، ربما غير السمك الذي اصطاده."

ضحكت معه، وقلت: "وفي حديقة الحيوانات."

"كان يجب أن تواصلي دراستك رغم ذلك يا نجوى. ببقر أو بدونه."

"ربما لم أكن لأوفق في الحصول على شهادة البكالوريا العالمية على كل حال." فشل فيها من قبل عمر، ولعله كان السوداني الوحيد الذي فشل في الحصول عليها، ولم ينجح أبدا في نسيان فشله فيها، ونجاح رندا وسمير في الحصول عليها ودخول الجامعة. لم يتمكن هو في دخولها."

أشار خالي صالح بشوكته في وجهي وقال: "لقد بالغت والدتك في تدليله".

وافقته على ذلك. حضرت ماما بالقطار لأخذي. إدعت أنها غاضبة، ولكنها كانت في الحقيقة سعيدة بأني كنت معها... بقربها عندما أخبرها الدكتور بأن نتائج الفحوصات كانت ايجابية.

قال لي خالي صالح: "القرار الصحيح هو أن تأتي معي لكندا".
"لا يمكنني فعل ذلك. يجب أن أبقي بالقرب من عمر. وأيضا أنا أعرف الناس هنا. وعدني عم نبيل بأن يعطيني بعض التدريب في وكالة سفره." كانت إيفا زوجة عم نبيل صديقة مقربة لوالدتي. لم تنسحب من حياتنا أو تتخلى عنا كما فعل الكثيرون بعد ما حدث.
ابتسم خالي صالح وقال: "هذه بداية طيبة. ستعيشين مرتاحة إن عشت على أرباح رصيدك في البنك. لا تقربي رأس مالك."
هززتُ رأسي بالموافقة.
غدا صوته أكثر غلظة وهو ينصحني (وهو يمج مثل هذه النصائح الأبوية) قائلاً: "يجب أن تتصلي بي إن احتجت إلى شيء... أو قابلتك أي مشكلة. سأزور لندن بين كل فترة وأخرى. يجب أيضا أن تزورينا في تورنتو." لخالي أولاداً من صلبه، وعليه الاهتمام بهم. لن يصر على ذهابي معهم لتورنتو. كان صبره قد نفذ بعد أن قضى شهورا يرعى أمي المريضة، ويتابع محاكمة عمر.
أكلت اللقمة الأخيرة من طبق الكانيلوني، وأكمل خالي طبق الدجاج بعد أن أزاح منه جانبا الفطر وقال: "لدي بعض الأخبار السيئة."
"ما هي هذه الأخبار؟". لابد إنها عن عمر أو عن وضعنا المادي الذي "ليس كما كنا نعتقد."
خفض صوته قليلا وقال: "خسرنا الاستئناف. سيكون عليه قضاء كامل مدة محكوميته."
لم أحر ما أقول. كل شيء عن عمر - ذكر ما اقترفه، وذكرى صوته- تجعلني أصاب بالشلل التام. كلمة "مخدرات" عندما ينطقها أي شخص، وفي أي بقعة، تجعل أعضاء جسمي تتقلص في امتعاض. حتى عندما أقرأ كلمة مثل "محل أدوية".
إستمر في الحديث: "سيقضي خمسة عشر عاما".
بدت مدة تلك المحكومية وكأنها دهر كامل. سيكون رجلا كبيرا في الأربعين من عمره بعد انقضاء المدة. كيف يسمح لهم بأن يفعلوا ذلك به؟ كان جزء من دماغي يفكر في أن ذلك الحكم كان خطأ عظيما... كابوسا رهيبا. عمر غير مذنب... لا يمكن أن يكون عمر...
"سيكون له الحق في أن يطلق سراحه بعد قضاء نصف المدة. ولكن يا نجوى أصدقك القول... أشعر بأنك بدون وجود عمر معك أكثر أمانا في لندن من وجوده معك."
اقشعر جسدي كله. سماع تلك العبارة من خالي صالح لم يكن أمرا مريحا. لم يعد عمر هو عمر الذي كنت أعرفه. لم يعد عمر الذي يهز كتف

ماما، ويطالبها بالنقود ويصرخ في وجهها: "إنها نقودي."

دفع خالي صالح فاتورة المطعم، وتركني لأكمل طبق تحليتي من فطيرة الشيوكلاتا. كان عليه اللحاق بموعد له مع مدير المصرف الذي يتعامل معه، في ميدان بيكاديلي. كلفته الجرة لكندا مبلغا طائلا. شعرت بسخف موقفي وأنا أجلس وحدي في مطعم... واعية بذاتي. ليس من العادة في الخرطوم أن تجلس امرأة لوحدها في مطعم. "أنا في لندن، ويمكنني أن أفعل ما يحلو لي. لن يراني أحد هنا". يا للروعة. يمكنني أن أطلب كأسا من الخمر إن أردت. لن يثير ذلك عجب أحد. كان الفضول يدفعني لتجريب ذلك، بيد أنني لم أجد القدرة والرغبة الكافية لفعل ذلك.

خرجت من المطعم. كان يساورني ذات الشعور الغامض، وكأني لست معتادة على أن أكون خارج البيت. لثوان ساورني شعور بالارتباك. كنت على وشك أن اتجه للمستشفى. كان صوت حركة المرور عالي الصخب، والروائح المنبعثة من المخبز الفرنسي القريب تثير شهية الأكل. كان الناس من حولي يسرعون الخطى في طريقهم لأماكن يعرفونها. لو لم يعترني شيء من الكسل، لعبرت الطريق إلى محلات الأزياء الفخمة "سيلفريدجز" لأجرب بعض أزياء الصيف عندهم.

قررت أن أوفر بعض المال بركوب قطار الأنفاق عوضا عن ركوب سيارة أجرة. في محطة "بوند ستريت"، وقفت أقرأ في محل لبيع الصحف والمجلات. بإمكاني أن اشتري عددا من تلك المجلات الفاضحة.. تلك المجلات التي يضعونها عادة في الرف الأعلى. لا أحد بمقدوره أن يوقفني أو يعجب مما أصنع. سأشتريها وآخذها للمنزل، ولن أضطر لتخبئتها. قد أرميها في طاولتي قرب السرير ولن يراها أحد. ترددت قليلا، ثم اشتريت عددا من مجلة التخسيس، وصندوقا من علكة النعناع. كان ما أعطاه البائع لي من باقي في شكل نقود معدنية سقط بعضها على الأرض من ثقلها. انحنيت بصعوبة لأخذ تلك النقود المعدنية. في الخرطوم لم أكن استطيع أن ألبس تنورة قصيرة كهذه التي البسها الآن وأخرج للشارع. يمكن أن ارتديها عند الذهاب للنادي، أو عندما أزور أصدقائي في سيارتي، ولكن ليس عندما أمشي في الشارع. كانت بطني مليئة بالطعام. تجشأت ثوما.

الفصل الثامن عشر

لم تكن شقتنا الجديدة تقع قرب أي محطة لقطار الأنفاق. نزلت في "إدجور روود"، وأكملت الباقي مشيا. "شقتنا". قلت شقتنا وكأننا لا نزال عائلة واحدة. اشتريت مجلة عربية، وتذكرت أن ماما وحدها هي التي كانت تقرأ المجلات العربية. كنت أحرص على فتح التلفزيون مساء يوم الخميس لمشاهدة برنامج "توب اوف زا البوبز"، وأتذكر في منتصف البرنامج أن عمر وحده هو من كان يهتم بالأغنية التي تحرز المرتبة الأولي في ذلك الأسبوع.

مررتُ بشاحنة صغيرة تبيع آيس كريم، وبمبنى مغطى بسقالات وبجانبه عمال يجلسون في التاريخ تحت الشمس. أطلق أحدهم صفارة وضحكة، ونطق بشيء لم أتبينه، بيد أني فهمت ما يقصد. توهج وجهي، وأنا أدرك أن كل الزيادة التي حدثت في وزني استقرت في أردافي. رغم ذلك عددتها من باب الإطراء، وقد تركت شعري ينساب فوق أكتافي مثل ديانا روس. فجأة رفعت رأسي فرأيت وجها يشبه وجه أنور فوقت وحدقت فيه. له نفس لون البشرة، مع ابتسامة من نوع مختلف. تذكرت عندما غرق أنور في الضحك بعد أن أخبرته بقصة الرئيس معي حين انتهرني لما أجبته باللغة الانجليزية، وصورة أنور وهو يشعل سيجارة وهو يقول لي "بلدنا جميلة. لماذا تذهبين إلى أوربا ولا تريدين أن تتعرفي على مدن وطنك؟" وقف ذلك العامل فوق سقالة البيت. هل سيهبط ويتحدث معي؟ هل سيغدو صديقي فقط لأنه يشبه أنور، ولأني أحسب نفسي جميلة؟ سأتخذ لي بناءا كصديق- كيف لي أن أتخيل مثل ذلك الهبوط في المستوى- لكني أستطيع أن أفعل ذلك. أستطيع أن أتخيل ذلك بسبب أن هنالك في داخل نفسي شيء... شيء مترف وكسول. بيد أن هنالك شيء في نفسي يواجهني بصوت معين، وابتسامة معينة، له القدرة على أن يذيبني فأستسلم. كان من غير الملائم أن أسرع الخطو، ليس فقط بسبب التنورة التي كنت أرتديها، بل بسبب كعب حذائي العالي.

لا أحمل لهذه الشقة أية ذكريات. فعندما انتقلنا إليها لم يكن لعمر وجود منتظم بها. كان نادرا ما يبيت في الشقة. في بعض الأحايين كان يصاب بارتباك شديد فيذهب إلى شقتنا القديمة في "لانكستر قيت". نظرت في غرفته. لم يكن له فيها ما يشي بشيء شخصي، بل بدت كمخزن ليس إلا. لم يبق له فيها غير أشياء قليلة. باع أغلب أغراضه، ولم يبق إلا بعض الصور المعلقة والملابس. باع مسجله الضخم، ومسجل الووكمان، وساعته السويسرية، وأفضل حذاء عنده. كانت تلك هي البداية، وكيف بدأ. التفت بعدها لأخذ أشيائنا وبيعها، وللبلطجة، وتهديد ماما. لم تعش هنالك طويلا،

رغم أنها هي من اشترى الشقة. أتذكر جولاتي معها بحثا عن شقة مناسبة. كنا معا كالأخوات.

تفقدت بريدي. لا شيء غير الفواتير. ظرف ضخم من مستشفى "هيمانا ويلنقتون" يحوي صفحات كثيرة من تفاصيل فاتورة. كل وجبة أكلتها أنا وماما، كل محادثة هاتفية خارجية أجريناها. كل عينة بول، تسريحة شعر، وغسيل جاف وغسيل ملابس، وكان المجموع مبلغا ضخما جدا. لم يتخيل خالي صالح أو يضع في اعتباره تلك الفاتورة عندما كان يخبرني بضرورة العيش فقط على ما يجلبه رصيدي في البنك من أرباح.

وضعت شريط الغناء السوداني الوحيد الذي أملكه... كان للمغنية "حنان النيل".

صباح النور عليك يا زهور صباحك يوم يقاس بدهور
نظرتك جالس بين خدور البدر حداك وانقسموا بدور
تفوق نيشان ممتاز في صدور العظما اللي مثلوا أعظم دور

كان أنور هو من نصحني بشراء ذلك الشريط. قال لي "لماذا لا تستمعين إلا للغناء الغربي؟" نلت إعجابه وإزدراء عمر باقتنائي لذلك الشريط. بالنسبة لعمر كل شيء غربي بالضرورة وبالتأكيد أفضل من أي شيء سوداني. تردد المغنية:

يلوح للعين من نورك نور شعاع الشمس على البلور
جهرتَ عيونا كفاك يا نور قلوبنا رميتهن في التنور
أيا صاحب الطرف المكسور كسرت قلبا شجاع وجسور

لابد أن زملائي في الجامعة تخرجوا الآن، ويبحثون لهم عن وظائف، والبنات يتزوجن، واحدة تلو الأخرى، ويحبلن، وتتغير ملامحهن. أتخيل نفسي معهن، وأتصور لي حياة مختلفة غير التي لي في لندن. أتخيل بيتنا في الخرطوم وهو يتلألأ ويزدحم بالناس عند ليلة زفافي. أتخيل أبي يجادل أمي في من يدعون لحفل الزفاف. ستقول ماما: "إن لم ندعها، فستغضب، ولن نعرف للراحة طعما معها." ستتوهج بشرتي وتتورد بفعل الحك والتنظيف وجلسات "الدلكة" اليومية. ستتعب عضلاتي من تمارين "رقصات العروس" التي كنت أتعلمها. لم يتوقف الهاتف عن الرنين، وتوافد على دارنا عشرات الصديقات ولم نتوقف عن الضحك والقرقرة طوال الوقت. كان العريس يشبه أنور، لكنه لم يكن أنور... لم يكن له أن يكون أنور. كان شخصا وافق والداي عليه... شخص ليس بشيوعي، شخص لا يعمل والده فنيا في السكة حديد. انتهى شريط الكاسيت. لم أقلبه.

رقدتُ على السرير أقرأ مجلة "التخسيس". لا لم أكن أعلم أن ملعقة من الكاتشب تعطيك أكثر من عشرين سعرا حراريا. ما هي الحمية التي تناسبني؟ أهي الحمية التي أتناول فيها إفطارا ضخما في الصباح، وعشاء خفيفا في المساء، أو ربما العكس؟ أخلدت للنوم، وحلمت بأنني صغيرة السن ومريضة... طريحة الفراش في بيتنا بالخرطوم. كانت ماما تعتني بي.. استطيع أن أحس ببرودة الملايات البالغة النظافة من حولي... مقدار الامتياز الذي أحس به وأنا على سريرهما. تسقيني دوائي بملعقة... دواءا حلوا لزجا يحرق حلقومي. يغار مني عمر لأنه لم يعط منه شيئا. يتدلل عمر على ماما. كان يقول لي: "نانا. هل لي أن استلف ألوانك؟". تصيح به ماما: "دعها وشأنها. ألا ترى أنها مريضة؟" وضعت يدها الباردة على جبهتي. ابتسمت وأغمضت عيني. استطيع سماع والدي وهو مستاء لأني مريضة. كان غاضبا من أمي. صاح فيها: "أعطها مضادا حيويا، ولا تتركيها هكذا!" كان رد ماما دفاعيا يفسر ما حدث. تقلبت في السرير وأنا ممتنة أنني غالية عليهما لدرجة أنهما يتشاجران من أجلي.

"أعطها مضاداً حيوياً." استيقظت وصوت أبي يرن في أذني، ولثانية (غبية) واحدة فقط لم استطع أن أتذكر لماذا لم يكن أبي معي. كنت كمن ينظر كجرح بليغ على يدي دون أن أتذكر أين أصبت به. رن جرس الهاتف. مشيت نحوه. كانت الشمس في طريقها للأفول.

كانت رندا من أدنبرة. قالت: "أخيرا تمكنت من الحديث إليك. يبدو أنك الوحيدة التي هاتفتني." بدت وكأنها تؤدي واجبا ثقيلا.

لم يكن لدي كثير من الأخبار لأحدثا بها. لم يكن بمقدوري أن أخبرها ما حدث لعمر. حاولت إقناعها بأنه معي، وأنه سيعاود امتحان المستوى المتقدم.

سأتني: "هل ما زال يستعمل المخدرات؟" سمعت باستخدامه للحشيش في السودان، وشكت في أنه صار يستعمل مخدرات أقوى في الفترة التي قضياها معا في كلية اتلانتك. كانت على علاقة طيبة به. تذكرتهما وهما يرقصان معا في النادي الأمريكي.

رددت: "لا. لا أعتقد ذلك." لم أضف "إلا إذا كان يعطونهم مخدرات في السجن."

"هذا خبر طيب." غيرت الموضوع وقلت: "هل أخبرتك أن عم نبيل قال لي بأنه سيدربني في وكالته للسفر والسياحة."

تكلمنا عن العمل. بدأت تشكي لي من الساعات الطويلة التي تقضيها في المستشفى، والامتحانات التي على الأبواب. جاهدت حتى لا أسرح بعيدا

وهي تتحدث دون توقف. سألتها فجأة: "فيم ستتخصصين؟" قالت: "الجلدية."

أعرف أن هنالك مصلح طبي لكلمة "الجلد"، لكنها لم تستعمله معي. ظنت أني لن أفهم! سألتها: "لماذا لا تصيرين طبيبة نساء وتوليد؟ سيكون ممتعا أن تولدي هؤلاء المواليد الرائعين."

"إن الأمر ليس كذلك يا نجوى؟ التوليد من أن أصعب التخصصات." لم تكن تتحدث معي أبدا بلهجة متعالية عندما كنا في الخرطوم، لكن الأمر مختلف الآن. هي الآن في جامعة مشهورة، وأنا لي أب موصوم بالفساد والابتزاز."

تحدثنا معا عن حياتها الاجتماعية. نعم، كان هنالك عدد من الأسر السودانية في جامعة أدنبرة - عدد كبير منهم بالفعل- وصفتهن بأنهن زوجات يشعرن بالملل، ذوات أطفال شديدي الصراخ والزعيق. دعونها للعشاء، لكنها كانت تصر على الرفض. سألتها: "لماذا؟"

"كثير منهن إسلاميات متشددات... تعرفين هذا النوع... الواحدة منهن ترتدي الحجاب، وتلد كل عام طفلا بعد الآخر."

"أليس هنالك طالبات بينهن أيضا؟"

"نعم. للأسف. منظرهن وهن يرتدين الحجاب يثير هياجي."

تذكرت البنات في جامعة الخرطوم اللواتي كن يغطين شعورهن بثيابهن البيضاء، أو يرتدين الحجاب. لم يكن يثرن هياجي. هل كن يفعلن ذلك؟ رجعت بذاكرتي وتذكرت صفا من المتحجبات يقفن خلف صفوف المصلين. كنت عند المغرب أقف من بعيد أرقب المصلين والمصليات في الجامعة. كنت أتسمر واقفة وأنا اسمع تلاوة القرآن وأراقب حركات المصلين البطيئة. كنت أحسدهم على شيء لا أملكه، ولكني لا استطيع تسميته أو إدراك كنهه. كنت في الخرطوم كلما سمعت الآذان، أو تلاوة القرآن، أحس بالكآبة تملأني، وتفتح في أعماقي فتحة عميقة وواسعة... تصيبني بالخدر. عادة لا ألاحظ ذلك، ولا أدرك أن ذلك يحدث لي بالفعل. ثم مصادفة أسمع القرآن يتلو... في سيارة أجرة مثلا... فيستيقظ ذلك الشعور الداخلي الخامد... تماما مثلما تلمس قدمك المصابة بالخدر. تبدو لك سمينة منتفخة، ويجب وخزها بالإبر والدبابيس لتستعيد الإحساس.

راودني ذلك الإحساس عندما أتت لصالة الجنازة أربعة نساء من المسجد لغسل جثمان والدتي. كن يرتدين الحجاب مع معاطف سوداء طويلة، ووجوه عاطلات عن الزينة. سألنني: "هل تودين شهود غسل الجنازة؟" هززت رأسي بالنفي، وانتظرت في خارج الغرفة وأنا أسمع صوت دفقات الماء

الذي تغسل به جثة أمي. أخرجت إحدى تلك النسوة - وهي مصرية، واسمها وفاء- رأسها من الغرفة، وفاحت رائحة المطهر القوية في المكان، وسألت: "أي نوع من الشامبو تودوننا أن نستعمله؟ ما هو النوع الذي كانت تستعمله أمك دوما؟" أمسكت بالشامبو الذي مددته لها بيديها المغطتيتان بقفازات بيضاء، وكانت ترتدي مئزرا بلاستيكيا. طلبت مني بعد الغسيل أن أصلي على أمي. عاودني ذلك الإحساس القديم. صرت مدركة لتلك الفجوة في روحي. لعل ذلك كان مصدر شوقي وتوقي للخالق. علمتني وفاء دعء بعينه - دعاء يطلب أن يغفر لها، وأن يغسلها بالماء والثلج والبرد، وينقيها من الخطايا كما ينقي الثوب الأبيض من الدنس. نسيت نص الكلمات بالتحديد، لكن ظلت صورة الثلج في رأسي، وفكرة أن أمي ما زالت تحتاجني. الآخرون يعتقدون أن أمي لم تعد تحتاجني، وأنني صرت حرة.

عندما أردتوا معاطفهم مرة أخرى، وكانوا على وشك المغادرة، أعطتني وفاء رقم هاتفها النقال. قالت لي: "عندنا دروس دينية في المسجد. نجتمع أسبوعيا." هز البقية رؤوسهن. ابتسمت وفاؤ وقالت: "نحن نستمتع بأوقاتنا في المسجد. تعالي وانضمي إلينا." ابتسمت إحداهن وقالت في خجل: "نتمنى أن نراك ثانية." كانت أصغرهن، وكانت أصابعها مزينة بالحناء، وذات عينين لامعتين. أحببتها، بيد أني أحسست بأنها بعيدة عني، ومختلفة. أخذت هاتف وفاء ووضعته في حقيبتي اليدوية. ألم يفهموا أني لست من النوع المتدين؟

á á á

سألتني رندا في محادثتنا الهاتفية إن كانت لدي أخبار من الخرطوم. سألتها محاولة إغاظتها: "هل تذكرين أمير؟" كانت تستلطفه في وقت ما. لم أفهم أبدا لماذا بالضبط؟ لم يكن يتكلم أبدا. لعلها كانت ترى في صمته سحرا معينا ولغزا محيرا، بينما كنت أرى أن مرد صمته هو أنه ليس لديه ما يقوله.

ضحكت وقالت: "بالطبع أتذكره. ما هي أخباره؟"

"أخبرني خالي صالح بأنه تخرج في جامعة الخرطوم، وقد وجد عملا في السعودية."

"السعودية؟! سيجمع ثروة لا بأس بها هناك."

"نعم." خرجت الكلمات مني بسهولة، وكأني كنت أمر بذات التمرين. "سيكون زوجا كاملا ومثاليا."

ضحكت وقالت: "لا أبداً. لا تبدئي مثل هذا الحديث. نسيت ذلك الحب القديم."

ابتسمت وسرني أننا بدأنا نتكلم بعفوية وبصورة طبيعية. سألتها إن كان لديه أي أخبار عن شلة النادي.

بدا لي صوتها مبتسما وهي تقول: "نعم. هل تذكرين سنداري؟ سمعت أنها رجعت الخرطوم مع ابنتها."

بالطبع أذكر سنداري، وتلك الفضيحة الشهيرة. تزوجت ذلك الجندي الأميركي وذهبت للعيش معه في أمريكا. سألت رندا: "كم عمر ابنتها الآن؟"

"لابد أنها في الرابعة من عمرها الآن. إنها طفلة جميلة جدا، والجميع في الخرطوم يحبونها."

ابتسمت، وأنا أتخيل تلك الطفلة، والتي لابد أنها جميلة كأمها، وممتلئة كوالدها. لا أزال أتذكر الرجل وهو يقوم بتمارين رياضية في النادي الأمريكي، بينما سنداري جالسة تراقبه، وشعرها المتموج يكاد يلمس حشيش الحديقة. قلت: "للأسف... اشتاق لرؤيتهم."

"حسنا. زوجها لم يكن معهم- نسيت اسمه. بدأ الناس يتسآلون. تبين أنه طلقها، وأنها عادت لتعيش مع والديها."

طفرت الدموع من عيني، وقلت: "يالله... لا... هذا خبر محزن جدا!"

"نجوى. أنت بالكاد تعرفينها. لا داعي لتزعجي نفسك."

"إنه خبر مزعج فعلا."

"توقفي. أنت تبالغين."

كنت انتحب الآن، وعضلاتي تتقلص، كما لو كنت أتقيأ. لم أستطع التوقف.

الفصل التاسع عشر

تم تحويل الرسالة من شقتنا القديمة في "لانكستر جيت". كانت موجهة لي. نظرت أولا إلى موقع الرسالة. كان هو أنور. لكن الرسالة من لندن. "تعازي الحارة لك في وفاة والدتك". تلقائيا ملأت الدموع عيني. مسحت دموعي. "سمعت بالخبر الأليم من السودانيين هنا في لندن. أخبرت بأنك وشقيقك عمر تعيشان هنا دون كثير اختلاط بأفراد الجالية السودانية. أطمع في أن أستثنى من هذه القاعدة، وأن نتقابل سويا- سيسعدني أن ألقاك مرة أخرى." أكاد أسمعه يقول هذا الكلام وكأنه يحاول إغاظتي. "ما هي أخبارك؟ هل تدرسين أم تعملين؟ لا شك أنك تعجبين كيف تمكنت من الحصول على عنوانك. تحصلت عليه من السفارة، أو بالأحرى ساعدني زميل في السفارة على الحصول عليه. لست على علاقة جيدة مع السفارة لأسباب معلومة. لا شك أنك سمعتين..."

نعم سمعت بالانقلاب. نصحني خالي صالح بالبقاء في مكاني وعدم الرجوع للسودان. لا. لا يقصد أن الأوضاع غدت طبيعية، أو أن الرئيس سيعود للحكم. سألت نفسي: من أين أتى هؤلاء الناس؟ يقول خالي إنه ليس لديه أدنى فكرة من أين أتى هؤلاء الناس.

كتب أنور: "هذه الطغمة العسكرية أنهت خمس سنوات من الحكم الديمقراطي وحرية الصحافة." انقلابان عسكريان في أربعة أعوام. يقول خالي نبيل أن ذلك ضار جدا بالتجارة والاقتصاد. "كنت انتظر صدور صحيفة باللغة الانجليزية (ضمن أشياء أخرى) بيد أنهم أغلقوها. تدهورت الأحوال كثيرا مما اضطرني للهجرة. لذا أنا هنا كلاجئ سياسي. يطمئني بدء تجمع معافى وحيوي معارض للنظام العسكري في لندن. أرجو أن تتصلي بي هاتفيا. هذا هو رقمي."

نظرت في الرقم. سأتصل به وأسمع صوته. سنضحك سويا كما كنا نفعل في أيام الجامعة. كانت رسالته ودية جدا. قصدي هو أن خصامنا قد نسي الآن، أو أنه قد صار في عداد التاريخ، وغير ذي قيمة. لا أظن أنه يظن إني أحمل ضده أي ضغينة. كان يؤمن بأن أبي شخص فاسد. لكنه الآن ضد هذه الحكومة الجديدة، وربما نسي كل شيء عن أبي. ما معنى كل هذا؟ انقلاب يعقبه انقلاب - فرقة من الناس تحكم إثر فرقة أخرى- تماما كلعبة الكراسي الموسيقية.

"اتقاسم الشقة مع سودانيين آخرين. كمال أحدهما... وهو يعد للدكتوراه في الأدب الإنجليزي.- يا للترف! يتقمص الدور ويظن أنه "جنتلمان"." كتب كلمة "جنتلمان" بالانجليزية. الآخر اسمه أمين. شاب فارغ متبطل، بيد إنه

غني جدا! يقضي سحابة نهاره في النوم، ويصرم ليله في لعب الورق وتدخين السجائر. كان هو من ساعدني في الحصول على عنوانك من السفارة. جاهد ليوقظ نفسه ويذهب للسفارة قبل أن تغلق أبوابها! أتى أمين من صلب عائلة من التجار عرفوا بتأيدهم لكل نظام مر على السودان بما فيه الحكم البريطاني. هؤلاء الناس سياستهم هي الترضية والموالاة، لا يعرفون غيرها." ابتسمت لما قرأت هذا الجزء.

عندما كنت أقابله وجها وجها، كان قليل الكلام، وشديد التحفظ. بيد أنه كان أكثر صراحة وانفتاحا وارتخاءا في كتاباته. كان باستطاعته أن يحدق في طويلا دون أن يفتح فمه. طبقت الرسالة وجلست ورأسي يدور ويدور. غلى الماء في المغلاة الكهربائية دون أن أقوم لأصنع الشاي الذي أردت صنعه. نظرت في ساعتي. كانت الساعة تشير إلى الثامنة والدقيقة الخامسة والخمسين صباحا. استطيع أن أهاتفه الآن (وأزعج أمين النؤوم) ولكني سأتأخر عن موعد لعمتي ايفا. استغنيت عن الإفطار وانتزعت حقيبة كتفي ومعطفي وهرولت نحو محطة قطار الأنفاق.

في القطار اقرأ رسالته مجددا. "نجوى... يا أعزّ الناس". لم يكن ذلك يعني شيئا. كان مجرد تعبير ليس أكثر. "الرجاء أن تتصلي بي هاتفيا". سوف أفعل. عددت السنين التي مرت على أصابعي. قرابة الخمسة أعوام. "لدي الكثير مما أود أن أقوله لك." وأنا أيضا.

وصلت لعمتي ايفا متأخرة عن الموعد. أذهب إليها كل يوم في بيتها عوضا عن الذهاب للخال نبيل في مكتبه. لم أحب ذلك المكتب أبدا. كان يقع في مقابل "بارك لين"، وكان ضيقا وخانقا رغم أنه كان مكونا من طابقين ومطلي بألوان باهتة هادئة. لم يكن هنالك فيه من العمل ما يبهر- شحن البضائع (وليس الناس) حول العالم. تخيلت نفسي سأعمل في وكالة لسفر تشبه مكتب الخطوط البريطانية في الخرطوم - نوافذ زجاجية وموقع متميز في وسط المدينة... يرتاده علية القوم وكبار شخصيات المجتمع، واطلع على تفاصيل رحلاتهم حول العالم. سيسألني صبي المكتب عن ما أود شربه ويجعلني أحس بأني مهمة. عوضا عن ذلك كنت أنا هي من تقوم بتحضير الشاي لخالي نبيل وعملائه. لم تعجبني الطريقة التي كان ينظر إلي بعضهم. رجال سمان ناعمي الملمس غامضي التعبير يقضون أماسيهم في النوادي الليلية المنتشرة في ايدجور روود. يالها من راحة من ذلك الضيق عندما أخرج لشارع أكسفورد وأدخل محل "ماركس آند اسبنسر" عند منتصف النهار لأشترى لخالي نبيل طعام الغداء. كان رجلا عطوفا، دائما ما يعطيني بعض النقود لأشتري أيضا لنفسي سندوتشا. كان أحيانا يذهب ساعة الغداء

مع بعض زبائنه لمطعم قريب. لم يكن يعطيني عندئذ شيئا للغداء، فأذهب لساحة "هايد بارك" إن لم يكن الجو مطيرا وأجلس على أحد الكنبات وآكل البطاطس المقرمشة وأحلي بقطعة شيوكولاتا. لم أكن مفيدة حقا في المكتب، ولم يكن هنالك احتياج حقيقي لي. كانت سرعتي في الطباعة بطيئة، ورغم أني كنت مجيدة لفن الرد على المتصلين هاتفيا إلا أن أعداد المتصلين كانت قليلة جدا.

اتصلت في أحد الأيام الخالة ايفا، ولم يكن خالي نبيل موجودا فبدأنا في الدردشة قليلا. قالت لي: "أنا في ورطة. عندنا غدا حفل عشاء، وكل العمل سيقع على رأسي. هذه هي صعوبات الحياة في هذه البلد." ذكرت لي إنها تفتقد خادماتها الأثيوبيات في الخرطوم. لم تحضرهن لأنها خافت من القصص التي سمعتها من هروبهن من مخدميهم عندما يحضرن للغرب. قلت لها: "سأحضر لبيتك وأساعدك يا خالتي. سأستأذن من خالي نبيل وأحضر إليك في الصباح باكرا."

رحب خالي نبيل بالفكرة، وأعطاني بعض المال، وأثمرت محادثة هاتفية أخرى مع زوجته عن قائمة مشتريات أعطاني إياها لأخذها للبيت. وصلت في صباح اليوم التالي لبيتهم في منطقة "بيمليكو" الراقية محملة بعدد من الأكياس. كنت متحمسة جدا لحفل العشاء هذا. كنت أتوق لحياة العائلة ولأكون بقرب واحدة من صديقات أمي. شيء ما انفتح في داخل روحي. الحاجة لأجعل من نفسي شخصا مفيدا. كنت سعيدة بوجودي في مطبخها، وفي معرفة أين تضع الأغراض، وفي فتح ثلاجتها ووضع ترتيب المشتريات داخلها. علمتني ذلك اليوم كيف يحشى ورق العنب، وكيف تعد المائدة، وكيف تلف وتطوى مناديل المائدة. عندما ذهبت للحمام لتستحم، فتحت المذياع على المحطة (الغنائية) الأولى، وبدأت أنظف في المطبخ على أنغام الأغاني الخفيفة. مسحت أرضية المطبخ وأخرجت أكياس القمامة للخارج. حدث كل ذلك قبل ثلاثة أشهر من آخر يوم لي في مكتب خالي نبيل.

اليوم فتحت لي خالتي إيفا باب بيتها وهي ترتدي "روب دي شامبر" وردي اللون. تهدل شعرها الناعم على كتفيها. بدت جميلة حتى من غير مكياج. كانت صغيرة الحجم، ممتلئة الجسم قليلا، دهنية البشرة، وذات عينين في لون البندق. كانت دوما دافئة الجسم. تمتلئ عينيها بالدمع ويرشح العرق من جلدها. عندما تكثر من العمل في المطبخ، كانت تشتكي من الحرارة، حتى في عز الشتاء. كان البيت دافئا أكثر من ما يجب، وكأنما كان ذلك ليوافق شخصيتها. كان ذلك اليوم في الأسبوع الأول لشهر مارس، ولم يكن قد مضى وقت طويل على إيقاف التدفئة المركزية.

قالت لي: "تعالي يا نجوى." وتبعتها وهي تدلف لغرفة النوم. كانت لهجتها هي لهجة السوريين المسيحين من سكان الخرطوم. كنت بتلك اللهجة عليمة، وإن ظلت غريبة علي بعض الشيء. كانت هنالك مجموعة صور تغطي معظم مساحة سرير النوم... صور بالأبيض والأسود وأخرى ملونة من مختلف الأحجام. جلست على طرف السرير وهي تشعل سيجارتها وهي تقول لي: "ليس لنا اليوم عمل في المطبخ. خالك مدعو في الخارج. قررت أخيرا أن أنظم هذه الصور وبصورة نهائية."

جلست القرفصاء ووضعت كوعي على السرير. رأيت صورتها في زي بني قصير من موضة الخمسينات، ثم صورتها في الميني جيب من موضة الستينات، وصورة لولديها على مشايات، وأخرى لهما وهما يجدفان حوض ماء، وتظهر من الخلف مربيتهما الأثيوبية. تضع خالتى ايفا نظارتها لتدقق في تلك الصورة. أصابعها مغطاة ببقع داكنة تشي بتقدم العمر، وأظافرها مطلية بلون فاقع يماثل لون الجواهر التي تحلي خواتم أصابعها. "لبيب أكبر من مراد، ولكنه أقل حجما. أنظري... هذا مراد يدفع لبيبا عن دراجته. هذا هو سبب عبوسه في الصورة." ولداها الآن متزوجان ويقيمان خارج لندن. أسعد عندما يزوران والديهما في لندن ومعهما زوجتاهما والعيال الصغار. تعلمت عليهما تغيير الحفاضات، وتدفئة ما يشربناه من زجاجات الرضاعة، وطحن الطعام العادي ووضعه في فمهما بالملعقة.

سحبت خالتي ايفا آخر نفس من سيجارتها وقالت لي: "اصنعي لي قهوة يا نجوى."

في المطبخ فتحت الراديو علي المحطة (الغنائية) الأولى ونظمت المكان من آثار إفطار الصباح. كان البرنامج المذاع هو "الساعة الذهبية"، وكان برنامجي المفضل. كانوا يذيعون فيه أشهر أغاني اوائل الثمانينات. كانت تذكرني تلك الأغاني بليالي "النادي الأمريكي" في الخرطوم، وبليالي آخر السنة في النادي السوري. اتذكر عمر وهو يجادلني حول تلك الأغاني التي كنا نتبارى في حفظها، ونختلف حول كلماتها الصحيحة. لا أسمع لتك الأغاني إلا عندما أكون وحيدة في المطبخ. عندما تكون خالتي ايفا معي فإنها تفضل أن تستمع لفيروز، أو تحرك مؤشر المذياع حتى تقع على موسيقى كلاسيكية تحبها. كانت تستمع بالطبخ لكنها كانت تحتاجني لتقطيع الثوم وعصر الليمون، وعمل الأشياء الأساسية مثل غلي الاسباجيتي. أكثر من ذلك كانت تحتاجني لمليء غسالة الأواني ومسح الطاولة وأرضية المطبخ، وبالطبع مواجهة بلاوي الحمامات. علي الهاتف من تورنتو كان خالي صالح غاضبا من أني لم أعد أداوم في مكتب خالي نبيل. قال لي غاضبا: "ماذا تعنين بأنك

تساعدينها؟" مساعدة؟! يعني أن تخدميها. تشتغلين خادمة عندها؟!" لم يفهم أني أحتاج لأكون بقربها هربا من وحدتي. أحب سماع قطيعتها واغتيابها لمن في الخرطوم. كنت بحاجة لأبقى قريبة من ماضي ذكرياتها.

حملت لها القهوة في غرفة النوم. كانت خالتي ايفا جالسة على السرير، وقد أبقت واحدة من رجليها تحت آليتها، ومدت الأخرى مستقيمة. عضلة رجلها سمينة، وقدمها صغيرة. قالت لي ضاحكة: "انظري يا نجوى ماذا وجدت." كانت صورة لحفل تنكري في النادي كنت أرتدي فيه ملابس راقصة شرقية. كيف تأتى لي أن أفعل ذلك؟ يا للجرأة! ضحكت وحدقت أنا في صورتها وهي صغيرة، جسدها يضج بالنضارة والبهاء والتألق، وهي تضع على وجها الشهواني ابتسامة ماكرة، وعليها زي تنكري يلمع. بجانبها في الصورة امرأة تلبس زيا تنكريا للهنود الحمر، وتضع على رأسها شعرا أسودا مستعارا مع ضفتيرتين طويلتين، وريشة طائر مغروسة داخل منديل أحمر تلف به جبهتها. في صورة ذلك الحفل التنكري أيضا كان هنالك رجل غربي يرتدي ملابس عربية تقليدية بيضاء. "لورانس العرب." وابتسمت الخالة ايفا ووضعت الصورة في مكانها بالألبوم.

تناولت صورة أخرى وتنهدت في أسف. كانت الصورة لأبي وأمي، لم يكونا في زي تنكري، بل في الزي القومي السوداني. كانت أمي ترتدي ثوبا لامعا، يشف عن ما تحته من ذراعين عريانين. كانت تضع على وجهها شبه ابتسامة خجولة، كما هي عادتها عندما تكون في وسط جماعة من الناس. بدا والدي رسميا في مظهره، وكأنه وقف للتصوير إرضاء لغيره. كان هو المحرك والدافع لقيام ذلك الحفل.- مع أصحاب النفوذ من اليمينيين... من الفاعلين في دوائر النفوذ في البلاد. كان يصف والدتي بالمبالغة في الرضا عن الذات والتساهل. كان يلومها على الازدراء بمن تسميهم "مستجدي الثراء" (على اعتبار إنها من أصحاب الثورات القديمة)، بينما لا تستطيع الاستغناء عنهم. كانت صورة ماما تجسيد للصحة والعافية، وصورة بابا مثال للقوة والسطوة. لم يكن يريدان أن يموتا. حدث ذلك ضد رغبتهما. هل يعلمان أني سحقت وغدوت فقيرة بائسة من دونهما.

وضعت الخالة ايفا أصبعها على صورة المرأة المتنكرة كهندية حمراء وقالت: "كانت صديقة مقربة. دخلت يوما لغرفة نومها فإذا بزوجها في السرير مع امرأة أخرى. هذه المرأة." ضغطت بأصبعها بقوة على صدر المرأة التي كانت تلبس في تلك الحفلة التنكرية زيا أسودا ضيقا مطرزا لامرأة بدوية، وحول عنقها قلادة مميزة. لها عينان كبيرتان متألقتين وحواجب

رقيقة. قالت الخالة ايفا: "تصوري. في سرير نومها!" واضح أن الخالة كانت منزعجة من موقع الحدث أكثر من أي شيء آخر.

"من كان الزوج؟"

قلبت الخالة ايفا سريعا وسط الصور بحثا عن الزوج المقصود. غمغمت: "في سرير نومها... تصوري... هذا هو." وأشارت لرجل متنكر في صورة راعي بقر (كاوبوي). كان رجلا مرحاً محترماً يضع على وجهه نظارات. كانت قبعته ملقاة للخلف قليلا تظهر بداية جبين أصلع. قالت الخالة ايفا "كان قاضيا في المحكمة العليا." كان من الممكن أن يكون ذلك الرجل صديقا لأبي. كان بالفعل صديقا لأبي. كان من الممكن أن يزور دارنا وأن يمزح معي. كنت سأدعوه "يا عمي"، وكنت كطفلة من الممكن أن أرتمي في أحضانه. إن كان صديق أبي يمكنه خيانة زوجته، إذن ما الذي يمنع أبي من خيانة "وزارة المالية"؟

اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد. من أين أتت هذه الكلمات؟ أتتني ذكرى رائحة المطهر القوية، وصوت الماء المتدفق، وصالة غسل الأموات. تذكرت الدعاء الذي علمتني إياه وفاء يوم غسلت جثمان والدتي. رفضت أن تأخذ أي مقابل نظير الغسيل. كان ينبغي علي أن أتصل بها هاتفيا لأشكرها مجددا.

سألت خالتي ايفا: : "هل فعل بابا كل الأشياء التي اتهموه بفعلها."

دلت الطريقة التي ثنت بها ذقنها على عدم رضاها من السؤال. ردت ببطء: "المسألة ليست بهذه البساطة. ليست مسألة أبيض أو أسود. في عالم المال والأعمال توجد منطقة وسطى... منطقة رمادية. في يوم ما يكون وجودك في المنطقة الرمادية آمنا، بينما يكون في يوم آخر خطأ تحاسب عليه. أصدرت صوتا وكأنها تبصق في اشمئزاز. واصلت بالقول: "العالم خائن غدار. لقد قدموه لمحكمة عسكرية، وأصدرت عليه حكماً قاسياً. ما كان ينبغي أن يكون الأمر هكذا."

قاسيت وأنا أحاول نطق الكلمة متذمرة: "ولكن هل اختلس أم لا؟"

أحسستُ من نظرة عينيها وكأنها تتهمني بالخيانة وقالت: "أبوك لم يضر بأي شخص. لم يدمر أحدا. لم يقتل أحدا."

طفرتْ الدموع من عيني، وجعلتها تلك الدموع تلين نحوي قليلا فقالت لي: "هل تعلمين ماذا قالت لي أمك عنه؟ قالت لي بأن والداك رد إليها كرامتها، وجعلها ترفع رأسها عاليا وسط الناس. كانت مطلقة حين تزوجها والدك."

"ماذا! لم أكن أعلم ذلك؟"

"لم تكن تريدك أن تعلمي ذلك. كانت تستحي من ذلك. هجرها زوجها الأول واختفى. ذهب لأستراليا... ذهب لأمريكا.. لا أحد يعرف بالضبط. اضطرت للحصول على الطلاق بالمحكمة. كان ذلك يعد فضيحة في تلك الأيام. كانت حساسة، وقد ضرها ذلك الأمر كثيرا. لم يتقدم أحد لخطبتها بعد ذلك رغم أنها كانت في بداية العشرينات من العمر. يقول الناس إن والدك خطب أمك لأنه طموح، ولأنه كان طامعا في ثروتها واسم عائلتها الرنان. هل كان ذلك صحيحا أم لا؟" هزت كتفيها. "الشيء المهم هو أنه جعل أمك سعيدة. تذكري ذلك."

الفصل العشرون

تصافحنا. كنت أظن بأننا سنضحك، ولكننا لم نفعل. ليس كما فعلنا بالأمس على الهاتف. كان قد رد بنفسه على هاتفي، وليس أحد من زميليه في الشقة. مازحته بالقول: "هل عرفت صوتي؟" لما نطق على الفور باسمي ضحكنا معا. لكن اللقاء وجها لوجه كان غريباً ومحرجاً بعض الشيء. كنا نحس بذواتنا فيه، وغير طبيعيين. تعمدت أن لا آتي للقاء مبكرة جدا، فتأخرت قليلا عن الموعد المضروب، وكان هذا سببا لكدره. وأيضا كان وصف مكان اللقاء غير دقيق، فقد اتفقنا على اللقاء أمام محطة ماربل آرش لقطارات الأنفاق. ظللت أتنقل بين "ركن المتحدثين" ومحل "ماكدونالدز"، بينما وقف أنور منتظرا في نقطة واحدة، وهو يرمق ساعته بين فينة وأخرى.

بدا أنور مختلفا. كان أضخم بنية. ربما كان السبب هو السترة الزرقاء السميكة التي كان يرتديها. لم أره في سترة من قبل. بدت من النوع الرخيص، وكأنه ابتاعها من محل "سي آند أي". قلت: "دعنا نتمشى في المنتزه." رد بالقول: "الجو بارد جدا. لماذا لا ندخل محلا ونتناول قهوة.؟" كانت رجله اليسرى متيبسة شيئا ما، ومشى وكأنه يعرج. سألته: "هل أصبت بشيء في رجلك؟"، لكنه التفت بعيداً ولم يجب، وكأنه لم يسمعني. تجولنا قليلا بحثاً عن مكان مناسب. هذا المكان مزدحم جدا، والآخر بدا وكأنه مطعم، ونحن لا نريد أن نأكل الآن. قلت له: "كانت الأشياء أبسط في جامعة الخرطوم." ابتسم لقولي.

أخيراً وجدنا "كوفي شوب" به طاولة غير مشغولة. خلعت معطفي فنظر إلى قميصي الصوفي وبنطالي الجينز، وأخرج سيجارة. نبهته أن التدخين ممنوع، واشرت للافتة. شاع الدم في وجهه، وهز رأسه وأرجع صندوق السجائر لجيبه. هل كان دوما حساسا هكذا؟

سألته: "متى جئت من الخرطوم."

"ديسمبر."

"قضيت كل هذا الوقت ولم تتصل بي؟"

إبتسم، وبدا أكثر ارتخاء وراحة وقال: "ذهبت لمانشستر بعد وصولي مباشرة - لدي ابن عم هناك. ثم حضرت هنا، واستغرق الأمر زمناً حتى استقريت. تصورت أني سألقاك هكذا فجأة في الطريق. كنت أبحث عنك. فكرت في أني سألقاك يوما في مصعد محطة للقطار. أنت تصعدين في جانب وأنا اهبط بالمصعد في الجهة الأخرى."

ضحكت وقلت: "إذن لن نتقابل هكذا. ستذهب أنت لتلحق بالقطار، بينما أكون أنا قد خرجت من المحطة."

"فكرت في هذا. سأصرخ بأعلى صوتي وأخبرك بأن تنتظريني في أعلى..."

"تصرخ في وسط المحطة - يا للفضيحة!"

ضحك وقال: "سيقول الناس عنا: "انظروا لهذا الأجنبي الغبي." ونظر بعيدا. "بدأت أدرك أن أفضل شيء لي هنا للحصول على ما أريد هو أن اتظاهر بالغباء - إنهم يتوقعون ذلك- ولكن على كل حال، كنت أتمنى أن ألقاك مصادفة." ونظر إلي مجددا وهو يقول جملته الأخيرة هذه.

"لندن ليست بذلك الصغر."

"ليست صغيرة. إنها مدينة كبيرة."

"ما هو رأيك فيها؟"

عبر عن دهشته بتعبير في وجهه وكأنه يقول: "يا الله."

حاولت أن أنظر إلى لندن بمنظاره هو، وليس كموطني الثاني.

بدا مترددا في الكلام، أو كأنه يفكر بصوت مسموع، ويزن كلامه ثم قال: "الغرب مثير للإعجاب حقا. كل شيء منظم. كل شيء له دور يؤديه. يوجد نظام يشتغل بفعالية. أعجبني قطار الأنفاق. إن أردت الذهاب إلى أي مكان، ما عليك إلا أن تسأل عن أقرب محطة أنفاق بجنبه، وتكون هناك في لحظات."

"أنا كذلك معجبة بنظام قطارات الأنفاق. أحب خريطتها. كل خط له لون مميز."

أخرج من جيب سترته خريطة قطار الأنفاق. وكأنما تذكر فجأة، خلع سترته وعلقها على ظهر مقعده. كان يرتد قميصا قطنيا قصير الأكمام. لا عجب إذن إن رفض فكرة التجول في المنتزه بحجة البرد. نشر الخريطة أمامي. كانت عليها إشارات بقلم الرصاص.. بدت ورقة الخريطة مهترئة وملطخة. تحرك في دواخلي شيء ما... إدراك لوجوده. حركت مقعدي قريبا من الطاولة، وأمسكت بأحد أطراف الخريطة بيدي.

قال: "انظري. هذه هي محطتي. شارع جلوستر. إنه على الخط الأزرق. إنه يسمى بيكاديلي. هو أيضا على الخط الأخضر، ويسمونه خط ديستركت (المنطقة). خط بيكاديلي محفور عميقا تحت الأرض بينما خط ديستريكت مرتفع، وكأنه قطار عادي."

شعرت بالراحة والسكينة لأنه كان يحكي لي عن أشياء كنت أعرفها سلفا.

قال: "تهت في أحد الأيام بين محطات الأنفاق، فقضيت ساعات أركب في قطار وأنزل من قطار. أخيراً نزلت في المحطة الصحيحة. لم أدفع قرشا واحد زائدا رغم أني قضيت ساعات متجولا بين القطارات..."

أتت قهوتنا التي طلبناها، ومع كل صحن ظرفين من السكر. وضع أنور الخريطة جانبا، وفتح ظرف السكر وهو يقول شاكيا: "إنهم لا يضعون السكر في أي شيء. يعطونك كل شيء خالي من الطعم." كنا نشتري الشاي حلوا من المقصف. وضعت أمامه ظرفي السكر التي أعطيت لي. رفض في البداية ولكني أصررت، وتجادلنا. أخيرا صدق أنني لا أضع في قهوتي سكرا.

سأل متعجبا: "كيف ذلك."

"أقوم بعمل حمية"

"لماذا؟"

"لنفس السبب الذي من أجله يقوم الناس بعمل حمية."

"ولكنك لا تحتاجين لعمل حمية."

ضحكت وقلت: "وكيف تعرف ذلك؟"

ضحك لأنه كان يعلم أنني أمزح وقال: "لم تتغيري. اعتقدت أنك ستتغيرين."

لكني تغيرت بالفعل. تغيرت حياتي كلها. بقيت وحدي. فقدت أبي وأمي وأخي عمر- بقيت وحدي أتحسس طريقي تائهة وحيدة في لندن.

حدثته عن خالي نبيل وخالتي ايفا. قال لي: "أنا معجب بك. أنت لست متكبرة على العمل على كل حال. كم يدفع لك؟"

أخبرته فقال: "هذا ليس سيئا. حولي هذا المبلغ للجنيه السوداني وسيبدو مبلغاً كبيرا."

كان رد فعله مختلفاً جدا عن رد فعل رندا والتي قالت لي عبر الهاتف من أدنبرة: "إنهم يغشونك. الطلاب يقبضون وهم يعملون ليومٍ في نهاية الأسبوع في المطاعم أكثر من مبلغك هذا في أسبوع."

شجعني رد أنور على القول: "وهم كرماء معي في نواح أخرى أيضا. عندما أخرج مع خالتي ايفا للتسوق لأساعدها في حمل الأكياس فإنها تعزمني على الغداء في مطاعم جيدة."

أخذ رشفة من قهوته وضحك. واصلت الحديث: "في عيد الميلاد أعطاني خالي نبيل عشرين جنيها."

ضحك وقال: "صرتي الآن تحتفلين بعيد الميلاد. صرت مواطنة لندنية حقيقية."

ضحكت معه وقلت: "لا أدري ما الذي صرت عليه."

"ولماذا تتحاشين السودانيين؟"
"من الذي قال لك ذلك؟"
"كنت اسأل عنك كل من ألقاه. ما الذي يفعله عمر الآن."
كنت مستعدة لذلك السؤال. ركزت تفكيري في رندا. نظرت في عينيه وقلت بثقة: "هو يدرس في أدنبرة."
"ماذا يدرس؟"
"إدارة الأعمال. كما كان يفعل في الخرطوم."
"لي أصدقاء في جامعة أدنبرة..."
أجبت بسرعة: "هو ليس في جامعة أدنبرة. هو في كلية تقنية. لم يحرز درجة ممتازة في امتحان البكالوريا العالمية."
"فهمت."
كنت مرتاحة لأنه صدقني. كان إقناع خالتي ايفا أشد صعوبة. لما سألتني عن عمر (وهي تفعل ذلك بين وقت وآخر) كانت أسئلتها شديدة التطفل والإصرار والقسوة أيضا. كانت تسألني وعيناها الحادتين تنظري إلى وكأنها تقول: "لا تحاولي خداعي أيتها الآنسة الصغيرة. إنني أكبر من أن أصدق الأكاذيب التي تؤلفينها."
سألني أنور: "وماذا عنك؟ لماذا لم تكملين دراستك؟"
"قد لا أكون من النوع الذي يفلح في الدراسة. كنت أحفظ وأحفظ بلا فهم. وبهذا الحفظ دخلت جامعة الخرطوم."
رفع حاجبيه وقال: "ألم يحاول باباك أن يتوسط لك؟"
"بالتأكيد لا. مكتب القول يتشدد في مثل هذه الأمور. لا يقبلون إلا من يتحصل على الدرجات المطلوبة".
"لا تعني أنه..." كان ساخراً عندما قال ذلك مثلما كان وهو يقول "باباك". لم يكن لهذا من داع.
"لماذا أنت لست مخلصا لجامعتك؟"
"أنا فقط أفكر بصورة عملية."
"إنهم لا يقبلون إلا الطلاب المؤهلين. ليس هنالك غش."
"لا أصدق هذا."
"ولكني متأكدة. لماذا لا تصدقني؟"
"لأنني أعرف أكثر منك." كان واضحاً أنه متوتر ومغتاظ، ولكن فات الآون لأتوقف.
"لا. أنت لا تعرف أكثر مني. لا تعرف أكثر مني في هذه الحالة. أنا متأكدة لأني أبي حاول جاهدا أن يدخل ابن خالتي سمير لجامعة الخرطوم ولكنه

فشل. كانت درجات سمير ضعيفة، ولهذا رفضوا أن يقبلوه."
"على الأقل أنت تعترفين بأن الرشوة والواسطة هي من طبيعة والدك."
تنهد وكأنه ندم على ذهابه لذلك الحد. خطر لي أن أقف وأغادر المكان، لكني ظللت في مقعدي أحدق في القهوة أمامي، ولم أحر ما أجيب به. لقد كسب الجولة رغم أني كنت مصيبة فيما قلت... رغم أني كنت أقول الحقيقة.
لمس يدي وقال: "أنا آسف يا نجوى".
لم أجبه. قال لي: "انظري إلي يا نجوى."
أحببت يده فوق يدي، ولم أرده أن يتركها. يجب أن لا نطرق سيرة أبي أبدا.
"نجوى..."
يجب أن أفعل شيئا ما لإصلاح ما فسد بيننا فقلت بصوت خرج عاقلا متزنا وواضحا: "لم تقل لي أخبارك."
ترك يدي وقال: "عندما تخرجت جلست لإمتحان الخارجية وتم اختياري."
"هذا عظيم!"
"نعم. كان الأمر كذلك. ولكن جاءت هذه الحكومة الجديدة فطردوني من الخدمة. كل من له علاقة باليسار تم طرده."
أردت أن أقول شيئا من باب التعاطف، ولكني تذكرت أن ما هو أسوأ حدث لأبي عندما أتت للحكم حكومة موالية لجماعة أنور. الكراسي الموسيقية. أخذت رشفة من قهوتي. كانت مرة لاذعة من غير سكر.
"كتبت في رسالتك أنك في انتظار صحيفة إنجليزية؟"
"نعم. فعلت ذلك في وقت فراغي. أقفلوها- لا حرية للصحافة في عهدهم. أحب
الكتابة. إنجليزتي متوسطة..."
"لا بالعكس. لغتك ممتازة. أذكر أني قرأت مشروع تخرجك." أقرأ الصحف هنا. إن صادفتني كلمة لا أعرفها، أفتح القاموس." أستطيع تخيله يفعل ذلك. سيتعلم سريعا لأنه ذكي وشديد التركيز.
مضى قائلا: "أخطط لأكتب مقالا عن الأوضاع الحالية في السودان وأقدمه للنشر في صحيفة بريطانية. سأعطيك له لتقرأينه بعد أن أكمله."
"سأفعل ذلك."
ابتسم وقال: "تستطيعين أن تصلحي انجليزيتي." لم يكن هازئا. لم يكن يسخر من المدارس الخاصة التي درست فيها.

الفصل الحادي والعشرين

لم أكن أعرف أن في منطقة نوتنجهام جيت مطعم إثيوبي. جلست على مقعد صغير أتناول طبقا من الدجاج كثير التوابل موضوع على طاولة لا ترتفع كثيراً من الأرض. أكلت مستعملة الشوكة بينما أكل أنور بيديه. ضحك مني، أنا التي نشأت في بيت لا يستعمل فيه أحد يديه لتناول الطعام سوى الخدم. رغم ذلك كان صوته ينضح بالإعزاز، ولم يكن يقصد أن يجرح مشاعري. كان الطعام لذيذا. قلت له: "كانت لدينا خادم أثيوبية تصنع لنا "زغني" حار كهذا، لكنها كانت تضع فيه بيضا مسلوقا. كانت تسمي نفسها دونا صمر." تبسم ابتسامته التي أفسرها بـ: "لست مهتما بما تقولين، ولكن استمري على كل حال." ومضيت أفسر لماذا سمت خادمتنا نفسها دونا صمر. كنت أخشى أن يضر الجلوس على هذه المقاعد القصيرة برجله، لكنه بدا مرتاحا ومنبسطا. أحب أن أراه هكذا.

كان هنالك الكثير من الأفارقة في المطعم. كانت هنالك الموسيقى، والسجاد المعلق على الحوائط، والأثاث الأسود اللون، وحقيقة أن أنور لم يكن الوحيد الذي يأكل بيديه... كل ذلك جعله يشعر وكأنه في موطنه وليس غريبا. حاولت تخيل رد فعل عمر لهذا المكان وأنا فيه. سينظر بازدراء للمكان لأنه يحتقر هذه الأماكن "الأثينية". سيقول بأن مستواي "تدهور" في هذا العالم.

بعد أن أكملنا الطعام شربنا الشاي، وأشعل أنور سيجارة. بدأت أقرأ في المقال كما وعدته. "الضوء خافت هنا."

"اتركيه إذن."

"لا. أبدا. أنا فعلا أود أن أقرأه. الإضاءة ليست سيئة جدا." يجب علي الحذر هنا. كان يريدني أن أصلح له لغة كتابته، بيد أنه كان بالغ الحساسية للنقد." جفلت عندما قرأت ما كتبه أنور: "الحكومة الوطنية الفاسدة التي أعقبت الحكم الاستعماري." لابد أنه كان يضع أبي في ذهنه وهو يكتب تلك الفقرة. أحمد الله أنه لم يورد اسم والدي أو اسم عائلتنا.

"خطك واضح، وسهل القراءة."

"يجب أن أطبعه. لكن ليس لدي آلة طابعة."

فكرت في عقلي أن "اشتري له آلة طباعة كهربائية، أو حتى معالج للنصوص... شيء فاخر لأفاجئه"

لدي حساب في البنك، وأنا حرة في التصرف فيه كما أشأ. خالي صالح ليس معي ليقول لي: "عيشي على الأرباح ولا تقربي رأس المال المدخر." سأشتري له جهاز حاسوب.

"نجوى. توقفي عن السرحان. اقرئي."

قمت بتسجيل بعض التعليقات، وإصلاح بعض أخطاء الإملاء وأدوات التعريف. أبدى بعض الاحتجاج على قليل مما اقترحته، ثم قال: "هل هنالك شيء آخر؟" ومد يده ليأخذ الأوراق وكأنه يقول: : هذا عملي أنا. عمل يدي".

"لا شيء. البقية كلها جيدة." كنت أكذب.

تنفس الصعداء، وأخذ أوراقه وطواها.

أردت أن أغير الجو فقلت: "هل من الحكمة أن تدع فتاة بسيطة لم تكمل تعليمها الجامعي أن تعلق على عملك؟"

ضحك، فشعرت بالراحة مجددا، وقال: "ليس لي خيار." كان يحاول إغاظتي.

"ألهذا دعوتني وهاتفتني- لأن ليس لك خيار؟"

"مشاعري نحوك لا تترك لي فرصة للاختيار."

قلت هامسة: "إجابة ذكية.". تأثرت بالطريقة التي نظر بها إلي. أعطاني أملا في أني لن أظل تائهة وحيدة في لندن كثيرا بعد الآن، وأني لم أكون يتيمة بلا عائلة بعد الآن. لكن كانت هنالك حواجز كبيرة بينا. أشياء لا أستطيع أبوح بها له. كانت آراؤه حادة وجاهزة وقطعية وغير قابلة للنقاش. لا توجد لديه منطقة وسطى. أسأل نفسي أسئلة كثيرة: ماذا أفعل هنا؟ ماذا حدث لعمر؟ هل سأعود مرة أخرى للسودان؟ وكيف سيكون حالي دون وجود والدي. هل سيغير أنور نظرته عن أبي؟ أتمنى ذلك. كان قد بدأ يتغير في نواح أخرى. كان يقلب باحترام ومهابة صفحات جريدة الجارديان ويدمن برنامج "وقت الأسئلة". بدأ يدخل في كلامه بعض الكلمات الإنجليزية أكثر وأكثر، وخفت حدة نقده اللاذع للغرب. هذا هو نفس أنور الذي قاد الطلاب في مظاهرات ضد البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وأحرق العلم الأمريكي. لم أجد في نفسي الجرأة لأسأله إن كانت معتقداته المضادة للإمبريالية تناقض سعيه للحصول على اللجوء السياسي في لندن. ربما لأن "حائط برلين" كان قد سقط، فقد صار أقل تشدداً تجاه الغرب أيضا.

أخطأت الأسبوع الماضي وأخبرته عن عمر- وكيف انه قبض عليه وهو يوزع مخدرات. لكني لم أعطه كل التفاصيل، وأوهمته بأن عمر يقضي فترة سجن قصيرة، وسيخرج سريعا. كان رد فعل أنور أم قال: "ماذا تتوقعين من فتي مدلل مثله؟". أقنعته بأن لا يخبر أحدا من السودانيين، ولكنه بعد أن أقسم أحسست بأنه سيحنث في قسمه في يوم ما ليثبت حجة أو ليؤكد ما يقول. منذ ذلك الحين كنت حذرة في الحديث معه في بعض الأشياء.

كان صمتي عن بعض الأشياء وتجاهلي لبعضها الآخر يحز في نفسي ويصيبني بخيبة الأمل. وودت لو صرنا أصدقاء حقيقيين... صرحاء وليس لدينا ما نخجل من ذكره لبعضنا البعض.

نظرت إليه عبر الطاولة - لعينيه الذكية ولشاربه. كان يتحدث عن حقوق الإنسان في السودان، وعن الطغمة العسكرية الحاكمة. كان يقول أن هذا الوضع ينبغي أن يتغير. قال إن السودان به أكبر عدد من النازحين في العالم.

سألته: "وأنا وأنت من النازحين؟"

"نحن لسنا في ذلك الوضع. نحن محظوظون يا نجوى. ماذا تعرفين عن الاعتقالات والسجن أو التعذيب أو مجرد الفقر. لا يمكنك مقارنة نفسك بالآخرين العاديين."

"بالطبع لم أرد مقارنة نفسي بالآخرين." كنت أشعر تجاه "جماهيره" بالدونية، وكانت مشاكلي تبدو تافهة لا تستحق النظر. ولكني كنت أحيانا أشتهي شفقته وليس حبه. "لماذا تحاول دوما قمعي؟"

"لا أقصد ذلك. أنت أفضل شيء حدث لي في لندن. المدينة لا تحتمل من غيرك."

رددت بسرعة قائلة: "أخشى أن ما حدث في الخرطوم سيؤثر دوما علينا." ولكن الأمر لم يكن حقيقة يتعلق بما حدث بقدر ما هو يتعلق بي شخصيا، من أنا، بنت من. بحثت عن الكلمات المناسبة. لم أشأ أن اذكر والدي وأخاطر بأن تدمع عيني أمامه.

ابتسم وقال: "انظري... لا أحد هنا يعلم خلفياتنا... لا أحد يعلم بنت من أنت... لا أحد يدري ما هي سياستي. نحن هنا مجرد "نجرز" أسودين... متساويين."

ضحكت لاستعماله لأول مرة لتلك الكلمة الانجليزية "نجرز". أردت أن أجلس بقربه، مثلما نجلس في الحافلة. في كل مرة يلمسني فيها كنت أنسى ذلك الحاجز بيننا... أنسى أن والدي لو كانا من الأحياء لما قبلا به أبدا.

قلت له: "كنت أريدك أن تأتي معي بالأمس. ذهبت لزيارة قبر والدتي."

تراجع قليلا وسحب مرفقيه من الطاولة وقال: "لا أحب زيارة القبور. ما فائدتها؟"

"لا أدري. أردت فقط أن افعل شيئا لأن أمس كان يوم ذكراها السنوية."

كان يحاول أن يبدي بعض الاهتمام فقال: "هل أخذتي وقتا طويلا لتصلي إلى المقبرة؟"

"نعم. هي في نهاية نفق القطارات. كانت رحلة ممتعة، وكان الجو أفضل من جو اليوم." المقبرة كانت مزدانة بلون العشب الأخضر والزهور الملونة. مشيت مسافة طويلة لأصل إليها عبر طريق ضيق ووسط حقول ممتدة. أوقفت عائلات كثيرة سياراتها في موقف السيارات في ساحة المقبرة، وكان الأطفال يلعبون ويمرحون بين القبور في براءة وسعادة. جلست على كنبة وبقيت أراقبهم. جعلوني أتمنى أن أعود طفلة صغيرة مرة أخرى. وقف رجل أمام قبر يحرك شفتيه بصلاة أو كلام. كان لديه الكثير من القول. يا ترى بماذا كان يتمتم؟ كان يضع قبعة على رأسه، ولذا حسبته رجلا متدينا. هل ترى يشعر المتدينون بالراحة في المقابر؟ بدا لي الرجل من المتدينين وهو يرفع يديه بالصلاة. ليس بالإمكان معرفة إن كان من توفي له رجل أم امرأة. في كل مرافق الحياة تجد هذا التفريق - مراحيض للرجال وأخرى للنساء، ملابس للرجال وأخرى للنساء- ثم تأتي المقابر فيتساوى الجنسان.

أردتُ أن أتحدث مع أمي ولكني لم أحس بأنها هناك. كأني أعلم بأنني متأكدة من أنني في يوم من الأيام. سأموت أيضا، رغم أنه يصعب علي تخيل ذلك. كنت أعيش حياتي طول الوقت. كيف لي أن أتخيل وضعا آخر. بم تحس أمي الآن؟ هل تعلم بأني هنا؟ بإمكاني أن أسأل ذلك الرجل المتدين. قد ألقى عنده الإجابة، لكنك لا تستطيع أن تذهب للناس وتسألهم مثل هذه الأسئلة. كانت أمي حية ترزق وتعيش في أحلامي دوما. كانت في الخرطوم دوما ترتدي ثوبا بديعا، في طريقها للخارج وموسى السائق يفتح لها باب السيارة، أو عندما تكون في غرفتها، وأنا أجلس على سريرها- لكم كنت أحب سرير والدي- وهي تقف أمام المرآة تسرح شعرها، وتضع عطراً على عنقها، وهي تدردش مع أبي، وترفع حاجبيها وهي تنظر إلى في المرآة، ونحن نضحك معا لطرفة عن أبي، وعن حديثه المطول عن ملابسه وعن شاربه، وعن إعجابه بسترة "بيار كاردان" التي اشتراها في رحلته السابقة... يقول مفتخرا... "بيار كاردان" وليس أي شيء آخر.

حفر البعض كلمات صلوات على المقعد. كانت باهتة، لكني بذلت مجهوداً كي أقرأها. بحثت عن الكلمات، وكان ذلك هو السبب الذي جعلني أتصل هاتفيا بوفاء. كانت تلك الكلمات هي: "وأغسل خطاياي بالثلج والبرد." لم أكن بحاجة لأتصل بها على كل حال.

قبل أن اذهب للمقبرة كنت قد أخرجت رقم هاتف وفاء الذي كتبته في ورقة صغيرة وأعطتني إياه بعد أن غسلت أمي. حرصت عليه، ولم أفقده أو أرمه. اتصلت بالرقم فرد علي طفل صغير بكلام غير مفهوم. وقعت من يده السماعة، ثم رفعها. لم أفهم منه شيئا. قلت له: "نادي أمك- أين أمك؟"

كررت ذلك دون جدوى. كدت أيأس من رده حتى أتاني صوت رجل على الهاتف وقال لي بلهجة أهل لندن: "السلام عليكم." هل هي متزوجة إذن من رجل غربي اعتنق الإسلام حديثا؟ كنت أتوق لأعرف ذلك. قال لي بأن وفاء خرجت، وأنه يمكنني أن أترك رسالة.

قلت لأنور: "إن أمر الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً غريب جدا. ما الذي يجعل رجلا غربيا يعتنق الإسلام؟"

أجاب بحركة من وجهه تشير إلى جهله بالسبب.

"أعتقد أنهم شجعان."

"تقولين ذلك لأن احترام الذات عندنا كمسلمين متدن جدا، ويجعلنا ذلك نتمنى ونتوق لقبول الآخر. وأعظم قبول لدينا لا بد أن يأتينا من رجل أبيض."

كانت لديه أفكار جامدة عن الدين لا يحيد عنها. كانت الحكومة الإسلامية في الخرطوم هي عدوه، لا ينقطع عن تعداد مثالبها وتناقضاتها. تعجبت حين سألني: "وهل ردت على اتصالك الهاتفي؟"

"نعم. ردت."

"وماذا كانت تريد؟"

"كنت أنا من اتصلت بها. وفاء كانت ترد على اتصالي الأول."

"أنا متأكد من أنها دعتك لحضور درس ديني، أو عرضت عليك بعض الكتب الدينية - كلهم يفعلون ذات الشيء. إنهم يتصرفون بذات الطريقة."

آثرت السكوت، فقد كان ظنه مصيبا. لم أشأ أن اجعلها موضوعا لهزله وسخريته. لقد غسلت جثمان والدتي وكفنته. سأبقى طول حياتي ممتنة لها، مقرة بفضلها، واشعر بأن هناك ما يربطني بها. كانت قد قالت لي: "سنمر عليك أنا وزوجي في طريقنا للمسجد. سيكون هناك درس للنساء في المساء. أنت لا تسكنين بعيدا عن المسجد. يا لحظك! اتصلي بك إن أردتي أن نمر عليك - لا تخجلي."

لم أجد في نفسي حماسة كبيرة لاقتراحها... شعرت فقط ببعض الحزن.

سألتني: "هل تصلين يا نجوى؟"

"لا... لا أدري." تعلمت أن أصلي وأنا طفلة. كنت أصلي في رمضان، والذي كنت أصومه أساسا لأفقد بعض الوزن الزائد، ولأنه ممتع. كنت أصلي أيضا خلال أيام الامتحانات أملا في تحسين نتائجي. كنت أحب لبس ثوب أمي الأبيض، وأحب ملمسه وهو يلف جسدي كله ويشعرني بالراحة والدفء.

قالت لي وفاء: "يجب أن تصلي يا نجوى حتى يباركك الله. الصلاة أول ما سيسأل المرء عنه يوم القيامة. سنسأل عن صلاتنا." لم يعجبني ذكرها ليوم القيامة. يجعلني ذلك أشعر بالكآبة والعصبية. لكن صوتها كان مداهنا وناعما،

وكأنها كانت تتحدث مع طفل صغير أو مريض. جعلت من الصلاة أمرا يسيرا وممكنا، ومن الحصول على بركة الله أمرا في متناول اليد. كم كنت أتمنى لو استطعت تصديق أن كل فرد بمقدوره أن يتصل بخالقه، وأن يكون بريئا طاهرا. سيصعب علي أداء الصلاة، وأن أتذكر مواعيد الصلاة، والوضوء، وأن أجد قطعة قماش نظيفة أغطي بها جسدي. سيكون ذلك أمرا عسيرا. شعرت بوخزة من الشعور بالذنب لتكاسلي عن أداء الصلاة، سرعان ما طرحته عني. سيسخر مني أنور إن علم بأني بدأت أصلي. سيضحك علي وكثيرا.

الفصل الثاني والعشرين

أخبرني بما حدث لساقه. غطسوا ساقه في سطل ملئ بالثلج ليوم كامل بغرض إيذائه... فقط لإيذائه. طلبوا منه التجسس على نشاط الحزب الشيوعي السوداني، وعرضوا عليه سيارة وأموالا، وعندما رفض، حبسوه ووضعوا ساقه في سطل ملئ بالثلج. قال وهو يضحك ساخراً: "هذه هي طريق تعذيب في أفقر دول العالم. ليس هنالك وسائل تعذيب معقدة. ليست هنالك غرفا خاصة للتعذيب، ولا أدوات باهظة الثمن. فقط سطل ثلج." بدأت أبكي. طلب مني أن لا أبكي وقال: "يوجد من كانت حالته أسوأ من حالتي." تتطلب الأمر عند أحدهم بتر ساقه، وآخر أطلق عليه النار، وآخرين لم يكونوا محظوظين مثله، فقد رزق أختا تعمل في الشرطة ساعدته على الهرب. لم أكن أعرف أولئك الآخرين. لم أكن أهتم بأحد سواه. قال بأنه لا يستغرب إن فقدت شقيقته وظيفتها، أو حدث لها ما هو أسوأ، وبأنه لم يودع والدته. قال لي: "لا أود أن أزداد كآبة يا نجوى. دعينا نتحدث عن شيء آخر."

اشتريت له سترة جديدة. أردته أن يبدو أنيقا، فنحن في لندن على أية حال. أعجبته السترة. عرفت ذلك من الطريقة التي أخرجها بها من الكيس، ومن الطريقة التي جربها بها، ببطء وكأنه غير حريص أو متحمس لها، وغير مهتم. كنت مبهورة وهو في غاية الوسامة في تلك السترة. قال "شكراً لك" بطريقة مرتجلة، وبدا للحظات بارداً متباعدا. ربما كانت هديتي له قد جرحت كبريائه. لم يكن يسمح له بالعمل إلا بعد انقضاء ستة شهور من طلبه للجوء، وحتى بعد ذلك لم يكن ليسمح له إلا بالأعمال "العرضية". سألني ما المقصود بكلمة "العرضية" هنا. يدخن كثيراً هذه الأيام. علل ذلك بأنه عاطل عن العمل. لقد كان نشطاً ومشغولا طوال حياته. كنت أقول له: "ولكنك مشغول بالكتابة الآن." كان يكتب للصحف العربية التي تصدر في لندن. كان يجد نفسه في بعض الأحايين يكتب عن نفسه وطفولته وعن أبيه. "لم أكتب من قبل عن أمور شخصية، ولكني الآن أستيقظ من منامي في الصباح متذكراً وبوضوح أحلاما كثيرة عن الخرطوم. كل ما أفعله هو تسجيل وقائع تلك الأحلام." أنور يكتب العربية بسهولة وسلاسة، بيد أن الإنجليزية كانت هي عقبته الكأداء التي تدعوه لطلب عوني. قال لي: "أريد أن أكتب تقارير لمنظمة العفو الدولية". أقترح علي أن نتحدث الإنجليزية طوال الوقت حتى يتحسن نطقه لكلماتها. كان يحب تكرار كلمات بعينها منها "محبط" و"لا محالة" و"سيكسي" (بمعنى حسن). أضحكتني الخلطة بين اللغتين: أسماء عربية مع أفعال إنجليزية تخلط لتكون كلمات هجينة جديدة. أسعده أن يكون

بإمكانه قراءة كل الصحف البريطانية في المكتبة العامة مجانا. كانت المكتبة دافئة أيضا، فهو يكره البرد.

كان يثور علي أحيانا فجأة ودونما سبب واضح. لم أكن أشعر معه تماما بالأمان. قد نكون نثرثر معا في سعادة، وفجأة يتحول مجرى الحديث فيقول: "أنت وعائلتك هي النموذج المثالي لطالبي اللجوء عند وزارة الداخلية - شقة في لندن، حسابات في البنوك متخمة بالأموال التي نالها أبوك بالاحتيال." نعم. نملك شقة، ولكن حساباتنا ليست مليئة بالأموال. قال لي: "لا تحاولي أن تسخري مني. لست غبيا." تشجارنا. أكره أن أتشاجر معه. أكره أن أفسر وأفسر ولكن يقع كلامي على أذنه الصماء، ولا يصدقني. يمتاز أنور بقدرة غريبة على كسب كل جولات النقاش معي، حتى عندما أقول كل الحقيقة. "قد يكون لوالدك حساب آخر... ربما في مصرف خارج البلاد... ربما في سويسرا. من سخرية القدر إنك لا تستطيعين الوصول لها... ولكنها موجودة هناك."

كنت أريده أن يصل معي في نقاطنا الخلافية لمنطقة وسطى، ولكنه يصر على الفوز في النهاية. لا يستسلم أبدا. عرفت أن هنالك أسباباً لمزاجه المتقلب هذا - أخبار سيئة عن زملائه وعائلته في الخرطوم، ومذلة أن يثبت أنه فعلا لاجئ سياسي. قلت له: "أنت حساس أكثر مما يجب. إنهم فقط يسألونك أسئلة روتينية. ستحصل في النهاية على حق اللجوء." يبتسم عندما أقول له هذا الكلام ويضغط على يدي، ويبدو منشرحا، ويبدأ في الكلام. قال: "ذكرت لهم إما سقط النظام اليوم، فسوف أرجع غداً للسودان. لا أريد أن أعيش هنا. ولكنهم لا يصدقونني."... عندما قال: "الحقيقة المرة في السودان" طافت برأسي تلك الكلمات عديد المرات، وتمنيت أن أعرف كيف أتعايش مع هذا الأمر، وكيف أكون سعيدةً معه. هو يقول إن السبيل للتغيير هو الثورة. لكني تأذيت من التغيير ومن الثورة... قتلت أبي. لم تمنحه حتى شرف البقاء على وجه الأرض أكثر من خمسة أعوام.

كان أنور يود أن يسمع مني قصة عملي مع الخالة ايفا. أخبرته بأنها تحتاجني طوال نهاية الأسبوع عندما يأتي ولديهما وأطفالهما يحضرون للزيارة. تحتاجني يوم الاثنين حتى أنظم لها البيت بعد مغادرتهم، ويوم الخميس للتحضير لزيارتهم. لذا غدت الثلاثاء والأربعاء هي يومي عطلتي. قال لي: "عندما تنقضي الستة أشهر الأولي سوف أتقدم للعمل في وظيفة رجل أمن - كثير من السودانيين يعملون في السفارات العربية. نحن الآن مثل اللاجئين الارتريين في السودان." تذكرت الشاب الاريتري الذي كان يعمل "منقذاً" في حوض السباحة في النادي الأميركي الذي كان يبحلق في

وأنا أخرج من الحوض. ربما كان رجلا متعلما أيضا، وربما لم يكن يحب أن يعمل في وظيفة "منقذ" في حوض للسباحة. لم أفكر في هذا من قبل. كان هنالك أيضا عدد من الحراس الاريتريين الأشداء يجلسون حول طاولة في مدخل النادي الأمريكي، ويتأكدون من أن كل من يدخل النادي هو من الأعضاء وليس غيرهم. الآن أتذكر أنهم كانوا يقرأون. أحينا استرق النظر لما يقرأه هؤلاء اللاجئون من كتب، وأسال نفسي وأنا في غاية الغرابة- "منذ متى كان الخدم يقرأون!" - ثم كنت أنسى كل ما يتعلق بهم.

سألت أنور" "ما هي مشكلتنا نحن الأفارقة؟" كان يعلم الإجابة. كان بالحقائق وبالتاريخ عارفا، ولكن شيئا مما قاله لم يعطني راحة أو أملا. كلما تكلم أكثر كلما ازددت ارتباكا، التمس تفسيراً بسيطا، بيد أنه لم يقل شيئاً بسيطاً أبدا. كل شيء عنده معقد. كل شيء مربوط بالاقتصاد والتاريخ. كنا نشاهد في كوينزواي وفي هاي استريت كينزينجتون الانجليز وعرب الخليج والأسبان واليابانيين والماليزيين والأمريكيين، ونعجب مما كان سيكون عليه حالنا لو أن لدينا مثلهم بلد مستقر. مكان يستطيع فيه المرء إن يخطط للمستقبل بغض النظر عن نوع الحكومة القائمة- حكومة لا تفسد علينا حياتنا اليومية. حكومة تمثل "خلفية" معتادة ومطمئنة، وتكون بمثابة منظر طبيعي ثابت. بلاد نستطيع الخروج منها في أي وقت نشأ، وأن نعود إليها متى نشأ، ونجدها في انتظارنا مرحبة بنا. قلت له: "الحمد لله لم يتطلق والداي. كانت لدي أسرة مستقرة- بلدي معطوب، ولكن عائلتي كانت مستقرة." ضحك من كلامي وكأنه قد أزال بعض همومه وقال: "يالك من فتاة ساذجة. ما دخل الطلاق هنا؟"

كان يضع يديه حولي لأننا لم نكن في الخرطوم، بل في هايد بارك، ومن كانوا حولنا لم يكن يبحلقون في الناس. لا أحد يأبه بالآخرين وبما يفعلون، ولا يستغرب أحد مما يرى. كنا أحرارا. لم أكن قد تعودت بعد على ذلك الشعور بالحرية. كانت الحرية تستعبدني عندما أكون معه، وعندما أكون بمفردي أيضا. تماما كما هو الحال في تجربة علمية. كنت أحبس أنفاسي وأنتظر النتيجة.

"مشتاق إليك. افتقدتك."

"دعينا نذهب للبيت. الجو بارد هنا وغير مريح. تعالي معي للبيت. سنكون على راحتنا في البيت."

"زملاؤك في الشقة سيروننا." كان من الممكن أن أدعوه لشقتي. لم يكن فيها أحد. تحديت نفسي لأقول شيئا. بدأ قلبي يدق بعنف.

قال: "أمين وكمال ليسا في الشقة في هذا الوقت من النهار."

"قد يعودان. ماذا سيظنان بي؟"
"هما ليبراليان جدا. لا تقلقي بشأنهما."
"هما سودانيان."
"وأنا كذلك."
"لماذا تصر دوما على كسب كل الجولات؟"
عوضا عن أن يجيب قبلني.
سألته: "هل تحبني؟"
"نعم."
"لماذا؟"
نظر مليا في عيني وقال: "بسبب التنورات الضيقة التي كنت ترتدينها أيام الجامعة. لا تدرين ما فعلته بي في تلك الأيام؟"
ضحكت. إن ذهبت معه لشقته، هل سيقدمني لزملائه في الشقة كخطيبته؟ لا يمكن أن أطلب منه ذلك. يمكن أن أذهب معه وأن أكتشف ما سيفعله. سأرى غرفته، وأجلس عليها، وأتنفس فيها. حقيقة كان الأمر كله بيدي ويخيفني. كانت سهولته ترعبني. لا أحد بمقدوره أن يوقفني. كنت كمن يقف على الحافة، أتحدى نفسي أن أتحرك للأمام. نهضت وقلت: "حسناً. دعنا نذهب." تكلمت بصوت هادئ، وكانت نظرات عيني عفوية حتى لا يظنني هازئة أو مازحة. كان فرحاً لا يكاد يصدق حظه السعيد.
مشينا معاً نحو المنتزه. أمسك بمرفقي وهو يقول: "هذا هو الطريق إلى المحطة."
ابتسمت وأنا أقول: "لا.. بل هذا الطريق."
قال وفي صوته شك عظيم: "إلى أين تودين أن نذهب؟"
ضحكت على التعبير الذي كسا وجهه ورددت عليه، وكأني خدعته: "محل سيلفريدجز." ضحك أيضا. كان في مزاج طيب. كنت استمتع بالتنبؤ بما سيكون عليه مزاجه، وبمقدار تحمله للغيظ.
مررنا بامرأتين منقبتين من نساء الخليج تلتحفان بالسواد من أعلى الرأس لأخمص القدم. عبر أنور بإشارة من وجهه لعدم قبوله بما رأى، وعندما بعدا منا قال: "هذا مقزز. يا للمنظر المسبب للكآبة!" ضحكت من الإشارة التي صنعها بوجهه وسألته: "ألا ينتابك الفضول لمعرفة كل هذا الجمال الذي يخفينه؟". وضع يده حولي وضغط على خصري وقال: "لا فضول عندي إلا لهذا." جعلني ضغط أصابعه أقرقر ضاحكة.
دخلنا محل سيلفريدجز من باب يفضي إلى قسم ملابس الرجال. كان أبي يحب أن يشتري ملابسه كلها من هذا المحل. قمصان كريستيان ديور،

وسترات بيربري لا يلبسها إلا في لندن، وسراويل داخلية من ريد بوكسر. إن ذكرت لأنور سيرة أبي الآن فسوق يثور ويغضب، ويذكر كلامه المعتاد عم البرجوازية وصرفها البذخي، وسيتبخر الود الذي يقوم بيننا في تلك اللحظة.

سألته: "هل تريد أن تجرب شيئا من هذه الملابس؟ لن يكون عليك أن تشتريها فعلا"

"ولكن ما الفائدة؟" بدا غير مرتاح ومتضايق، ولعله أخذ بضخامة المحل.

هززت كتفي وقلت: "فقط كنوع من التغيير."

في صالة العطور جربت عطرا جديدا. طافت بخلدي في تلك اللحظة أمي وهي تنصحني قائلة: "لا تشتري العطور من هنا. يمكننا أن نشتريها بسعر أرخص في السوق الحر." رفعت يدي ليشم أنور العطر. لن يصدق أبدا أن أمي كانت تفكر أيضا في توفير المال. كان يعتقد بأن الأغنياء كانوا يصرفون أموالهم صرف من لا يخشى الفقر، ولا يدخرون من أموالهم شيئا. لمست أنفه معصمي. كان واعيا بذاته أمام البائعات. كان يتضايق دوما وهو في محط أنظار البيض.

أقنعته بأن يجرب بعض العطر أيضا. قال بعد أن وصلنا لـ "كالفن كلاين"، بعد أن جربنا "شانيل" و"باكو رابان": "كفاية.". لم يصدقني وأنا أقول له أنه من المقبول أن لا تشتري شيئا، وأن البائعات لا يهمهن أن تشتري أو لا.

في قسم النساء في الطابق العلوي جربت فستانا للسهرة. كان مقاسه يناسبني تماما، وهو قصير وبدون أكمام. لم أكن بفستان الساتان الملتصق بجسدي وأعيني اللامعة في لندن، بل كنت وكأني في طريقي إلي حفل عرس في هيلتون الخرطوم، وأمي تشتكي من قصر فستاني وعدم احتشامه، وأبي يهب لنجدتي ويأمرها بأن تدعني وشأني لأرتدي ما أشأ. خرجت من غرفة تجريب الملابس ونظرات بعض المتسوقين تلاحقني. وضعت كبيرة البائعات العجوز نظاراتها وهي تقول لي: "إنه رائع عليك." قالت ذلك بصوت خفيض وكأنها تعلم علم اليقين (من تجاربها السابقة) أنني لن أشتري الفستان الغالي. ضحكت عندما رأيت تعبير الدهشة الممزوجة بالإعجاب الذي كسا وجه أنور. نسي عصبيته أمام البائعات البيض. ظل يبحلق في دهشة. كان إعجابه بي أعظم جائزة أتلقاها.

في طريقنا للخارج اشتريت صندوقا من بسكويت ميلي المغطي بالشوكلاتا. أكلناها ونحن في البص في طريقنا إلى بيكاديلي ومتحف البرت الذي كان أنور يود زيارته. جلسنا في الطابق الأعلى من البص لأنه يريد أن يدخن، رغم أن صعود سلم البص يؤذي ساقه. قلت له: "يمكن أن نكون سعداء في لندن. سننسى كل مشاكل السودان." لم يجب أنور. كانت لندن

بالنسبة له مكانا مؤقتا وغريبا للإقامة. كانت حياته في حالة توقف مؤقت. كان دوما في حالة انتظار للعودة للبلاد، وأن يتولى منصبا يعتقد أنه مكانه الصحيح. عندما يسقط النظام (كان أنور يستعمل كلمة "عندما" ويرفض أن يستعمل كلمة "أو") سنعود للخرطوم ونتزوج.

"كيف ستقدمني لزملائك في الشقة؟" أردته أن يقول "كخطيبتي."

"أخبرتهم أننا كنا زملاء في الجامعة. أخبرتهم أيضا أنك جميلة."

"جميلة؟ كل فتيات الجامعة جميلات."

ابتسم وقال: "عندما يقابلونك سيعلمون أنك مذهلة."

قضمت بسكويت الشوكلاتا وتركتها تذوب في فمي... كما كنت أحب دوما، وقلت: "وماذا أخبرتهم أيضا عني؟"

"قلت لهم إن إنجليزيتك ممتازة."

"وماذا أيضا؟"

"لا شيء."

رفعت حاجبي. قال "بالجد. لا شيء." ومسح بإبهام يده قطعة شوكلاتا لطخت ركنا في فمه.

لم أصدقه. بالتأكيد لابد أن حدثهم أيضا عن أبي.

الفصل الثالث والعشرين

اشتريت له أفضل وأحدث جهاز كمبيوتر، وكان اليوم الذي بعث له فيه بالجهاز هو أول يوم أدخل فيه شقته. وضعنا الجهاز في غرفته والتي كانت صغيرة وتفوح فيها رائحة السجائر. فتحت النوافذ لتجديد الهواء، وهو شيء يبدو أنه لم يفعله أبداً لكرهه للبرد. كان في الشقة غرفة جلوس مفتوحة على مطبخ، مع غرفتين أخريين. كانت أكبر الغرف من نصيب أمين، والذي كان والده هو مالك الشقة. أعجبت به على الفور. كان شابا دبلوماسيا مترهل الجسم مبتسم الوجه. كان يحضر لدرجة الدكتوراه في الكيمياء في امبريال كولدج، في نفس شارع الشقة. لم يتحدث كثيراً عن دراسته من باب التواضع. تخيلت إن أنور كان يتوقع أن أكون مثل "أمين"... من أبناء الطبقة العليا، ولكن ملتزم بالقضية والفكر الشيوعي، ويعب في ذات الوقت من ماله البرجوازي. كان كمال شاباً مختلفاً طموحاً يدرس بمنحة دراسية. لم تعجبني الطريقة التي فحصني بها كمال، وكأني لغز يتوجب حله. لم ينظر إلى مباشرة، وكان يتحاشى النظر إلى ولكن ليس بسبب الحياء! كان ذلك بسبب شيء آخر. نشأ بيننا تنافس. كان أمراً سخيفا، ولكن أخذه كمال على محمل الجد. كان أنور يتحدث عن أن لغتي الانجليزية أفضل من كمال الذي يتخصص فيها. كان أنور يمزح، ولكن كمال غضب من قوله هذا، وكان يتحين الفرص لوضعي في مكاني الصحيح.

كان أمين وكمال يصلان إلى الشقة أو يخرجان منها في الأوقات التي أكون فيها في الشقة، فكانا يدخلان لغرفة أنور للدردشة. لم يكن يطرقان الباب- لم يكن في حاجة لذلك، فقد كان الباب مشرعاً دائما- أعجبتني تلك الروح المتبسطة غير الرسمية. كانا يتصرفان وكأني أخت أو بنت عم لهما، وكأني وأنور لا يمكن لنا أن نقوم بعمل مشين. أدخل ذلك السكينة في قلبي.

لم يكن ذلك الصيف مشمسا، ولم تكن في الجو نسمة منعشة واحدة. أعرف مزاج أنور الآن. كان غاضبا لأنه لم يحصل على وظيفة "حارس الأمن" بسبب إعاقة ساقته، وأعقب ذلك حقد صموت. عوضا عن الوظيفة التي كان يرغب فيها، عمل في الأمسيات في أحد المطاعم. نفس المطعم الأثيوبي الذي دعاني فيه ذات مرة. كان أحيانا يحضر معه طعام من ذلك المطعم، وقد أجد جزءاً منه (إن لم يقضي عليه الآخرون) وأسخنه عندما آتي لزيارته في أيام عطلتي الأسبوعية. نأكل معاً ولا يفصلنا إلا صحيفته والكمبيوتر. كان لا يجيد الطباعة بطريقة اللمس كما كنت أفعل. كنت أجلس معه ونتعلم سويا برنامج "وورد بيرفكت" من الكتاب الذي أتي مع الكمبيوتر. أحيانا كان

يبدأ ملفا معينا، ثم أمر عليه مصححة للقواعد. أصر على أن أتعلم الطباعة باللغة العربية. كان يملي علي وأنا أطبع ما يقول. جعلنا ذلك نشعر بالأهمية.

ذات يوم قال لي إنه ألف قصيدة عني.

"أرني إياها."

ابتسم وقال وهو يبعد الورقة عني: "لا. قد لا تعجبك."

"من فضلك."

أبى أن يعطيني إياها، ولكني استطعت أن انتزعها منه. إنتهي بي المطاف جالسة على حجره وأنا أضحك. كانت القصيدة مباشرة وبالغة الحسية.

سألني وهو يضحك: "هل أنت غاضبة؟". لم يكن ليهتم فعلاً إن كنت غاضبة.

أجبته وكأني أريد أن أثبت له أني جريئة: "لا بالطبع."

أطل وجه أمين من باب الغرفة فجأة، فوضعت القصيدة جانبا. قال: "تعالا. دعونا نلعب الورق." كانت الساعة الثانية عشرة منتصف الظهيرة، وقد استيقظ لتوه من النوم متورم الوجه. "سأنتظركم في غرفة الجلوس. يمكننا أن نشرب الشاي ونأكل شيئا." كان بالطبع يلمح إلى أنه يرغب في أن نصنع له الشاي ونعد له البيض للإفطار. كان يتوقع أن يخدمه الآخرون، فهو صاحب الشقة. مسكين أمين. كان مثل الخالة ايفا وكثيرين مثلنا نحس جميعا بالحرمان لعدم وجود خدمنا بالخرطوم معنا هنا. كان يتصرف وكأن أولئك الخدم سيظهرون مرة أخرى من رحم الغيب وينظفون لهم أغراضهم وشققهم. سمعناه يفتح التلفاز ويستمع للأخبار. أغلق أنور الباب وقبلني. بدا مختلفاً، وكنت كذلك أيضا، لأني لم أغضب من قصيدته.

كان من المحتوم أن أجلس يوما على سريره، وأن يضع يديه حولي ويقول: "ألم تعابثين بما فيه الكفاية؟" كنا نحوم حول بعضنا لشهور، ونتبادل الغزل لشهور، وكل هذا الوقت ونحن نعلم أننا في لندن، وندرك بأننا أحرار. كنت أضع في مؤخرة عقلي وأوقن بأني سأصمد، ولكني سأستسلم أخيراً لذلك الجانب العاطفي في دواخلي... ذلك الجزء المحب للكسل والترف، ذلك الجزء الذي يرغب في أن يحصل على الاهتمام والتدلل والمداعبة، وعن طريق هذا الجزء لن أغدو مثلما كنت أبدا. بعد قليل من اللعب أتى الجد، والذي أعقبه سكون شامل مكنني من سماع صوت الكمبيوتر يصدر فحيحا خفيفا. سمعت صوت مفتاح يدور في قفل باب الشقة، وصوت أمين يصرخ وهو يقول: "أنور. هل سمعت الأخبار؟ تعال واسمع الأنباء؟"

قفزنا من السرير في انزعاج عظيم وشعور بالذنب. نعم بالذنب. كان من حسن حظنا أن أمين دلف مباشرة لغرفة الجلوس. ولم يدخل علينا في

الغرفة كما هي عادته. سمعت صور المحطات المختلفة وأمين يبحث عن محطة للأخبار. فكرنا في أن ذلك الخبر لابد أن يكون خبر انقلاب في السودان. انقلاب آخر... وسقوط للحكومة... لعبة كراسي أخرى... سحب البساط من تحت أقدام أحدهم. اندفع أنور من الغرفة ليسمع الأخبار. بإمكاننا العودة للخرطوم الآن، وأن نجمع مرة أخرى ما تبعثر من حياتنا، ونعيدها سيرتها الأولى. قد أرجع طالبة في الجامعة مرة أخرى، وسيستعيد أنور وظيفته السابقة، وأن نتزوج.

مشيت للحمام. ورأسي يدور قليلا وكأني كنت مصابة بالحمى لمدة طويلة وبرأت منها، وأنا على وعي بكل خطوة أخطوها. مشيت بحذر وكأني قابلة للكسر. كانت يدي اليمني عاجزة عن الضغط على غاسل المرحاض أو فتح صنبور الماء - اضطررت لاستخدام يدي الاثنتين معا. كان وجهي في المرآة لا ينبئ بأن شيئا قد حدث. كان شعري أشعثا وكأني قمت من النوم فجأة. ملست شعري قليلا بالماء، ونظفت حلقي. هل سيبدو صوتي عاديا؟ "الأصفر يناسبني". فكرت وخطرت بعقلي ذكرى وأنا أتذكر حالي وأنا أنظر في مرآة حمام آخر. كانت تلك حين كنت أنظر في مرآة حمامي في الخرطوم معجبة بنفسي في قميص النوم الأصفر بينما بابا يرتب أغراضه في حقيبة السفر، وأمي تجادله، ثم صورته وهو يغادر البيت للمرة الأخيرة. كان ينبغي علي أن أكون معه بدلا عن النظر في المرآة معجبة بنفسي. عندما تقيأت في حوض الحمام كانت هناك قطع صغيرة من الطماطم مثل بقع الدم.

كانت الغرفة في حالة سيئة، غير مرتبة، وتشبه غرف الطلاب، وتفوح منها روائح السجائر. يجب أن تكون الغرفة أفضل من أي غرفة في أفضل فندق بالخرطوم مطل على النيل، ملايات سريره بيضاء متألقة. يجب أن يكون فستان زفافي معلقا في الدولاب، ونقوش الحناء على يدي. سأرتدي "روب دي شامبر" جديد مناسب لقميص نومي. أشترت لي ماما ذلك الطقم الغالي بلون الخوخ من محل "سلفريدجز". كانت ستخبر البائعات بأنها اشترته خصيصا لبنتها المقبلة على الزواج، وسيبتسمن لها تلك الابتسامة التي يدخرنها للأجانب الأغنياء. لا ينبغي في ذلك اليوم أن أرتدي بنطال جينز عادي وتي شيرت أصفر اللون. كان ينبغي أن تكون أمي قريبة مني، وتتصل بي عبر الهاتف وتسألني إن كنت بخير.

رجع أنور للغرفة مبتسما وهو يهز رأسه وينقر على جبهته بأصابعه وقال: "أمين مجنون. الأخبار لا علاقة لها بالسودان."

"ماذا حدث؟"

"غزا صدام حسين الكويت."

إذن لم تسقط حكومة الخرطوم، ولن نعود للبلاد.

"لماذا أنت متجهمة هكذا؟ هل أنت بخير؟" كان يحاول أن يكون لطيفا، ولكنه كان يفكر في الأخبار. قلت له: "يجب أن اذهب للبيت. لست في مزاج لأحتمل أمين." تفهم قولي ولم يلح علي لأبقى. مشيت في شارع قلوستر وأنا أفكر في أنه مهما حدث لي، ومها حدث في العالم، فإن لندن تظل كما هي. ثابتة والحياة فيها مستمرة. قطارات الأنفاق تسير كما هي العادة دوما، وأكشاك الجرائد تبيع حلوى شيوكلاتا كادبيري، ولا يزال الناس يسرعون الخطى خروجا من أماكن أعمالهم. لهذا السبب نحن هنا: تسقط حكومات، وتقوم انقلابات، ولهذا السبب نحن هنا. لأول مرة في حياتي أكره لندن، واحسد الانجليز على رباطة جأشهم وثباتهم.. لا ينزحون ولا ينزعجون ولا يرتبكون. لأول مرة أنتبه للون جسدي المصفر مقارنة بلونهم الشاحب الهادئ. ما بالي اليوم؟ عندما وصلت البيت أخذت حماماً ساخناً، وتناولت شوربة معلبة. زالت كراهيتي للندن، وتركتني أعاني الشعور بالمرض.

قال لي إنه يحبني أكثر الآن. لم أكن متأكدة من أني أحبه أكثر، أو أقل/ أو بنفس الدرجة. أنتمي إليه الآن أكثر. يعرفني الآن أكثر من غيري، وأكثر مما عرفني أفراد عائلتي من قبل. لعله من الغريب أن يقرب منك شخص ما لهذا الحد. صار صوته أبعد وأنا أمارس التمارين الرياضية عندما اقترب موعدد دورتي الشهرية. من سيهتم إن حملت منه؟ من سيشعر بالفضيحة؟ هل خالتي إيفا، أم زملاء أنور في السكن؟ لن يعرف عمر إن لم أكتب له في السجن. خالي صالح يبعد آلاف الأميال عني. قبل سنوات قليلة كان خبر الحمل في السودان خبراً مزلزلا يهز مجتمع الخرطوم، كان كفيلاً بإحداث أزمة قلبية لأبي، وإصابة أمي بضربة ماحقة. أما أخي العصري عمر فعوضا عن ضربي فإنه سيكتفي بأن يصفني بأني "داعرة". والآن لا شيء من هذا سيحدث. هناك فقط فراغ عريض يسمي "الحرية."

"قولي لي شيئا يا نجوى. لا تسرحي وتحلمي بعيدا." تخيل لو حدثت أنور عن لون قميص نوم بلون الخوخ... عن ملابس اشتريت لي خصيصا لشهر العسل. قال لي بأن الوجع سيزول قريبا. قال لي أيضا بأن الشعور بالذنب سيزول كذلك. "كغيرك من بنات العرب، فإنهم قد نجحوا في غسل أدمغتكم بأهمية العذرية."

كان محقاً فيما يتعلق بالألم، لكن الشعور بالذنب لم يفارقني. أثار اكتئابي ما رواه عن ذهاب فتيات سودانيات مقبلات على الزواج لأطباء لترقيع غشاء البكارة. كان يقول إن لديه صديق من الأطباء حصد ثروة طائلة من إجراء

عمليات الإجهاض غير القانوني للنساء غير المتزوجات. قال: "تراهن فتجدهن يبدين رزينات حشيمات، يلبسن ملابس ساترة ويدعين الخجل، والقصة كلها عبارة عن تدليس وغش ونفاق. كله ضغط اجتماعي. هل تذكرين البنت التي كتب في التلفزيون إنها اختفت دون أثر، وأن أهلها يبحثون عنها - الواقع إن أبوها أو إخوانها قتلوها والقوا بجثتها في النيل."

مضى في قصته وكأني طفلة غريرة لا تدرك حقائق الحياة... وكأني عشت حياة بريئة سعيدة، وأحتاج لمن يوقظني ويعطيني دروساً في مدرسة الحياة ومآسيها. مضى يقول: "المجتمع العربي مجتمع منافق، يطبق معايير مزدوجة على الرجال والنساء." أتذكر كيف أن عمر كان يسمح له بالتدخين وشرب البيرة فيما لم يكن يسمح لي بذلك. كان يرتاد حفلات غير بريئة ولا يدعني أذهب معه لها. كنت أقبل بهذه الأشياء كمسلمات ولا أحتج عليها. أخبرني أنور أن معظم طلاب الجامعة كانوا يغشون بيوت الدعارة، ولكنهم يضربون أخواتهم إن رأوهن يتكلمن مع أحد من زملائهن الأولاد.

سألته: "وهل كنت أيضا تذهب لبيوت الدعارة؟" وكنت أعلم أنه سيقول نعم.

ضحك قليلا وقال: "كانت هنالك بنت من هؤلاء تعلقت بي." كانت لاجئة أثيوبية مثلها مثل الكثيرات من البغايا. عجبت لأنور لاستنكاره تعلق تلك البغي الأثيوبية الشابة به. انزعجت جداً من أنه كان يتحدث عنها وكأنها حيوان أليف.

"لماذا لا تحبك؟ ربما كنت لطيفا معها."

ضحك وقال: "هل تغارين يا نجوى؟" رميته بوسادة تفاداها بالإنحاء.

حول معي خطا آخر من الدفاع والحجج. تحدث معي عن الغرب وعن المجلات التي أقرأها دوما مثل "كوزموس" و"ماري كلير". قال لي: "كم في لندن من الفتيات اللواتي بلغن من العمر خمسة وعشرين عاما ولا زلن عذراوات؟" ضحكت وشعرت ببعض الراحة والعزاء. صار الأمر بالنسبة لكلينا نوعا من بالتسلية والمرح، فكنا نسير في الشارع وعندما تمر فتاة يسألني: "هل هي عذراء أم لا؟" كان محقا. غالب بنات لندن لسن بعذراوات. كنت من ضمن الأغلبية الآن. الآن أنا لندنية بحق وحقيق. يمكنني الآن المشاركة في تلك الأسئلة التي توضع في بعض المجلات من قبيل: "ما هي درجة سخونة حياتك الجنسية؟" أو "كيف هو أداء عشيقك في السرير؟" يمكنني الآن أن أشير إلى الإجابة من واقع الحال وليس الخيال! "كنت أعلم أنك فتاة غربية التفكير. كنت أعلم أنك فتاة مودرن. هذا ما أحببته فيك - استقلاليتك."

في الواقع كنت أود أن أنال عرساً بهياً مبهراً، يحمل بصمة الرضا والقبول والموافقة، وليس تلك الغرفة القميئة المليئة برائحة السجائر، وذات الملايات التي لا يغيرها أنور إلا لماما، وصوت ضحكات زملائه في الشقة، وطريقة نظرتهم لي الآن وكأني فرد من مجموعتهم. في بعض الأوقات تمر علي لحظات صفاء ووضوح ذهني يسود فيها السكون، وينعدم الصوت واللمس، وأنا أبحلق في جديلة من شعري علقت في الوسادة وأسأل نفسي: "ماذا افعل هنا؟ وكيف انحدرت لهذا الدرك؟" هل استيقظ عمر ليرى جدران السجن، وملايات السجن ليسأل نفسه ولو لثانية واحدة عما يفعله في ذلك المكان؟

قال لي أنور: "لا يمكن أن تكوني تشعرين بالذنب إلى الآن. أنت تستمعين أيضا، وبدرجة كبيرة. عن كان ضميرك يؤنبك، لما رغبتي الآن في هذا الفعل." لذا احتفظت بأفكاري لنفسي. ظلت تلك الأفكار تختمر في رأسي وتدور وتدور في عقلي النشط وغير المتعلم، وبقيت في وحدتي تلك. "لقد صرت لا تتحدثين كثيرا. صرت تسرحين كثيرا." لم أكن أحلم، لا أحلاما سعيدة ولا أحلاما كئيبة. بقيت مستيقظة في سريري أسمع أصوات الشارع، والنافذة مشرعة بسبب الحر. تذكرت الأشياء التي تركتها في الخرطوم: صندل بني اللون، صورة كبيرة لفرقة "بوني أم"، وكتبي وصوري. يا تري أين تلك الأشياء الآن؟ وفي أي يد وقعت؟ عرفت أن منزلنا قد تم نهبه، وسرق كل ما فيه من أجهزة تلفزيون وكاميرات فيديو وأواني فضية ومبردات ومجمدات وسيارات وأجهزة هاي فاي وكاميرات. حتى المكيفات تم اقتلاعها من الحوائط، والمراوح من السقوف. نهبت لأن والدي اتخذ مثالا للفساد، أكثر من الرئيس نفسه... كان مثالا لاغتصاب النظام. كانت فتاحة أظرفه مصنوعة من العاج، وأواني أمي الكريستال- هل حطموها في تلك الفوضى العارمة أم أخذوها معهم في رفق؟ كيف لي أن أعلم؟ يجب أن أنسي وأن لا أحاول تذكر الأمر. رغم ذلك فلا زلت أحس بكتاب "انيت بلايتون" الممزق في يدي، ورائحة الكلورين في ملابس سباحتي، ونسخة من مجلة "كوزموبوليتان" استعرتها من رندا ولم أرجعها لها. اتصلت بها في أدنبرا ذات مرة لأعتذر عن عدم إرجاعي لذلك العدد من مجلتها. ضحكت وقالت: "لا أصدق ما تقولين- مرت خمسة أعوام - كيف تذكرتها؟"

"هنالك رواية أيضا- لم أجد الفرصة لإرجاعها... للكاتبة دانييل استيل"

"لم اعد اقرأ لها. لقد كبرت على ذلك." كانت هنالك ضحكة ساخرة في كلامها جعلتني أبدو وكأني كبيرة ومدققة وحرفية أكثر مما يجب.

أستطيع أن أظل في السرير طوال اليوم. سأتصل بالخالة ايفا لأخبرها بأني مريضة اليوم، وأعود للسرير لأبحلق في السقف، وأنظر أحيانا لساعتي. للعجب مرت ساعة بسرعة، أعقبتها ساعة ثم ساعة أخرى. أحب عندما تأتيني الدورة الشهرية ولا يقربني أنور. تخف حدة الشعور بالذنب حينها. أحب أيضا أنه ليس حريصا على اللقاء في شقتي، ففيها تحوم هالة من روح والدي. قامت الخالة إيفا بتنظيف شقتها وأخرجت أعدادا كثيرة من المجلات أعطتني إياها. قطعت منها صور الأميرات السابقات اللواتي بقين في المنفى: بنات شاه إيران، وبنات الملك فاروق ملك مصر السابق، المنحدر من صلب سلطان الإمبراطورية العثمانية. كلهم الآن في أوروبا يطفون على سطحها، ويقلن إنهن أميرات... رغم أن هذا لا يهم الآن. لقد رفضت الشعوب الإسلامية الملكية وأبهتها، وفضلت عليها الحكومات الثورية. بعد سقوط الإمبراطور هيلاسيلاسى تم سجن ابنته في غرفة صغيرة لسنوات. يقول أنور: "أعرف من أقف بجانبه هنا. جانب الشعب." كان سيسعد إن غدت الإمبراطورية البريطانية جمهورية، ولكني كنت سأحزن بالتأكيد. اشترى خالي نبيل نسخة من كتاب عن الأمير تشارلس، وبعد الفراغ من قرأته أعطاني إياه فقرأته من الغلاف للغلاف. قال أنور: "إنك تضيعين وقتك في مثل هذه الكتب." أزعجتني الكتب التي أعطاني إياها.

اتصلت بي وفاء دون سابق. لم يكن الاتصال في الواقع غير متوقع، إذ أنها كانت تتصل بي كل شهرين أو ثلاثة لتكرر حديثها المعتاد عن ضرورة أن اذهب معها للمسجد، وأن أحضر صلاة العيد في المسجد الكبير. كانت تسألني إن كنت بدأت الصلاة كما وعدتها من قبل. كدت أضحك بصوت عالي. كنت أبعد عن الصلاة بأكثر مما تظن. كنت بعيدة عنها تماما. لم تكن تعلم ذلك بالطبع. لو كانت أكثر عاطفية ورقة للآن قلبي وانفجرت باكية وسألتها عن طريق التوبة. لكن كان قلبي قاسيا. كنت أري وفاء بعيني أنور. كان يراها (وأنا معه) كامرأة أصولية ومتخلفة ومتعصبة... كشخص يحتقر. كان صوتي بارداً وأنا أرد عليها بلا وبنعم، ثم أعتذر بأن علي أن أنهي المكالمة لأني مشغولة. لو لم يكن "جلدها ثخينا" لما اتصلت بي مجدداً. كانت رغبتي في أن أصلي تعادل رغبتي في أن يكون لي جناحان وأطير في الهواء. لا أمل في أن أتوق لذلك. كنت أنحدر... بطريقتي الخاصة، وبأسلوبي الخاص. بدأ أخي مسيرة الانحدار، وسرت على ذات الدرب من بعده في هذا العالم.

الجزء الرابع2003 - 2004م

الفصل الرابع والعشرون

أشعر بالخجل عندما أتحدث أمام جمهرة من الناس. كانت هنالك أكثر من مائة سيدة في حفل العيد في المسجد. كن يتسامرن ويضحكن، بينما ظل أطفالهن يصرخون ويلعبون ويهرولون في كل مكان. افترضت أنهن سيصمتن عندنا ابدأ في قراءة القرآن في الصلاة. التصقت مي بملابسي. كانت أمها قد رفضت أن آخذ ذلك اليوم عطلة، والآن ترفض أن تقوم واحدة من صويحباتي بالإمساك بها. قبعت بجانبي وهي غير معتادة على أن تكون بين هذا العدد الكبير من النساء والبنات يتدافعن في مكان واحد، وبدت مرتبكة ومشوشة. كان الجو العام حولنا عذبا وفوضويا، ولا يسير على نمط واحد. كانت هنالك ضحكات رنانة، وزحمة ألوان، وخليط من حساسية ورفع للكلفة ومؤونة من حشمة بين الحاضرات، وتمرد يشجعه غياب الرجال من المشهد. بدا صوتي غريبا في مكبر الصوت. ظل الأطفال يجرون حولنا، بينما كان هنالك رضيع يصرخ عاليا. قبلت بأن أؤم الناس فقط لأن أم وليد ألحت على. قالت إنه من العدل أن تجد كل واحدة منا الفرصة لأداء تلك المهمة. أصرت علي وقالت: "إنها صلاة قصيرة. الكل يحبونك ويودون أن يرونك تشاركين في البرنامج." ذكرت نفسي بأن لا أتمتم بكلام غير واضح. بدا الأمر سهلا كلما مضيت فيه أكثر فأكثر. ”يا إلهي قد آمنا بمحمد في الدنيا قبل أن نراه، فلا تحرمنا رؤيته في الآخرة." همهم ورائي الآخرون: "صلي الله عليه وسلم." قربتُ الورقة من عيني، فنظري لم يعد كما كان، وكنت أشد غرورا ومكابرة من أن أضع نظارة على عيني. "يا إلهي. أنت خالقنا، وأنت مرشدنا إلى الحق، وأنت تطعمنا وتسقينا... إن مرضنا فأنت تشفينا. يا إلهي نسألك التوبة والغفران من كل ذنب... أغفر لنا خطايانا..." يتهجد صوتي ويكسو كلماتي المكتوبة ضباب كثيف. رغما عن ذلك فلست حزينة. إنني في مناسبة سعيدة، وأنا فرحة بانتمائي لهؤلاء الناس. سعيدة بأني لم أعد مفارقة للجماعة، ولم أعد مكابرة أو متحدية. بقي سطر أخير: "يا إلهي. اسبغ علينا من رحمتك حتى نحب من تحب، وأن نحب كل ما يقرب إليك من قول أو عمل."

وضعت مكبر الصوت على الطاولة وحملت مي في حضني. في طريقي لمقعدي حييت من أصدقائي ممن لم أر آنفا، والقليلات اللواتي لم أرهن في اليوم السابق في صلاة العيد. كنا سعداء أن نري صويحباتنا دون حجاب، وفي كامل الأناقة والبهاء احتفاءً بالعيد. سعداء بأن نري شعور صاحباتنا وبشرة أعناقهن، والمكياج المبيض الذي يكسو وجوههن. تنظر كل واحدة منا في الواحدة وتضحك في استغراب. ليس فقط بسبب أزياء العيد المبهرة،

ولكن لأن منظر كل منا بغير حجاب يدهش الأخريات. البعض منا تتغير تماما بدون حجاب. لم أربط بين واحدة من الشابات الحسناوات، شقراء تضع مكياجا بالغ الدقة والاتزان، وتلبس بذلة ذات بنطال ضيق، بالفتاة التي كنت أراها متوشحة بالكامل بذلك السواد الكئيب وهي تقود كرسيا متحركا عليه طفلها المفرط الحركة. اليوم هي في كامل زينتها وكأنها ضيفة في برنامج تلفزيوني شهير. ابتسمت في وجهي، وعرفت جانبا منها لم أكن أعلمه من قبل، وهو أنها بالغة الأناقة والجمال. اليوم بدت أظافرها مطلية. جاء دور "أم وليد" للحديث. تكلمت عن شهر رمضان المعظم وعن فوائده، وعن ما يجب فعله بعد انقضاء الشهر الفضيل. قالت إن الله زين الجنان لمن صام رمضان إيمانا واحتسابا. مضت بالقول: "تصوري يا أختي العزيزة وأنت تنتظرين ضيفا عزيزا، وتزينين الدار له..." كان وجهها بدون حجاب يتلألأ وهي في ملابسها القرمزية الضيقة. بدت عربية قحة... فكرت في أن هذه هي حقيقتها. لم أعتقد أنها متطهرة بطبعها، وليست زاهدة ولا متقشفة ولا متحفظة. ما دعاها لتغدو معلمة للقرآن دون مقابل مادي هو صدق عقيدتها، وليس غير ذلك. كانت صادقة في دعواها لنا لنتعلم ونتغير. ليست تلك هي شخصيتها هي التي تدعوها لتغطي جسمها المكتنز في عباءة ضخمة. إن نظرة الفزع البادية في عينيها ليست فعلا نظرة فزع بقدر ما هي نظرة انفعالها بالحياة.

تتحدث عن العيد وكيف أن الملائكة يقدمون لنا الهدايا فيه، ثم تحدثنا عن ضرورة محاولة الحفاظ على سلوكياتنا الرفيعة التي التزمنا بها في شهر رمضان، وأن لا نعود بعد انقضائه لما كنا عليه من تراخٍ ورقة في الدين. "صلاة النوافل، والتصدق على الفقراء، والتلاوة اليوميةً للقرآن، والامتناع عن الغيبة والنميمة، والحسد والكذب- يجب أن نوطن أنفسنا على مثل هذه الفضائل في رمضان، وأيضا بعد رمضان وطوال العام. ولا تنس صيام ستة أيام من شوال تطوعا. إن لم تكوني تستطيعين أن تصومي ستة أيام فخمسة أو أربعة أيام. صوم يوم واحد خير من لا شيء." ستبقى كلماتها راسخة في عقلي - كما هي العادة دوما. وهذا مما أعجب له، فهي ليست صديقتي حقا. لا أعطيها أسراري، ولا نتحدث كأصدقاء خلص عندما نكون وحدنا. لسنا على طبع واحد، بل ندور في أفلاك مختلفة. سيأتي اليوم الذي تمضي فيه "أم وليد" إلى حال سبيلها وتنساني، ولكنها عندما تتحدث عن الله سبحانه وتعالى، وعندما تقول: "سبحانه يتحدث إلينا. ألسنا محظوظين؟ بوسعنا أن نفتح القرآن الكريم ونجده يتحدث إلينا مباشرة." هنا يحدث اختراق عظيم في فهمي للدين، وفتح كبير، عرض لي فجأة كلمع البرق.

عندما تقول: "يا حبيبي يا رسول الله" أحس بحب رسول الله يسري في دمي كما عندها تماما.

في فترة الاستراحة بين حديث "أم وليد" والفقرة التالية في البرنامج تبادلت التحايا مع مزيد من الأخوات، وتبادلتُ مع بعضهن حديث الذكريات عن الاحتفالات الماضية، وعن من كان معنا من الأخوات وسافرن لأماكن مختلفة. قبلت مزيدا من الأطفال وأبديت إعجابي بملابسهم الجديدة الجميلة وكدت أصرخ من الاندهاش عندما رأيت صديقة لي بدون حجاب وذلك للمرة الأولى. كانت هنالك واحدة تضع مكياجا ثقيلا من الكريمات الملونة، وهذه تبدو كعارضة أزياء، وتلك تبدو وكأنها في ملابس البيت وهي من غير حجاب، وثانية كانت من النوع عديم الجاذبية بحجاب أو بدونه، وليس لها في ذوق اختيار الملابس نصيب. بدت في بذلتها في احتفال العيد وكأنها رئيسة مجلس إدارة شركة كبرى. كانت هنالك واحدة بدت كراقصة شرقية (وهي ليست بالتأكيد كذلك) فهي زوجة وقورة لطبيب محظوظ ولها من العيال أربعة بنات، ربتهن فأحسنت تربيتهن، وأخرى بدت كطالبة شعرها منكوش وترتدي نظارة سميكة. رأيت واحدة متشبهة بالرجال. أتصور أنها كانت طفلة تحب لعب كرة القدم مع أخوانها الصبية، وهي تعمل الآن كمدرسة في روضة للأطفال. كانت هناك هندية (ما كانت في حاجة لتخلع الحجاب لأعرف أنها هندية)، أتت متزينة بالجواهر والحلي، مرتدية الساري وشعرها مطلق السراح يصل إلى نهاية ظهرها. بدت هندية مرتاحة وتقليدية حتى النخاع. أسرت لي التي بدت كعارضة أزياء هامسة (بعد أن طلبت مني كتمان الأمر) بأنها كانت في يوم ما ملكة جمال جيبوتي، قبل أن ترزق بأطفال وقبل أن تغطي شعرها بوشاح.

ضحكت عندما قالوا لي: "تبدين كغجرية". لا بد أن السبب كان هو نوع تنورتي وأقراط أذني، أو ربما كان منظري مريبا يبعث على الفضول ويخفي من الأسرار الكثير. هذه ليست حفلة تنكرية. ولكن بدا الحجاب هو الزي الرسمي، وصورتنا المعروفة عند الناس في الخارج. بدون الحجاب تنكشف هويتنا.

غنى الأطفال كجزء من البرنامج، وأعقب ذلك مسرحية قصيرة سيئة الإعداد والإخراج، لكنها نجحت في انتزاع بعض الضحكات. رقصت بعد ذلك شاهيناز. لقد قضت الأسابيع الفائتة وهي تتدرب على رقصتها، فقد كانت تود تجويدها. رفعت مي بحيث تتمكن من مشاهدة الرقص. "انظري إليها. ألا تبدو كأميرة؟" تابعت - والآخرين- قدميها وهي تهتز مع الإيقاع، وحول كعبيها حلقة مذهبة، وهي تحرك يديها. لم يستطع أحد من الحاضرين أن يحرك

عينيه عنها. فقط كان الرضيع أحمد مشغول عن الرقصة وهو شبعٌ وراضٍ وسعيد في حلتة الجديدة... في زي بحار يرتدي طاقية. أحضرته جدته ليَ وجلست بجانبي. أخذته منها وضممته إلي. قبلت خديه الأملسين ويديه الممتلئتين. لا أحد من الأطفال يترك في أثرا مثلما يفعل أحمد. همست في أذنيه: "هل ستصير راقصا ممتازا كأمك؟". يضحك معي، وأنظر أنا إلى شاهيناز الرقيقة الماهرة- وكأني أشاهد عرضا محترفا أو شريطا سينمائيا. لمحت ابنتها الكبرى تنظر في إعجاب وانبهار إلى أمها ترقص وكأنها لا تصدق أن التي ترقص أمامها فعلا هي أمها.

كانت شاهيناز على العكس منا نحن العرب. فحين نرقص يسود الضحك والفوضى، ولا نجود الرقص ولا نتدرب عليه. يخيل إلى أن شاهيناز كانت تتدرب ومنذ فترة على الرقص في بيتها. شعرت بالدفء من رقصها، وضحكت، ولكن مي لم تكن فرحة، فضممتها إلى صدري حتى حان موعد الطعام.

انشغلت مع شاهيناز بترتيب صحون الورق وصفوف الأطفال، وأسرت لي شاهيناز في أثناء ذلك بأنها قدمت طلبا لتدرس كطالبة ناضجة علم الخدمة الاجتماعية. هنأتها، وحدثتني عن خططها للعام القادم، وكيف أن حماتها ستساعد برعاية الأطفال، وكيف أن ذلك سيشغلها جدا. دعتني لزيارتها بالمنزل قائلة: "لم تأتِ لزيارتي هذا العيد." ودعتني لمرافقتهم لقضاء بقية اليوم في منزلهم.

"كنت أود الذهاب معك. ولكني سأعود بمي لمنزلها."

وقفت وودعتني بقبلة وقالت: "كنا نتقابل يوميا في صلاة التراويح. والآن تعود كل منا للانشغال مرة أخرى."

أعرف تماما ما تقصد. لقد قربتنا ليالي رمضان إلى بعضنا البعض. امتلأ المسجد بالمصلين طوال ليالي الشهر الفضيل. لقد بذلنا جهدنا في أداء الطاعات واحتمال الجوع والعطش وتجنب المعاصي. في العشر الأواخر من رمضان ازدادت أعداد المصلين، وزاد الخشوع، وحسنت القراءة، وبقينا لليال عشر نستمتع بحلاوة القرآن، وبالمزاج الطيب المبارك الذي ينشره. ذات مرة قالت لي امرأة تجلس بجانبي: "الليلة شعرت كأني في مكة المكرمة. ذات الشعور الذي يأتيك وأنت في مكة... تجمع الخلق في مكان واحد، والمتعة الروحية."

أما الآن وقد إنقضى شهر رمضان، فإني أتعجب من أين سأستمد طاقتي- كنت أصوم النهار بطوله أثناء العمل، وعوضا عن أن أذهب إلى البيت في المساء، أذهب إلى المسجد مباشرة. أفطر هناك مع جمهرة المصلين. أحيانا

لا تكاد مكانا للجلوس إلا بالكاد. ثم نقف جميعا للصلاة، وفجأة يتسع المكان، ويبدأ الإمام في تلاوة القرآن.

في رمضان كنت أجد من يرجعني يوميا للبيت. حدثت تلك المعجزة عندما تعرفت على زوجة السفير السنغالي، وهي إحدى النساء اللواتي لا يأتين إلى المسجد إلا في رمضان. كانت تصلي بجانبي، كتفا لكتف كل ليلة... فقط بسبب حب كل منا للمكان الذي كنا نقف فيه للصلاة، بعيدا عن السخان، وقريبا من النافذة، حيث تهب علينا نسمات مسائية منعشة من الشارع. لم أخبرها إنه أتى علينا زمان كان الدبلوماسيون (مثل زوجها) وحتى رئيس السودان يزورونا بانتظام في منزلنا. لم أخبرها بغير اسمي وما أعمل. لم يكن هنالك من داع لغير هذا. لم نأت لغير العبادة، وما أخبرتها به يكفي وزيادة. توافقت حركاتنا. لم تكن تتململ وهي واقفة في الصلاة، وأعجبني هذا فيها. كانت تقف بجانبي وتسد الفرج - كما هي السنة- وهذا يعجبني أيضا. لثلاثة أسابيع كنا نقوم ونركع ونسجد في اللحظة ذاتها. ثم جاءتنا الدورة الشهرية. ذات يوم غابت جارتي في الصلاة، وغبت في اليوم التالي.

في الطريق للمنزل نادرا ما كنا نتبادل الحديث، وكانت تأمر سائقها بأن يأخذها لدارها أولا. أعجبني ذلك فيها. كانت طيبة حنونة دون أن تظهر أي قدر من التعالي أو الغرور. في سيارتها المترفة الناعمة الصوت كنت أغفو مع صوت السيارة وصوتها تتحدث في هاتفها النقال بلغتها السنغالية. كنت أحيانا أحلم بأني رددت صغيرة السن، يدللاني أبواي. كانا يحباني، وكنت آمنة في حضنهما. كنت أجعلهما يضحكان. في بقية العام كنت فقط آمل، ولكني في رمضان كنت أكثر ثقة في أن الله سيمنحني مجددا تلك السعادة المفقودة إن واصلت في درب الطاعات وهجر المعاصي، وسيبدل ماضي الذي ولي بحياة أفضل وأكثر سعادة.

كان تامر في الشقة عندما عدت مع مي. رأيت حذائه في الصالة، ولكنه كان في غرفته المغلقة. قدمت لمي طعام العشاء، وكانت جائعة، إذ كانت قد رفضت تناول أي شيء أثناء حفلة العيد. لم تفتح حتى الحقيبة المليئة بالحلوى والبالونات والألوان والتي أعطيت لكل طفل كهدية، وإنما ظلت حقيبتها مغلقة وهي قابضة عليها. بدا عليها الارتياح والارتخاء في بيتها مع أشيائها المألوفة. كان المطبخ على حاله كما تركته في الصباح، ومقعدها العالي وعليه عشائها الذي كنت أعلم إنني لن أجد الوقت لتحضيره في المساء. بدأت تغني وتنطق ببعض حروف وتخبط بملعقتها على الطاولة. قلت لها: "ستوقظين خالك هكذا. ربما يكون نائما."

قضى العشر الأواخر من رمضان معتكفا في المسجد. لم ترض ليماء عن اعتزاله الناس، وتحدثت معي في الأمر في لحظة صفاء وصداقة نادرة. قالت: "إنه يغيب عن محاضراته أياما كثيرة. كيف سيمكنه تعويض ما فقده؟ هل هذا ضروري؟ لا أدري لماذا يفعل هذه الأشياء الغريبة؟" عاد للمنزل في الليلة الأخيرة من رمضان بلحية شعثاء، ويحمل كيسا كبيرا به ملابسه المتسخة. نظر إلى إليه نظرة عميقة بعينين صافتين لامعتين، وكأن بمقدوره رؤية أشياء أخرى، أو كأنه مر للتو بتجربة تطهر فيها وتواضع. اشتقت لحديثه عن تلك التجربة التي ابتعد فيها لعشرة أيام متصلة عن الحياة الدنيوية وصخبها، وقضاها في الصلاة والصيام والتلاوة والذكر.

دخل المطبخ وهو يحمل بيديه الاثنتين ما بدا أنه صندوق موضوع في كيس بلاستيكي. قال لي مبتسما إن الصندوق لي بمناسبة العيد. كنا لم نتحدث مع بعض منذ أيام، ولكن يبدو أن صداقتنا قد عادت للحياة من جديد. مسحت يدي في مريلة المطبخ وفتحت الصندوق فوجدت فيها كعك (خبيز) معمول بالسمن ومطمور في حبيبات السكر. شكرته فتجاهل الرد علي، واكتفي بمسح شعر مي ورفعها من كرسيها العالي. أرته كيس هديتها، وشرحت له ما جرى في الحفل.

توقف عن الابتسام وقال: "كان ينبغي على ليماء أن تمنحك اليوم إجازة."

رددت عليه بالقول: "ليست هنالك مشكلة. مي لم تتعبني في الحفل."

"لقد أخطأت لمياء هنا. كان ينبغي أن تأخذي اليوم كعطلة. كنت سأتحدث معها لو علمت عن الموضوع."

"ربما كانت لديها محاضرات لا تريد أن تضيعها."

"ليس لها محاضرات. هي تحضر لدرجة الدكتوراه"

هززت كتفي وقلت: "حسنا... الموضوع انتهي الآن. لا تنزعج للأمر."

نظر إلى عميقا وقال وعينيه صافية ومركزة علي بقوة أكثر مما كان يفعل قبل اعتكافه.: "حسنا فعلتي بأخذك مي إلى حفل المسجد. ماذا كانت ستفعل أمها لها. لا شيء. لا فستان جديد... لا لعب... لا فسحة."

دافعت عنها تلقائيا وقلت: "ربما كان لديها ما يشغلها في الدراسة..."

رد بسرعة مقاطعا: "دراسة... دراسة هذا هو هوس هذه الأسرة! إن الاحتفال بالعيد واجب ديني. يجب أن نفرح في هذا اليوم، وأن نعطيه زمنا من وقتا."

قدمت له كعكة لتغيير دفة الحديث، ولكنه رفضها قائلا: "إنها لك."

"من فضلك خذها. يمكننا أن نتناول الكعك مع الشاي."

جلس على كرسي حول المائدة، وأحضرت الأكواب والصحون من الدولاب وسخنت الماء في المغلاة الكهربائية.

قال: "عوضا عن أن أتذمر وأشتكي من أن لمياء لا تفعل شيئا لمي، يجب علي أن أفعل أنا شيئا لها أيضا.." ابتسمت، فأضاف قائلا: "ما رأيك في أن نأخذها غدا إلى حديقة الحيوانات إن أردت..." بدا غامضا أو لعله الحياء.

"غدا هو يوم إجازتي. سأذهب لزيارة عمر."

"بعد غد إذن."

هززت رأسي موافقة، وبعد صمت قليل سألته: "أخبرني عن اعتكافك بالمسجد؟ كيف كان؟"

"وجدت اليومين الأولين عسيرين جدا، ولكن في النهاية لم أكن أريد مفارقة المسجد. في البداية وجدت عدم مشاهدة التلفزيون وعدم الذهاب للمحاضرات أمرا غريبا. مر الوقت ببطء شديد. افتقدت حمامي الخاص، والنوم على سرير. كان عددنا كبيرا، وكان النوم بالليل صعبا لارتفاع أصوات المعتكفين حين يتكلمون، أو حين يتلون القرآن. لم أكن أنام جيدا. ولكن بعد اليوم الثاني بدأت أتعود، وتأقلمت تماما. نسيت تماما أمر الحمام الخاص. لم أنزعج لوجبة الكري بالبهارات الهندية تقدم لنا عند الساعة الثالثة فجرا في السحور... تصوري!"

ضحكت لقوله ورددت: "لا يمكنني أكل أي شيء في تلك الساعة من الفجر غير "الكورن فليكيس" أو الخبز المحمص. لا يمكن أن أكل وجبة كاملة."

"أنا مثلك، ولكن "الكورن فليكيس" كان قليلا."

"في رمضان العام القادم، يجب أن تأخذ معك كل ما تحتاجه."

"يااه." قالها وكأن العام القادم بعيد جدا لا يمكن التفكير فيه الآن. كان لدي نفس النمط من التفكير عندما كنت شابة... كنت أرى الوقت يمر متثاقلا ببطء شديد، ولكني أراه الآن يمر عدوا أمام ناظري.

كان مرتاحا ومرتخيا ومبتسما فقلت له: "تبدو مختلفا بعد عودتك من الاعتكاف، وكأن نورا يشع من وجهك."

"وهل فقدت ذلك الإشعاع الآن؟"... كان لديه حب الاهتمام بذاته... كما عند صغار الفتيات.

صمت برهة وقلت: "لا."

بحركة من وجهه عبر عن عدم تصديقه لما قلت.

"لن تفقد ذلك الإشعاع بسرعة."

قال، وأنا أعلم من صوته أنه لم يبح من قبل لأحد بما يقول: "فعلا شعرت بأني قوي روحيا. أحسست بنوع من الانفصام عن الواقع، وكأن الأشياء لا تهمني... ليس من باب الإهمال أو الغضب، بل من باب القدرة على انجازها في قفزة سريعة. سألت نفسي: وماذا سيجري إن لم أحبب ما أدرس؟ كلها ثلاثة سنوات وستمر سريعا وأتخرج بعدها. لم يدم ذلك الإحساس طويلا. لم يكن بوسعي أن أديم ذلك الشعور في دواخلي. ولكني كنت في غاية السعادة مع ذلك الشعور."

قضمت أول كعكة في العيد، وتركتها في فمي مستمتعة بمذاقها السكري، وبالتصاقها بأسناني. مع تامر يجلس قبالتي في طاولة المائدة تبينت أني أحتفل فعلا بالعيد. لم أعد صائمة بعد الآن. رقصت في النهار، والآن تأتيني هذه الهدية في المساء. جعلتني السعادة أجد في نفسي الجرأة لأسأل: "هل لي أن أسألك هذا السؤال وأن تعدني بأن تجيبني بالحق؟"

"نعم." كان الصدق باديا عليه ويديه حول كوب الشاي.

"هل طلبت منك لمياء بأن تحضر لي هذا الكعك؟"

هز رأسه بالنفي وقال: "لا".

"ألم تقل لك: يا تامر. هل تصنع لي معروفا وتشتري للخادمة شيئا للعيد؟"

أبتسم ورد قائلا: "لا. لم تفعل."

"إذن لماذا تتبسم؟"

"أنا فقط ابتسم."

"يبدو إنك لا تقول الحقيقة."

ابتسم مرة أخرى وقال: "أنا أقول الحق. بالجد. هل تريدينني أن أقسم؟"

الفصل الخامس والعشرين

حاولت أن آخذ معي إحساس العيد إلى عمر في سجنه، ولكني السجن أعادني للواقع. وضعني السجن في مكاني، صغيرة منكمشة... تماما كما فعل بعمر. كنت أتمنى أن يطهره السجن، وأن "يعصره" ويعيده لي كما كان. عوضا عن ذلك فالسجن "يحتوي" المرء و"يؤهله". أدخل في مقررات دراسية صممت لجعله "يعالج" جريمته و"يعترف بذنبه". ليس هنالك تطهير للعواطف ولا تكفير عن ذنوب. هنالك من الأشياء ما لا يمكن أن يقال، ومن الأفكار ما لن يرى النور أبدا. تمنيت لو أنه عوقب في أول مرة تناول فيها المخدرات. أن يعاقب حسب قوانين الشريعة- مائة جلدة. تمنيت ذلك، وبطريقة فيها الكثير من المرارة وعدم الجدوى. كانت تلك العقوبة ستردعه وتحميه من نفسه.

قال لي: "هل تعرفين أنه عندما أحضرت هنا للمرة الأولى، وضعت في جناح المستشفى. يفعلون ذلك لكل من تتجاوز عقوبته أكثر من أربعة أعوام. يودون التأكد من أننا لن نحاول الانتحار."

"يا للفظاعة."

"ما هو الشيء الفظيع؟ هل إننا نود أن ننتحر، أم أنهم يريدون أن يمنعوا ذلك؟"

"الإثنان فظيعان"

كان صوته رقيقا وهو يقول لي: "عليك أن تكفي عن زيارتي يا نجوى. زيارة السجن تزعجك. ظللتي تزورينني كل هذه السنوات..."

"لا تكن سخيفا. هذا واجبي..."

"تشعرين بأن هذا نوع من الواجب"... أليس كذلك؟ عندما يتحدث هكذا لا يبدو عمر كسوداني أبدا. نسي تماما الترابط بين الواجب والحب والحاجة. يستحيل علي ن لا أزوره. طالما هو في السجن، فأنا معاقبة أيضا.

قلت له: "اتصلت بالهاتف مع خالي صالح لأهنئه بالعيد، وهو يرسل إليك تحياته، ويسألك عن سبب انقطاعك عن الكتابة إليه."

هز عمر كتفيه وأخرج نظارته ونظفها بطرف قميصه وقال" "الكتابة إليه ليست سهلة. لم أره منذ سنوات."

"حسنا. سألته إن كان سيأتي هنا أو يذهب للسودان. قال إنه لم يعد يحب السفر، خاصة لمسافات طويلة. يتعبه السفر."

وضع عمر نظارته مرة أخرى، وسألني: "كيف يسير عملك؟"

أخبرته عن اعتكاف تامر في المسجد، وكان ذلك مصدر تندره. ضحك وقال إن تامر شاب متعصب. شعرت بأني خنت تامر، ولكن أعجبني أن عمر

يضحك، وأنه يستمع لي. ما زلت لا أستطيع أن استحوذ على اهتمامه وتركيزه لمدة طويلة. انسحب كلانا. أنا انسحبت لأفكاري حول تامر، ولا أدري إلى أين انسحب عمر. لا علم لي بما يدور في عقله.

قال وهو يغير من وضع جلسته على المقعد: "سأخرج من هنا قريبا. ربما بعد عام أو ربما ستة شهور."

كان من المفترض أن يخرج قبل سبعة سنوات، ولكن تم اكتشاف مخدرات معه قبل الجلسة التي كانت ستصدر قرار إطلاق سرحه المشروط، وفقد بذلك فرصته. الآن لا بد من أجبر نفسي على أن أكون ايجابية، وأن أبدو وكأني أصدقه. قلت له: "هذا رائع. ماذا ستفعل؟"

ضحك قليلا وأشاح بوجهه بعيدا عني وقال: "أذهب إلى بيرجر كنغ."

"أقصد ماذا ستفعل بخصوص العمل؟ هل ستبحث عن عمل؟ هل ستتدرب لوظيفة ما؟"

"نعم. سيضعونني مع ضابط للمراقبة. سيعطونني نصائح حول فرص العمل." مسح جبهته، وشعرت أنه قلق أو ربما خائف قليلا من الخروج من السجن. سوف يتألم قليلا.. مثل الذي يتعرض للضوء فجأة بعد طول بقاء في الظلام.

رددت بسرعة: "لو كان لدي مال، كنت سأعطيه لك لترجع للسودان. يمكنك أن تبدأ هناك من جديد. لا أحد هناك يعرف ماذا كنت تفعل وأين كنت في الخمسة عشر عاما الماضية."

"لن أذهب إلى السودان إلا للزيارة فقط. لأثبت أن بابا كان بريئا. لم يكن لديهم أي دليل ضده، ويمكنني إثبات ذلك."

تذكرت كيف كان عمر يجادل أبي كثيرا، ولكن عمر كان المدافع الأكبر عن بابا. قال: "أريد تبرئة اسمه."

وماذا أريد أنا لوالدي؟ كنت أدعو الله له بالغفران عقب كل صلاة، وأسأله أن يسبغ على روحه الرحمة. لكني لا أتوق لتبرئة اسمه. لقد أدين بجرم وحكم عليه، وعلينا أن نتعايش مع نتائج هذا الحكم.

سألت عمر: "وماذا سيستفيد من تبرئة اسمه؟"

"ستفيدنا براءته. قد تعيد الحكومة لنا بعض ممتلكات بابا المصادرة- المنزل أو المزرعة."

"ربما." تخيلت أن المعركة ستكون طويلة ومريرة، وقد لا تثمر إلا القليل.

أصر عمر. "فقط لنثبت أن كل ما أتهم به كان مجموعة من الأكاذيب، دافعها السياسة والحقد والغل."

"ولكن بالنسبة له... ما هي الفائدة. أين هو الآن؟ الأفضل أن نصلي له وأن ندعو الله بالرحمة، وأن نتصدق للفقراء على روحه. هذا كل ما يفيد الميت."

"الميت ميت يا نجوى، ولا شيء يهم بعد ذلك!" جلس مرتاحا على مقعده، وبقي عالم واسع يفصلنا عن بعضنا البعض، برغم رابطة الدم وبرغم الحب.

"أنت مخطئ. الأشياء ليست في الحقيقة كما تبدو. لماذا أنت هنا؟"

أزعجه قولي وصار متوترا وقال: "عن ماذا تتكلمين؟ أنت تعرفين لماذا أنا هنا." يجب أن لا أضايقه أكثر وإلا سيتوقف عن إرسال دعوات الزيارة لي.، ولأن استطيع أن أراه مرة أخري. ولكني كنت مختلفة اليوم: "أنت هنا لأنك كسرت قلب ماما. ينبغي أن لا يغضب الابن أمه. أصابتك لعناتها بسوء الحظ، والله يستجيب لدعوات الأمهات."

نظر إلى الأرض مليا ثم قال: "لم أسيء إليها."

"دفعتها. كانت مريضة ودفعتها بيدك."

"لم أقصد. لم ترد أن تعطيني محفظتها. إنه مالي. لقد أغضبتني."

عندما سألني تامر عن سبب سجن أخي قلت له: "لأنه طعن شخصا وكاد يقتله."

كنا في طريق العودة من حديقة الحيوانات. ضايقتني مناظر الحيوانات التي جلبت من بعيد وهي في الأقفاص، بيد أن رفقة تامر وفرحة مي بالفسحة جعلت تلك النزهة بهيجة مفرحة.

قلت: "كان ذلك الشخص هو أحد رجال الشرطة الذي كان يحاول اعتقاله. كانوا يريدون اعتقاله لبيعه المخدرات."

"كيف فعل ذلك؟". كان صوته يفيض بالإثارة من العنف في ما رويته. كان لصوته رنين خاص، وكان وسيما بصورة لافتة في ذلك اليوم. زاد البرد من ابيضاض وجهه. كان مجرد النظر إليه مثيرا.

"بالسكين.."

"مطواة؟"

"سكين ستانلي... السكين الصغيرة التي تفتح بها الصناديق."

تنفس بصوت مسموع وقال مندهشا: "واووو!" لكن سرعان ما بدا منطقيا وأضاف: "هذا فظيع."

"عمر لم يكن يعرف أن الرجل يعمل شرطيا. لم يكن يلبس زي الشرطة الرسمي."

"لعله كان شرطيا سريا في ملابس مدنية."

"نعم كانا إثنين. تابعاه ليعتقلاه. ولكنه قاومهما." قضيت سنوات طويلة وأنا أكتم ذلك السر، وأنا أبوح به بسهولة الآن لهذا الصبي. أيقنت أني لم أكن أدرك مقدار العنف في القصة التي رويتها. أقول كلمات دون أن أتصور العنف الذي كنت أصفه. أقول كلمات لا توجد لها صورا ذهنية في دماغي. إنه النكران. نكران الأذى الذي أمكن لشخص من دمي ولحمي أن يسببه. تركنا الطريق واتجهنا نحو طريق صغير يقود إلى قناة مائية. يكون الكلام أسهلا وأكثر رقة عندما تكون بعيدا عن الزحام. التفتت مي لتبحلق في الماء.

"هل يمكنني أن أزوره معك في السجن المرة القادمة."

ضحكت وقلت: "لماذا تود فعل ذلك؟"

هز كتفيه وقال: "لأري كيف يبدو السجن."

فسرت له سبب استحالة الأمر. هو شاب طاهر وينبغي أن لا يفتن بالمعصية. كلمته عن ضرورة أن تأتي الدعوة للزيارة من السجين نفسه، وكانت عيناه لا تفارقان وجهي. قال لي: "إني آسى لحالك." كنت في حاجة لسماع ذلك منه. بدا قوله شيئا قويما ومنعشا في ذات الوقت. سألني إن كان عمر قد حاول الهرب من السجن، كما يفعل المساجين في الأفلام السينمائية. كان تامر في استفساره يتأرجح بين العمق الروحاني وعدم النضج. ذلك التأرجح كان جاذبا لي، ويستأثر باهتمامي.

الفصل السادس والعشرين

"كيف لم تتزوجي حتى الآن؟" بدا الآن واعيا بذاته أكثر مما يجب، وتحاشي نظراتي إذ أنه أدرك أنه تخطى حدوده ودخل منطقة جديدة.

"لا أعرف."

رفع حاجبيه تعجبا.

"نعم. سأحاول مرة أخرى. إنه النصيب."

"هذا لا يخبرني بأي شيء."

هززت كتفي وقلت: "عندما كنت في عمرك، تصورت أني سأتزوج، وسيكون لي عيال... الأشياء المعتادة. لم أتخيل أي أمر آخر. كان لي أصدقاء وصديقات يريدون أن يصبحوا أطباء ودبلوماسيين، ولكن لم تكن لي أبدا مثل تلك الطموحات."

نظر إلى ولم ينبس ببنت شفه. التفتت مي بعيدا عن التلفزيون، وطلبت رقائق بطاطس. أحضرت لها كيسا من المطبخ، وجلست ورأيتها فرصة لتغيير الموضوع: "عندما كنت بالخارج، اتصل هشام زوج لمياء بالهاتف."

"ربما كان مرتبكا بسبب اختلاف التوقيت."

"سألته إن يتكلم مع مي، ولكنه قال لا داعي لذلك."

أشار تامر بوجه في حركة تدل على الامتعاض وقال: "هكذا هو دائما."

لم يعطني صوت هشام أي سبب لأتعاطف معه. لم أفكر في أن أقول: "يا للرجل المسكين. هجرته زوجته لتحضر للدكتوراه." بدا قويا وجسورا وواثقا من أنه في موضع الممسك بالأمور.

"أنه ليس مثلك أبدا؟"

خرجت كلمات رده بسرعة وبعنف: "طبعا لا. طلبت من لمياء أن لا تقبل الزواج به لأنه يشرب الخمر، ولكن لا أظنها تهتم بهذا. أبي وأمي لم يستمعا لرأي. يظناني مجرد صبي."

تخيلته صبياً في نحو الثانية أو الثالثة عشر من العمر، وهو يحاول الإدلاء برأي يراه سامعوه غير ذي بال. لم يكن سعيدا اليوم. لم يكن في حالته المعتادة فسألته عن السبب.

قال: "لم أقم للصلاة عند الفجر. عجزت عن القيام للصلاة. عندما ضرب جرس المنبه أوقفته وعدت للنوم. الآن أشعر بأن توازن اليوم بكامله قد اختل."

"حسنا. لقد حددت منذ ليلة أمس الساعة التي تريد الاستيقاظ فيها. لا تلم نفسك على عدم المحاولة."

"أنا أعلم ذلك. لكني رغم ذلك أحس بأني أفتقد شيئاً ما." صمت قليلا ثم قال: "لو كنت متزوجا لقامت زوجتي بإيقاظي."

ابتسمت وقلت: "يعتمد ذلك على أي نوع من الفتيات ستتزوج."

"أوه.. لن أتزوج إلا بامرأة تقية، ترتدي حجابها"، قالها بثقة وحيوية طاغية.

حاولت تغيير الموضوع فقلت: "كيف هي دراستك الآن؟" كان ذلك هو السؤال الخطأ، إذ عاد تامر للتجهم مرة أخرى.

"لم أعد أهتم بهذا. ربما سينتهي العالم، وحينها لن يهم ما الذي درسته."

"ربما لن ينتهي العالم."

قال دون كبير اهتمام: "ربما سينتهي." تمدد على الكنبة. تذكرت أن لمياء لا توافق على ذلك. تقول دائما إن الأريكة مخصصة ليجلس عليها الضيوف. مضى يحدق ساهما في السقف، ووجهه متعب. كان قد فقد بعض الوزن في رمضان، ولم يسترد وزنه بعد. لقد حمل عبئا ثقيلا، لدراسته مادة لا رغبة له فيها، ويصمم أن عقيدته وإيمانه سيخففان ذلك العبء. سمعته يتحدث في الهاتف بالأمس مع والده ويرجوه أن يسمح له بتغيير الجامعة التي يدرس فيها، وأن يدرس التاريخ الإسلامي عوضا عن إدارة الأعمال. بعدها أغلق على نفسه باب غرفته. طرقت بابه أحمل القهوة والكيك، ولكنه صاح من الداخل: "دعيني. لا أريد شيئا." لم يكن يود أن أعرف أنه كان يبكي.

قال لي وكأن باستطاعته أن يقرأ ما يدور في عقلي: "تحدثت مع أبي بالأمس. قال لي بأن الوقت ما زال مبكرا للحكم على المقرر الذي أدرسه، وأنني سأتعود عليه وأحبه مع مرور الوقت."

"ربما كان محقا." تمنيت لو لم يكن التلفاز مفتوحا، ولكن مي كانت تشاهده، وهي الطريقة الوحيدة لتسكينها.

"لا أعتقد أنه كان يستمع إلي. لن يغير رأيه أبدا" وقال مقلدا صوت أبيه ولهجته: "إن درست إدارة الأعمال فستحصل على وظيفة جيدة. دراسة التاريخ الإسلامي للفاشلين فقط. أين يمكنك أن تعمل بهذا التخصص؟"

"يمكنك أن تعمل بالتدريس." أغمضت عيني وتخيلته وهو رجل عجوز يدرس التاريخ الإسلامي.

"لا تدر تلك الوظيفة دخلا كبيرا - هذا ما قاله."

"ربما يمكنك دراسة المادتين معا."

"لا." صمت برهة ثم قال: "ستأتي أمي قريبا - ستبقى قليلا ثم تذهب في طريقها لأمريكا لحضور مؤتمر."

"هذا خبر طيب." وكنت أعني ذلك تماما. "سيكون أمرا جيدا أن ترى أمك."

"لن يكون هنالك فرق. هي تؤيده في رأيه."

"ولكنهم دفعوا لك مصاريف الدراسة. كيف لك أن تنسحب من الدراسة ببساطة هكذا؟ سيكون عليهم دفع مصاريف الدراسة في جامعة أخرى. الشيء المعقول هو أن تكمل دراستك هنا في الأول، ثم تنتقل إلى جامعة أخرى."

"ولنفترض أني رسبت هذا العام؟"

"لماذا ترسب؟"

صار منزعجا وقال بغضب: "لأن المواد التي ندرسها صعبة."

"عليك أن تطلب المساعدة. تكلم مع شخص ما في هذا الأمر."

ضحك وقال: "سأخبر مشرفتي بأني كنت معتكفاً في المسجد لعشرة أيام، فاتتني خلالها الكثير من المحاضرات. هل هنالك أي احتمال لأن تتعاطف معي المشرفة؟" ثم ضحك. كانت تلك أول مرة أراه فيها ساخرا. لا يناسبه ذلك.

"ولكنها يجب أن تعلم أنك تواجه مشاكل في الدراسة."

"لا يمكنني أن أتحدث مع أي واحد في هذا الأمر. يمكنني أن أتحدث معك أنت فقط." كأن صوته يشي بالاستياء وكأن حديثه معي كان ضد إرادته.

"لست في وضع يمكنني من نصحك. ماذا أعرف أنا عن الجامعات والوظائف؟"

دار بقدميه وجلس معتدلا وقال: "يزعجني ما تقولينه من تقليل مكانتك هكذا. أنت أفضل من كثير الناس، لكنك كنت سيئة الحظ؟ لا أشك أن كثيرا من الرجال كانوا يتمنون الزواج بك." بعد هذه الجملة اللاذعة الأخيرة حدث ما يشبه الاهتزاز في الغرفة. أكد حديثه بالقول: "كلامي صحيح. أليس كذلك؟"

حدقت فيه وهو يكرر: "كلامي صحيح. أليس كذلك؟" فكرت في أن أنور لا يزال موجودا هنا على بعد محطتين بقطار الإنفاق، وما زال ينتظر أن يسقط نظام الخرطوم. تزوج بنت عمه على كل حال، واحضرها إلى لندن عندما وجد وظيفة جيدة.

قلت في صوت بدا خشنا: "نعم. كان هناك شخص، لكنه كان ملحدا ولذا لم أتزوجه." بقيت أنظر إلى بساط الأرضية متحاشية رؤية تفاعله مع ما قلته. لا أدري لماذا قلت ما قلت- كلامي صحيح، ولكن ليس صحيحاً بنسبة 100%. كانت هنالك أكثر من طريقة لأقول بها ما قلت. لم يكن أنور يريد أن تمازج جيناته جيناتي، ولا يريد أطفالا تجري في عروقهم دماءاً من دماء أبي.

كان صوت تامر جافا مثل نظرته لي وهو يقول: "كيف لك أن تفعلي ذلك؟"

"أحببت أشياء أخرى فيه، ولكن ليس الحاده."

جفل تامر عند سماعه لي أنطق بكلمة "حب"، وقال: "حسنا. لم يكن هذا من الذكاء من جانبك؟ ألم تستطيعي معرفة الملحد بمجرد أن يفتح فمه بالكلام؟"

هززت كتفي، ومضيت أنظر إلى بساط الأرضية، ثم قلت: "أنا الآن نادمة على القصة كلها. مرات كثيرة أتمنى أن يرجع بي الزمن، وأن أمحو كل ما فعلته. ولكن لا يهم إن غفرت لنفسي أم لا. المهم عندي أن يغفر لي الله."

رد علي بالقول: "أنا آسف."

"لا عليك."

قال: "لا. لقد ضايقتك. أنا آسف... بالجد." كان القلق باديا على عينيه الواسعتين وهو ينظر إلى. قال لي وكأنه يلاطفني: "أنت لست غضبانة. أليس كذلك؟"

لا. لست غضبانة أو مستاءة ة أبدا لأني استبنت ومضة من الغيرة في عينيه وإحساس خفي بالرغبة في الاستحواذ.

الفصل السابع والعشرون

مررت بباب غرفة نوم لمياء المغلق وسمعتها تقول: "لا يستطيع الآن- مرت ثلاثة شهور من الفصل- فلنفرض أنها لم تنفع." جاهدت كي استمع لرد الشخص الآخر، وكانت دكتورة زينب. لم أسمع من حديثها شيئا غير أني تبينت أنها هي اللي كانت تتحدث بطريقتها الدبلوماسية الهادئة المريحة. ثم سمعت صوت لمياء مرة ثانية: "لقد وعد بالحضور في الإجازات- لم يفعل أبدا. عندما يتصل هاتفيا يتصل في الوقت الخطأ." إنهما لا يتحدثان عن تامر. فقدت الرغبة في سماع بقية الحديث، ومضيت في طريقي للمطبخ وصوت لمياء يرن في أذني وهي تقول: "لقد وافق هشام على أن أحضر هنا لأحضر للدكتوراه... لا يمكنه أن يتذمر الآن..." أفتقد تامر. كان قد خرج قبل أن وصولي. لعل مجيء والدته حفزه ليجد أكثر في دراسته.

لم يكن المطبخ كالعهد به: ساحة حرب. كانت طاولة المطبخ نظيفة، والصحون تلمع، وكاسارولة ضخمة تنتصب في وسط الحوض مليئة بماء الصابون. لم أحتج غير غسيل أكواب شاي الصباح وبعض الأطباق. كان تأثير الدكتورة زينب ملموسا. كانت قد أحضرت معها صواني بقلاوة وبسبوسة، وجرار زيتون أخضر وعلب فول، وحتى ورق عنب وملوخية مجمدة. كل هذه الأشياء موجودة في لندن، ولكنها ربما تكون أرخص في القاهرة. أهدت لمي دمية وأرنب محشو. كانت سعيدة تمشي ببطء وهي تحتضن بيديها لعبتيها الجديدتين. أطعمتها إفطارها وحرصت على أن لا يقع شيء منه على لعبتيها الجديدتين. سمعت صوت الباب يقفل، مما يعني أن لمياء قد خرجت، ونسيت أن تودع مي بقبلة.

ابتسمت الدكتورة زينب وهي تدلف إلى المطبخ. أحب هذه السيدة، بشعرها الكستنائي الكث، وبالطريقة الحلوة التي تبتسم بها لمي، وبوقفتها وهي تنتظر أن يغلي الماء في المغلاة الكهربائية، ويداها على وركيها دون أن تهتم لكرشها المتضخمة. لقد كنت دوما مهتمة بنفسي وحريصة على مظهري. وحتى عندما أكون بمفردي فإني أهتم بأن تكون حواجبي منتظمة، والطريقة التي أقف بها مستقيمة دائما، وبأن لا تكون هنالك بقايا طعام بين أسناني. عندما أقابل نساء مثل دكتورة زينب لا يبالين بضخامة أجسادهن ومنظرهن، فإنهن يحزن على إعجابي.

تحدثت معي (وأنا أعشق لهجتها المصرية) وقالت: "أنا سعيدة لأن لمياء وتامر بخير. الحمد لله. هذا ترتيب ناجح. كنت أعلم بأنه سينجح عندما رتبت له. وجودهما معا في بيت وليس داخلية طلاب أمر جيد. كنت سأترك مي معي في القاهرة - ربما كانت لمياء تفضل ذلك، ولكن من الأفضل أن تظل

مع أمها، وسيأتي هشام هنا للزيارة. امرأته في لندن، وطفلته في القاهرة - لن يكون ذلك معقولا."

هززت رأسي بالموافقة، مخفية دهشتي، ثم تذكرت أن أتراجع وأمثل دوري كخادمة. كنت متناسية نوعا لهذا الدور بسبب تامر. تعجبت مما قالته للتو الدكتورة مع أن للمياء مشاكل مع زوجها، ويكره تامر سلوكه. ربما هي لا تعد هذه المشاكل من الخطورة بمكان... هذا يريحني. إن قررا إيقاف دراستهما في لندن، ترى ماذا سيكون وضعي؟

بدأت تدردش معي. "يا ليتني استطيع البقاء هنا أكثر ولكن علي الذهاب إلى نيويورك بعد غد. أيضا لن أستطيع المرور هنا عند العودة - تذكرة العودة هي من نيويورك إلى القاهرة مباشرة."

قلت وأنا أضع الملابس في الغسالة، ملابس تامر - قميصه وملابسه الداخلية: "لابد أن البقاء في الطائرة لساعات أمر متعب."

"أوه. أتناول حبة منومة، ولا أحس بشيء إلى أن توقظني المضيفة وتخبرني بأننا قد وصلنا." وضحكت.

لطالما كنت حذرة من الحبوب المنومة، إذ أنني لا أضمن ما سأفعله (أو يفعل بي) عند تناولها. كيف كانت حياتي ستكون إن كنت مثلها: امرأة مهنية ناجحة وقادرة وتتحرك بسهولة، ولا يقهرها أحد؟ قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب." أعلم ذلك جيدا، ولكني أقع فيه. لا أزال أتمنى الحصول على ما عند الآخرين.

عند الظهيرة عرضت أن أذهب للتسوق في شارع "شيرش". قلت للدكتورة إن سيوبرماركت "تسكو" هناك أرخص من "يوروبا" الأقرب لنا. أعجبت تلك الملاحظة دكتورة زينب وكافأتني بابتسامة وقالت بأنها سترافقني ومي إلى السيوبر ماركت. حملت مي وكرسيها المتحرك عبر السلم شديد الانحدار المؤدي للقنال. أحس بطعنة في ظهري - أحيانا تختفي هذه الطعنات، وأحيانا أخرى تصيبني هذه الآلام وتظل معي لأيام عديدة. السير بقرب القناة والنظر إلى "العوامات" متعة عظيمة، وأعجب بالذين يجعلون منها بيوتا لهم. بقيت خطوات قليلة من السلم ونكون في وسط صخب شارع شيرش، حيث عالم مختلف جدا عن سانت جونز وود. استمتعنا بأسواق الشارع ومناظره وأصواته المتنوعة. قالت دكتورة زينب: "عندهم كل شيء... حتى البامية الطازجة. السيوبر ماركت ليس كبيرا جدا، لكنا ملأنا عربة الترولي بالأغراض. تعجبها الكثرة والوفرة في كل شيء. في سيارة الأجرة التي أقلتنا للبيت قالت: "حتى حين ذهاب لمياء وتامر للبلد في إجازة

عيد الميلاد لن يحتاجا للتسوق. لمياء ستذهب لتلحق بزوجها في عمان، وسيذهب تامر مع أبيه للخرطوم.

وضعت كل الأغراض في مكانها، ثم نظفت غرفته. تغيرت الغرفة بعد وصول أمه - لابد من ترتيب سريرين وليس سريره فقط... رائحة عطورها، وحقيبة سفرها على الأرض. أختفي كتاب "طوق الحمامة في الألفة والإيلاف". أخفاه عنها. فتحت الدكتورة الباب وذهلت عندما وجدتني أرتب وسادة تامر وسألتني: "لماذا لم تنظفي هذه الغرفة في الصباح عندما نظفتي بقية الغرف." تورد وجهي من الخجل ولم أحر جوابا فتمتمت بكلمات اعتذار. تنهدت غيظا من بلادتي وقالت: "تعالي وابدأي الطبخ."

كنت أهم بإخراج الفراخ من الثلاجة عندما دخل إلى المطبخ. إقترب مني وهمس قائلا: "لم تكوني في المنتزه اليوم."

شعرت بالزهو والإطراء والفخر. رددت عليه بأني كنت أتسوق مع والدته. أخرجت الفراخ من غلاف "تسكو". نظر بغضب لما في يدي وقال بصوت عال: "ماذا تفعلين؟ لماذا أحضرتي هذا الفراخ؟ كنت لا تحضرين إلا الفراخ الحلال."

"أشترته أمك." ورميت الغطاء البلاستيكي اللاصق بالدجاجة في سلة القمامة.

"لماذا لم توقفيها؟"

هل يتخيل أنني وأمه على نفس الدرجة من التساوي. قالت لي إن الجزار في فينشلي روود، بعيد جدا.

عاد للهمس مجددا وقال: "هذا هو بالضبط ما قلته لك في ذلك اليوم. في بعض الأحيان تكون أمي متساهلة جدا. هذا يغضبني جدا."

"اسكت. ستسمعك أمك." ومضيت أغسل الفراخ تحت ماء الصنبور. في داخلها كان هنالك كيس بلاستيكي مليء ببعض أحشاء الدجاج. لا يكون في الدجاج الحلال مثل ذلك. كنت سعيدة بوجوده واقفا بقربي.

"حسنا. لن آكل منها." لا بد أن كان يتصرف هكذا عندما كان صغيرا عندما يغضب ويصك وجهه. تحرك بعيدا مني وفتح دولاب المطبخ. تناول حزمة من الرقاق وبدأ في فتحها. حاولت إغاظته وتلطيف مزاجه المتعكر فقلت له: "أظنك قلت إنك لن تأكل واقفا مرة أخرى."

جر كرسيا وجلس. أعطيته جرة من الصلصة ليأكل بها الرقاق. أخذها دون أن يفتح فمه بكلمة. أحب أن أقدم له الطعام وأراقبه وهو يأكل. قال لي وهو يمضغ: "لا أصدق أنك ستطبخين هذه الدجاجة."

"نعم سأفعل." وأخذت سكينا لأقطع بها الجناحين.

"لن أكل من هذه الدجاجة."
"وأنا أيضا لن آكل منها."
ضحكت وأنا أسمعه يقول لي وفمه مليء بالطعام: "هل يعني هذا إني سأبقى جائعا هذا اليوم؟"
بلع لقمته وسألني: "ما هو الشيء المضحك؟"
أنظر إليه، أنا أعلم أنه جوعان وأنه مدلل."لن تجوع. يمكنك أن تتناول الأرز مع السلطة."
قال وهو يضع الرقائق جانبا: "هذه ليست غلطتك"، ومضى خارج المطبخ وهو ينادي على أمه. سمعتهما يتجادلان في الغرفة الأخرى. بدا طفوليا وكثير الجدال. سفهت ما قال واتهمته بالسخف وتضخيم الأمور قليلة الشأن. لقد أخطأت إذ بعدها علا صوته فوق صوت أمه، وبدا عدوانيا تجاهها. تجمدت في مكاني وسكين المطبخ في يدي، وأطياف من مشاجرات سابقة مع أمهات مختلفات تطوف في خاطري. ولكن بين تامر وعمر تفصل أميال وأميال. حاولت الوصول إليه وهمست: "إهدأ... إهدأ. الأمر لا يستحق كل هذا الغضب. ستندم على سؤ معاملتك لأمك فيما بعد. سيؤنبك ضميرك الحساس."

الفصل الثامن والعشرون

سألني ماذا فعلت خلال عطلة رأس الميلاد والسنة الجديدة. ابتسم وهو في حالة طيبة من الهدوء والانبساط بعد أن غاب في العطلة. "هل شاهدتِ التلفزيون كثيرا؟"

أخبرته بأني لا أمتلك جهاز تلفزيون. هو لا يعلم ما هي "رخصة التلفزيون" وكم تكلف. أمه تدفع كل الأشياء التي يأخذها كمسلمات.

حدثني عن إجازته في الخرطوم. كان يشاهد ساعات طويلة من برامج التلفزيون العالمية بالأقمار الصناعية، ويحضر مآدب غداء وعشاء عديدة. دردش معي عن أنواع الطعام التي تذوقه، وعن آلة تصويره الرقمية، ولعبه لكرة القدم مع أبناء عمه، وكيف أنه ليس سعيدا بالعودة إلى الدراسة. "لا أستطيع فهم ما يقوله المحاضر أحيانا. في الواقع في كثير من المرات لا أفهم شيئا مما يقول." عالم المال والأعمال عالم غير حقيقي، لا يعني له شيئا.

قال لي: "لقد افتقدك. اشتقت إليك." افتقدته أنا أيضا، واشتقت البهجة والحلاوة. عوضنا الوقت الضائع. تمشينا في حدائق الملكة ماري عندما يكون الجو صافيا، ونجلس معا في المقهى عندما يهطل المطر. كل يوم أطول من سابقه، ولون ضوئه مختلف. اكتشفنا ملعبا كبيرا مليئا بالإثارة والمغامرة تستطيع أن تلعب فيه مي في المنتزه. لم نتوه أبدا لأننا كنا نرى مئذنة المسجد من بعيد، ونتجه نحوها. كان يقول لي: "أنت تستمعين لي فعلا- أنت تتكلمين - أغلب الناس لا يتكلمون- وكأنه لا وقت لديهم." قال إنه يفتقد عمان، وأصدقاء مدرسته ومدرسيه. كان له صديق من بوليفيا اسمه "كارلوس" ووالده يعمل في شركة نفط. كان "كارلوس" كاثوليكيا متدينا، ويحب كرة القدم ويتحدث الاسبانية. عندما كان "كارلوس" في العاشرة أراد أن يكون قسيسا، ولكنه غير رأيه، وهو الآن يدرس علوم البيئة في جامعة جون هوبكنز. أحيانا يتبادلان الرسائل الاليكترونية. قال تامر شاكيا: "لا أستطيع خلق صداقات هنا. لا أدري لماذا."

جاء دوري لأتحدث: "اسمعني عندما أتحدث." كلمته عن عمر، وعن خيبات الأمل التي ما أمكنه نسيانها أو التخلص منها. ناشدته قائلة: "أسألك الدعاء له. يمكنهم أن يحبسوه، أو يطلقوا سراحه، ولكن إن لم يغفر له الله، فلن يتبدل حاله." أردت أن أبكي على حال عمر، وأن أطلق لصوتي وأحزاني ودموعي العنان كما تفعل النائحات الفلسطينيات في التلفزيون عندما يقتل أحد رجالهن... لكني لا استطيع، فهو ليس بريئا، وأحمل ضده مرارة وغضباً

أحاول إخفائهما وإغراقهما - دون جدوى- مع مشاعر متلاطمة تجول دوما في خاطري.

قلت له: "لا أشتاق لعمل شيء في هذا العالم مثل الذهاب للحج. إن قبل حجي فسأعود مغفورة الذنوب كيوم ولدتني أمي."

تكلمنا عن الحج، فقد كان الوقت موسمه. ألقيت في المسجد دروسا عن الحج للمحظوظين الذين كانوا يستعدون لأداء الفريضة. يبدون أشخاصا عاديين الآن، ولكنهم سيأتون أشخاصا مختلفين... متميزين. أشاهد هذا كل عام، وأري البهجة والمتعة الحقيقة عند العائدين من مكة وهم يتحدثون عن رحلة العمر التي قاموا بها وعن "مغامراتهم" فيها من نوم في الخيام، وصعوبة في المعيشة، وتنقل لساعات بالحافلات، وضيق وتزاحم.

قال تامر: "أشعر بالخجل من أن والدي لم يحجا مع أنهما ثريان، ويؤجلانه."

"سيحجان إن شاء الله يوما ما."

أجابني بتقطيبة في وجهه. أنزعج كثيرا للطريقة التي يتحدث بها تامر عن والديه. لعل هذا هو الخطأ الوحيد الذي أراه فيه. كنت ومنذ شهور أبحث له عن عيوب، فلم أجد له عيبا غير هذا.

وفيما نحن نعبر الجسر في المنتزه، قابلت شاهيناز وحماتها وأطفالها. وقف تامر بعيدا قليلا مع مي، بينما بقيت أتحدث مع شاهيناز وعائلتها. جثوت على ركبتي لأتحدث مع أحمد. كان بديعا وهو جالس في كرسيه المتحرك، مغطيا بالكامل تقريبا في سترة ربيع جديدة. أخذ وقتا قبل أن يركز عينيه في وجهي. قلت له: "يا حبيبي يا أحمد... هل نسيتني؟" أجابني برسم ابتسامة خفيفة على مضض، وكأنه يفضل أن يغفو. وقفت، فسألتني شاهيناز هامسة عن تامر ولماذا هو معي؟ التفت إلى تامر. يبدو كصبي صغير! لا يزيد طوله من عمره، فقط يجعله صبيا ضخما. يمسك بمقبضي كرسي مي المتحرك، وينحني ليخرج ورقة شجرة علقت في أحد عجلات الكرسي، ويمسح أصابعه في بنطاله الجينز. تجاهلت سؤال شاهيناز وانحنيت لأقبل رأس أحمد، لكنها أصرت على الاستمرار وسألت ساخرة ضاحكة: "لماذا يتابعك هكذا؟ هل يحتاج لمربية هو الآخر؟"

تورد وجهي خجلا، وغمغمت قائلة: "هو حر يفعل ما يريد." كنت - وبلا داع- في موقف الدفاع، بينما كانت تتوقع إجابة فكهة ظريفة ضاحكة.

أطالت النظر إلى تامر ثم إلي.

قلت لها: "أنا في موقف لا أحسد عليه."

وضعت يدها على ذراعي وقالت: "أتفهم وضعك."

"لا. لا أعتقد أنك تفهمين... بالجد." التفتت حماتها نحوي وهو تنظر إلينا في فضول.

"تعالي لمنزلي وسنتحدث." كانت تلك هي الإجابة التلقائية. "تعالي الليلة."

عندما رجعت لتامر ومشينا قليلا سألني: "ما المشكلة؟ أنت في مزاج متغير بعد حديثك مع صديقتك."

أخذت نفسا عميقا وقت له: "قالت شيئا بخصوصنا... عن مجيئنا معا للمنتزه."

"ماذا تقصدين؟"

هززت كتفي.

استمر في القول. "هي لا ترى أن ذلك عمل صحيح؟" يمر الناس من حولنا. رجل يريض كلبه، وامرأة تركض. ربما ليس من الخير أن نبدأ هذا المحادثة. قررت أن أخفف من وقع الأمر عليه فقلت: "لعلها مستغربة قليلا... هذا كل ما في الأمر."

قال: "لقد كنت أنا أفكر في نفس الاتجاه."

حاولت أن أرقق من صوتي ولا أظهر اهتماما كبيرا بمغزى ما قاله: "وفيم كنت تفكر؟"

"ليس من الإسلام في شيء أن يصادق الرجل المرأة." كان جادا وصادقا وهو يقول هذا الكلام، والذي بدا أنه قد تمرن على تلك الجملة. يجعل هدوءه الشديد عظامي تقشعر. أشعر فجأة بالخوف من فقدانه.

قال: "سمعت مرة شيخا يقول إن وجود المرأة ورجل لوحدهما كوضع البارود والنار معا."

توقفت عن المشي، فأضطر للوقوف والنظر في عيني... سألته: "وأيهما أنا - النار أم البارود؟"

أحمر وجهه من الخجل، وقال: "لا تمازحيني في هذا الأمر- لست طفلا صغيرا."

"لست أمزح." وصمت قليلا ثم قلت: "يمكنني أن أترك هذه الوظيفة."

"لا. لا تستطيعين."

أنا أدرك أني لا أستطيع.

قال: "أنا أتغيب من محاضراتي لأكون معك."

"وأنا أحضر للعمل كل يوم من أجلك."

قال بحماس وسرعة: "يجب أن نتزوج."

جعلتني صدمة الموقف أضحك. شعر بالإهانة، وبدا ذلك واضحا على وجهه. ضم يديه على صدره، ومشى بعيدا عنا.

دفعت بمي في كرسيها المتحرك بسرعة للحاق به. حاولت إخراجه من مزاجه المتكدر بالتودد إليه. حدثته عن فيلم مصري شاهدته قبل سنوات. كان عن أرملة في نهاية الخمسينات من عمرها مقبلة على الزواج، وكانت في غاية السعادة والإثارة لحدثها السعيد. تذهب لصالون الحلاقة (الكوافير) فتموت هنالك ورأسها داخل مجفف الشعر، وشعرها ملفوف في بكراته! قال مصفف الشعر: "كان قلبها ضعيفا فلم تحتمل كل تلك السعادة."

قلت: "كان ذلك المصفف ممثلي المفضل. هو أحمد زكي. هل تحبه؟"

"نعم، فهو مجيد."

"هو يشبهك."

"لا. لا يشبهني."

"نفس الشكل. عيون جميلة مع منظر صبي شقي."

"لا أريد أن أتحدث في مثل هذه الأمور... الحديث عن الرجال الآخرين."

ابتسمت وسألته: "ولماذا لا؟"

"أشر بالغيرة."

سرت في جسدي نشوة حرى. أثلج قوله صدري.

قال في نبرة صوت مختلف: "عنيت ما قلته من قبل. أستطيع أن أفعل ما أريد هنا في لندن. والدي ليسا هنا." أحسست بنبرة تمرد وسخط في صوته. "وهذه الامتحانات التي قربت مواعيدها... لا يجب علي أن أذاكر لها إن لم أرغب. الأمر كله يرجع لي." عندما كنت صغيرة مثله في لنجن، كنت أعتقد أيضا أني حرة، وأن لا أحد يمكن له أن يراني. ولكن المر لا يمكن أن يتحرر من نفسه.

بقينا صامتين. أسمع خطواتنا، وصوت كرسي مي المتحرك، والأصوات المختلفة في المنتزه. عندما قلت إنه يجب أن نتزوج... هل تتخيل حدوث ذلك؟"

قال على استحياء وقد تورد وجه: "نعم." رفع يده ليلمس مقبض كرسي مي المتحرك، ثم تركها تتدلى.

"قصدت، ما هو تخيلك لحفل العرس نفسه."

"آه! لا أعلم. لا أعرف كيف يتزوج الناس؟ كان يمكنك معرفة ذلك بسؤال الآخرين."

قلت: "بالتأكيد. يمكنني معرفة ذلك."

قال بنبرة عدائية وكأني قد تخطيت كل الحدود: "أنت تحاولين إغاظتي الآن. أليس كذلك؟"

لم نستطع الحديث بعد ذلك. قمنا بعمل بقية الأشياء بصورة ميكانيكية روتينية فأنزلنا مي للعب في المنتزه. ذهبنا للمقصف حيث جلس عابسا ورفض تناول أي شيء... لا شاي ولا كيك!

الفصل التاسع والعشرون

"ألا تشك أخته في أي شيء؟" حضنت الوسادة في حجرها. كانت الوسادة مدورة صفراء، وقد تآكلت بعض أطرافها بسبب الأطفال والضيوف الذين يستخدمونها كمخدة عند مبيتهم معهم.

"لا أعتقد ذلك. ربما ليس هنالك ما يستوجب الشك أصلا. أنت تبالغين في الأمر."

"لا. لا أبالغ. إنه يحبك." لشاهيناز صوت ناعم وهي في منزلها. تتغير عندما تغلق باب منزلها الخارجي عليها، وعندما تخلع معطفها وتنزع غطاء رأسها. تغدو مرتاحة ومنبسطة وأكثر رقة. يزيدها ذلك جمالا أكثر مما كانت عليه في حفلة العيد وهي مبهرجة بالمكياجات والملابس اللامعة. ربما كان هذا هو ما ينبغي أن يكون عليه حالها.

"سيندثر هذا الأمر، وسينقضي. هذا ما أفعله. انتظر اليوم الذي يكبر فيه علي."

"وماذا سيحدث إلى حين حدوث ذلك؟"

"سأكون أكثر حذرا. لن يحدث شيء أخشاه." ولكني أقف بعيدة كالمتفرجة أراقب ما يحدث. أراقب كيف ستذبل هذه العاطفة نحوي مع مرور الأيام.

تنهدت وهي ترشف من كوب الشاي أمامها. نام أطفالها، وبقي زوجها في الطابق الأعلى، وحماتها تجول في المطبخ. أحب أن أكون بين أفراد عائلة، حتى عندما تكون زياراتي قصيرة متباعدة.

"يا ليتنا كنا نعيش في عصر قديم، وعوضا عن أن أعمل في منزل عائلة تامر، أكون عبدة عندهم."

صنعت حركة ساخرة بوجهها وقالت: "تقصدين خليلة وليست عبدة."

"سيكون هنالك مزايا لذلك الوضع."

"لا أصدق إنك تقولين هذا. هل تتمنى عاقلة أن تصبح عبدة؟"

توقفت عن أن استرسل معها في فنتازيا خيالاتي... مثل قيامي بترتيب زواجه من فتاة مناسبة تعرفه بدرجة أقل من معرفتي به. ستلد له أطفالا يقضون وقتا أطول معي...

قالت لي: "انظري. أعلم إنك تعتبرينه مثل أخيك الأصغر... لكن هل يعلم هو ذلك؟ ربما ينبغي عليك أن تخبريه بذلك."

"لا استطيع، لأن ذلك ليس صحيحا."

راقبت أثر ما قلته للتو على تعابير وجهها. تورد وجهها حياءً، فشعرت بالخجل من نفسي. قالت: "عندما أفكر في رجل أعجب به، يجب أن يكون

أعلم مني، وأن يكبرني سنا. إن لم يكن كذلك فلن استطيع أن أتطلع إليه كرب للأسرة وراع لها. لا يمكنك أن تتزوجي رجلا لا يكون بمثابة الراعي لك. كيف إذن ستسمعين لكلامه، أو تدعيه يرشدك."

لم يكن لدي ما أقوله لها. ظللت أبحلق في يداي وأنا مطأطأة الرأس، أفكر في نفسي المنقبضة ورغباتي المنحرفة. أتمنى أن أكون خليلة في عائلته، مثلما يحدث في "ألف ليلة وليلة". هنالك سأجد الأمان مدى العمر واحساس بالانتماء. ولكن ينبغي علي أن أقنع بالحرية في عصرنا هذا. تحسدني شاهيناز أحيانا عندما تتكاثر عليها الضغوط من حماتها وزوجها وأطفالها، وعندما لا تجد متسعا من الوقت لنفسها ولاحتياجاتها الخاصة. تحسدني على الفراغ العريض في حياتي!

وضعت جانبا المسند الذي كانت تحضنه. "كم مرة عرفتك على أزواج محتملين، ولكنك ترفضين وتقولين إنك لا تشعرين تجاههم باي عاطفة. الآن فجأة تغيرتي!"

يجعلني عدم الصبر في صوتها أهدأ، وأضحكني الطريقة التي قلدتني بها. قالت لي: "الموضوع لن ينجح يا نجوى. والداه لن يوافقان أبدا."

أخذت نفسا عميقا، وكأن الغرفة ضيقة، وكأنها دافئة بأكثر مما يجب. حان وقت تغيير دفة الحديث. تحدثنا عنها وعن المقرر الدراسي الذي ستأخذه. كان ذلك تدبيرا جيدا مني لأنها فرحت عند الكلام عن ذلك وقالت: "نعم. سمعت منهم. لقد قبلت." وقفت وتحركت لدرج قريب أخرجت منه خطاب القبول، وأرتني إياه بفخر وأعتزاز. إنها نفس الجامعة التي يدرس فيها تامر. تذكرته وتذكرت المواد التي لا يحبها ولكن ينبغي عليه أن يدرسها، وقارنت حاله بحال شاهيناز المتحمسة للدراسة. ستكون "طالبة ناضجة". ستذهب يوميا للدراسة، وبعد ثلاثة أعوام ستتخرج بدرجة جامعية. كانت تلك أمنية من أمنياتها الغالية منذ أن تزوجت. ثم وضعت طفلا تلاه طفل آخر إلى أن خمدت جذوة رغبتها في الدراسة، فلزمت الدار. قالت: "سهيل متضامن معي. يريدني أن أدرس. لقد ملأ الطلب بنفسه."

تأثرت من قولها. كنت معجبة بحياتها، وتابعتها صعودا وهبوطا. ليس في حياتها ما يشين، وليس فيها عثرات أو تقلبات أو شرخ أو اعوجاج. أحس بالضآلة أمامها، فماضي يلاحقني وليس من فكاك منه. قد أعد ما حدث في حياتي مثل التأتأة، أو العطل الوظيفي... مثل منظر يكرر نفسه، مثل اسطوانة مشروخة.

الفصل الثلاثون

تطاول اليوم التالي وتمدد بعد ليلة نمت فيها نوما متقطعا. أقامت لمياء حفلا في شقتها. ربما كان ذلك هو يوم عيد ميلادها. لا تخبرني بمثل هذه الأشياء. عوضا عن ذلك أخبرتني بأنها ذاهبة لمصفف الشعر، وأعطتني قائمة بالأشياء التي يجب علي عملها، من ملء أطباق صغيرة بالمكسرات ورقائق البطاطس، إلى استعارة عدد من الكراسي من الجيران. تذمر تامر من تلك الحفل، خاصة عندما طلبت منه المساعدة في حمل الكراسي من الجيران. قال لي وهو ينظر إلى نظرة المجروح: "لا أحتمل أصدقائها." اعتذرت له عن الطريقة التي عاملته بها بالأمس في المنتزه. كنت أتحدث وأنا أتنفس عاليا وأنا أزحزح الكنبة من جانب في الغرفة إلى جانب آخر. بدا اعتذاري مستهترا قليلا، وكأني يائسة وأود فقط ازاحته من أمامي. رد بجفاء ودون أن ينظر في وجهي: "أوكي." لا يزال غاضبا مني. دفع بكرسي مي المتحرك إلى الحائط. للكرسي عجلات ولم يكن يحتاج لحملها. كدت أتعثر في مي، والتي كانت سعيدة وفي غاية الاثارة بالتغييرات التي كنا نحدثها في الغرفة. صرخت مطالبة: "عصير... عصير." لابد ليومها أن يسير كما تشتهي، ولا بد لمطالبها من أن تجاب.

قضى تامر كل فترة الصباح في غرفته المغلقة عليه، وهو يذاكر استعدادا للإمتحان. كنت أود أن يخرج بأكثر مما يفعل ليساعدني في الرعاية بمي. عند منتصف الظهيرة أعددت له ساندوتشات مع قهوة. لان جانبه قليلا وقال: "أنا آسف، فأنا في مزاج سيء- كله بسبب هذا الحفل السخيف!" اقترحت عليه أن يخرج ليتفادي مقابلة من لا يحب. "آه. ربما يجب علي أن أفعل ذلك." أعلم أنه لن يفعل، فهو كسول بطبعه، وأيضا لأنه يستمع بعدم رضائه عن أخته وأصدقائها.

أتت عند العصر لمياء بشعر مصفف وحقيبة تسوق من محل مشهور. أخرجت فستانا من الحقيبة، وأزاحت ما علق به من الورق الأبيض. كان فستانا أحمرَ رائعا من حرير التفتة الرقيق. كانت منفعلة وفرحة جذلة بالفستان فدخلت لغرفة تامر لتريه إياه. جمعت الأوراق البيضاء التي رمتها ليماء والتي كانت تلف الفستان، فوجدت فاتورة الشراء. شهقت عندما رأيت ضخامة السعر. ظلت تلك الشهقة معي لفترة، في داخل أعماقي. وصل الطعام من مطعم لبناني في صواني مستطيلة مغطاة برقائق من معدن الالومنيوم. نزعت الرقائق فسال لعابي وأنا أرى "الكبيبة"، وأنا أشم أوراق العنب المحشي، والسمبوسة والفطائر المحشوة بالجبن الأبيض. بدأ تامر في أخذ بعض الطعام، فصاحت فيه لمياء بأن يبتعد عنه. تجاهلها وظل يختار

ما يريد من أصناف الطعام المرصوص بعناية محاذرا أن يخرب الترتيب. رد عليها وفمه ملئ بالطعام: "صدقيني... أصحابك هؤلاء لن يمسوا الطعام."

قالت له وهي ساجية على الأرض تبحث عن شيء في مؤخرة الدولاب: "هذا ليس صحيحا. لا أحد يقدم لضيوفه طعاما سبق مسه."

قال وهو يتناول صلصة الطماطم: "من يهتم؟!" تلاقت عينانا فتبسم في وجهي. لقد نسي ما جرى بالأمس، وعدنا أصدقاء من جديد.

قالت له: "طول عمرك جلف. أنا أراهن على أنك لم تستحم اليوم." كان ما يزال في بيجاما النوم والتي شيرت.

عمل حركة في وجهه تدل على السخرية وقال: "بالفعل، لم استحم بعد."

أحضرت صينية فضية. قالت لتامر: "إذن أذهب وخذ حماما. لا أريدك في الحمام عندما يحضر الضيوف. أريد الحمامين نظيفين وجافين عند حضور الضيوف." نظرت إلي وأجبتها بإيماءة من رأسي. أتت مي للمطبخ تتهادي بخطوات صغيرة ووضعت يديها حول أمها. أكملت مسح الأطباق. كانا يتحادثان وكأني لست موجودة. طوال عمرهما كانا محاطين بالخدم، ولم يكن وجودي في وسطهما يضايقهما. أعلم ما يمكن أن يسببه وجود أشخاص صامتين تتحرك في خلفية المشهد، مطمئنة، ومنجزة لكل ما يوكل إليها من مهام.

قال: "أليس يكفي سوءا أن أحبس في غرفتي طوال المساء، وتقولين الآن إني لا استطيع استخدام الحمام." صكت وجهها أمامه، وفكت عنقها من إسار يدي مي المحيطة بها. اليوم مي شديدة التعلق بمن حولها، ومنزعجة من التغيرات التي تجري حولها. لا وقت عندي لأخذها للمنتزه. لمعت الصينية الفضية ووضعت فيها طقم الأكواب. رأيت في الصينية صورتي بالوشاح الأبيض على رأسي، وعيني السوداوين المتجهمتين واسعتان، إذ أنه في الغرفة معي.

فتحت دولاب المطبخ، ثم التفت إلي وسألتني: "أين ذهب وعاء حفظ الماء البارد؟" تجمدت في مكاني. لا أحب الطريقة التي تسألني بها، وكأنها تتهمني. ربما كنت مهووسة بالشك. قبل أن أجيبها التفتت إلى تامر وصاحت فيه: "لقد أخذتها معك في رمضان عندما اعتكفت في المسجد."

رد قائلا: "نعم. تركتها هناك."

أغلقت ضلفتي الدولاب بقوة وسألته: "ماذا تعني أنك تركتها هناك؟"

كان مراوغا، ونظر في عيني وقال ردا عليها: "لقد فعلت للتو."

"وهبتها لأحدهم. أليس كذلك؟"

أيقنت من وجهه أن تخمينها صحيح. لمياء فطنة ذكية.

هز كتفه لا مباليا وقال: "هي مجرد حفاظة. يمكن أن نشتري واحدة أخرى غيرها."

قالت: "الوقت متأخر الآن والمحلات مغلقة. أنظر إلى الوقت. أردت استخدامها عوضا عن إبريق الشاي. لا أدري كيف تفعل ذلك؟ تعطي الأشياء هكذا للآخرين. ربما كانوا يستغلونك في ذلك المسجد - مغفل ومعه مال. هذا هو أنت."

"لمياء..." أحمر وجهه. انسحبت من الغرفة لأنه لا يريدني أن أراه وهو يتأتي ويتلعثم.

من غرفة الجلوس كان بإمكاني أن اسمعهما يتشاجران. لم تكن أصواتهما عالية - ولكن سمعت رغبتها في جرحه، وفي رغته في أن يتمرد عليها. تمرده فطير غير منظم وغير مكتمل ويعوزه التركيز والهدف.

أسدلت الستائر، ورن جرس الباب الخارجي، وبدأ الحفل. كان الضيوف فتيات سودانيات وعرب أعمارهن في العشرينات يرتدين ملابس تشبه ملابس لمياء، ويضعن نفس ماكياجها. أظن أن تامر كان علي حق، فهؤلاء الفتيات لم يأكلن شيئا، بل قضمن برفق بعض القليل مما وضع أمامهن. نجحن في أن يكن نحيلات وشبعات في ذات الوقت. ليس عدلا أن لا يحب تامر هؤلاء الفتيات، فهن يبدين من أسر محترمة. وهن يدرسن، فهن لا بد إذن يكن من الأذكياء، وأغلبهن - إذا غضضنا النظر عن الشعور المصفف بعناية، والملابس الغالية- جميلات على وجه العموم. طفت عليهن بصينية عليها أكواب مشروب كولا وبرتقال. ذكرت أحدى الفتيات وكانت ذات شعر مقصوص، شيئا عن المقاطعة العربية لمنتجات الكوكا، وسألتني عن نوع المشروب. مالت للأمام ناحيتي لتسمع إجابتي لأن صوتي كان منخفضا، وكانت الضجة في المكان شديدة، والضحكات عالية. أعطتني ابتسامة مقتضبة وأخذت مني مشروب برتقال ومالت في مقعدها عائدة للخلف. أعجبت بالطريقة التي احتلت بها أريح كرسي للجلوس في الغرفة، وجلست فيه مائلة للخلف، بينما جلس الآخرون على كراسي طاولة المائدة الجافة. تعجبت كيف لا يقع تامر في حب فتاة مثل هذه الفتاة! يجب أن أخبره عنها. رن جرس الباب فذهبت لأفتحه وفي الطريق للباب التقطت اسمها... بشرى. جاء وفد آخر من الفتيات... لامعات متأنقات ولكنهن أكبر سنا هذه المرة. معهن أيضا أم صغيرة تقون بتقبيل مي وتعجب بفستانها.، وتخبرها بأن لها طفلة في مثل عمرها تماما.

انطلق صوت موسيقى صاخبة، وطبول عالية، واختلطت أصوات الموسيقى العربية الرتيبة، وإيقاعاتها المتشنجة بكلمات باكية عن الحسرة

والشوق والضياع والعتاب والفقدان. كان هدف كلمات كل تلك الأغاني هو "لاجدوى" الأشياء. ينبغي علينا أن نغني عن فشلنا بصوت واضح وعالي، وفي ذات الوقت أن نصفق ونرقص ونهز أردافنا على وقع تلك الأغاني. كان علي أن أقدم لكل واحدة من الضيوف مشروبا واحدا على الأقل، وأن أجمع الأكواب الفارغة، وأن أعيدها سالمة للمطبخ. إن انكسرت واحدة منها، ستغضب ليماء... ليس بسبب ثمن الكوب، بل بسبب الزجاج المتكسر، والذي سيسبب كنسه وجمعه ارتباكا في الحفل، وإخلالا بسير مجريات الحفل. هي ترقص الآن بفستانها الرائع الجديد وبشعرها المصفف. هنالك شيء "هندسي" وبسيط في قوامها، والطريقة المعتادة التي كانت تحرك بها وركيها. أشياء في حركتها لا تشير إلى سمو أو مكانة عالية، ولكني لا استطيع أن أضع يدي عليها. تنحني على فتاتين انجليزيتين تجلسان متجاورتين، وتقول لهما شيئا ما. كانتا ترتديان تنورتين سوداوين قصيرتين، وتمسكان بقوة على كوبيهما. بدت عليهما الحيرة والارتباك من أثر الصدمة الثقافية، ولكنهما لا يتبادلان الهمس أو التعليقات، وكأنهما تريدان أن تعيشان تجربة هذه الليلة بمفرديهما. كانت إحداهما ذات شعر أحمر ناعم، ووجهها يذكرني بدوقة يورك.

طلبت مني المرأة التي لها بنت في عمر مي أن أصنع لها كوبا من الشاي. خاطبتني بالإنجليزية. ربما كان لديها خادمة فلبينية وتعودت على مخاطبتها بالإنجليزية. كان عمل شاي لها في تلك الظروف أمر مزعجا، افتقدت فيه -مثل لمياء- إلى تلك الحفاظة. الآن لابد من العثور على أفضل إبريق للشاي، وأن أملأ صحن السكر. من المطبخ لا أزال استطيع تمييز الأغاني الصادرة من الصالة. تستثيرني تلك الأغاني... إثارة محتدمة وضحلة. دلفت لمياء للمطبخ وهي تقول: "نحتاج لمزيد من المقاعد." انتزعت مقعدين بسرعة وأمرتني بإحضار الكرسيين الآخرين، وقالت: "وإن احتجنا لمزيد من الكراسي، يمكننا استخدام الكرسي الموجود في غرفة تامر." لن يعجبه ذلك. لن يعجبه أخذ الكرسي الذي يجلس عليه. هل يا تري يسمع الموسيقي والضحكات الساحرة. تبعتها وأنا أحمل الكرسيين، ورجعت للمطبخ لأحضر صينية الشاي.

لابد من أن أنتبه لمي. لقد فقدت الاهتمام في الرقص، وبدأت تشعر بالملل. مالت دون قصد على صحن ملئ بالمكسرات وأوقعته أرضا. لم ينكسر الصحن. جلست على في وسط ما تبعثر على أرضية الغرفة. هرعت لتنظيم ما تخرب، وقرعتها، ولكنها لم تبد اهتماما ومشت في حالها بعيدا. مدت بشري يدها لها فمالت لها وابتسمت. تصاحبا، وضح أنهما كانا في

تفاهم شديد. كان منظرهما معا ورأسهما متلاصقين جميلا. جلست مي مع بشرى في كرسي الجلوس وهي تلعب بأشرطة حقيبة يد بشري. كان شعرهما بذات اللون، ولكن أحدهما كان مجعدا، والآخر ناعما مسترسلا. انتبهت بشري لأغنية عمرو دياب الجديدة، وبدأت تصفق معها وتردد كلماتها. يجب أن يراها تامر هكذا.

يدق جرس الباب، وتفتح لمياء الباب للضيف المتأخر، فقد كانت أقرب له مني. سمعت صرختها الفرحة" ثم صرخات الأخريات وضحكهن. لم أفهم لماذا كان كل الحضور يضحكون. بدت الفتاة مألوفة الشكل عندي، وكأنها واحدة من صديقاتي في المسجد. بدأت تخلع عنها معطفها، وتنزع غطاء رأسها، وأطلقت شعرها المجعد. عندما رمت غطاء رأسها بعيدا في ركن في الغرفة، وشهق الحاضرون، كنت واثقة من أن أمرا خطأ يجري. كانت ابتسامتها وحركات جسدها مسرحية الطابع: وكان الكل ينظرون إليها. بدأت ترقص، وكانت الموسيقى مناسبة تماما لإبتسامتها العذبة وعينيها اللامعتين. ملكت منتصف دائرة الرقص، وكانت تتحرك ببطء وكأنها تؤدي فاصلا من التعري "الاستربتيز"، وبدأت تفتح ببطء زرار بلوزتها وسط عاصفة من الضحك، وتفك رباط تنورتها. ضحكت أنا أيضا، فالضحك معد. بقيت الآن ترتدي فقط فستانا قصيرا دون أكمام، يشبه كثيرا ما يلبس فقط في غرفة النوم. قذفت إحداهن إليها بوشاح أحمر فربطته تحت وسطها ورقصت وهي تجول في الغرفة كالمنتصرة. سيذكر الجميع ذلك الحفل بتلك الفتاة الراقصة. كانت لمياء فرحة تكاد تطير من الفرح والضحك. مالت نحو الفتاة التي تشبه دوقة يورك وقالت: "نحن لا نسخر من ديننا، ولكن الليلة استثناء للقاعدة... فقط الليلة."

يجب أن أخبره. يجب أن أكون معه. أكملت السيدة شرب الشاي فأومأت لي بأن آخذ الكوب منها، بيد أني تجاهلتها. دق جرس الباب ولكني تجاهلته. ذهابي عبر الممر إلى غرفته عندي يشبه النقلة من فرح أصفر فاقع إلى نعومة وهدوء وخدر خفيف لذيد، كبدايات لحظات الدخول في النوم. دفعت الباب فوجدته جالسا على كرسيه أمام المكتب يفتل شعره. التفت إلي وابتسم.. حكيت له وأنا اضحك عن تلك المتحجبة، وكيف أنهم كانوا يدركون من البداية إن تحجبها كانت لمجرد للاضحاك، وأنا كنت الحمقاء الوحيدة التي - وأنا أنظر إليها وأنا باركة على الأرض التقط ما تناثر من المكسرات- اعتقد أنها واحدة من صديقاتي في المسجد. قلت ضاحكة: "هل تصدق إنه عند بعضهن فالحجاب زي تنكري!"

لم يضحك معي. انتصب واقفا وقال بغضب: "هذا فظيع. هذا غلط. يجب أن لا يفعلوا ذلك. أنا آسف يا نجوى. لابد أنك مستاءة وتشعرين بالإهانة."

"لا.. ابدا. إنهن فتيات صغيرات. مجرد بنات يلعبن. لا يقصدن شيئا. استطيع أن أرقص أفضل منهن. لم يكن الأمر موجها ضدي شخصيا. أنا بالنسبة لهم لا أعني شيئا... لست بالنسبة لهم..."

وضع يده على كتفي وهزني قليلا وقال: "توقفي." كان عيناه تشعان وقارا ومهابة وصفاء، وكنت أرى فيهما كل الخير. لطالما كنت أتوق للخير، وأسعى إليه... وهاهو أمامي. "توقفي. توقفي عن التقليل من شأن نفسك." لم يكن من المفروض أن يقرب مني أكثر، ولكنه فعل، وتعلقت به. أنا مجروحة وهو بلسمي الحلو. قبلني وهو لا يعرف كيف يقبل. كان من واجبي أن أدفعه، وأن لا أدعه يتعلم، ولكن رائحته جمدتني في مكاني. فجأة وقفت لمياء على الباب، كان نصفها داخل الغرفة ونصفها الآخر خارجه. كان مجرد وجود فستانها، ووجهها الصارم القاسي من أثر الكره يصدمني كشيء شاذ في المكان. كان من الواجب أن ابتعد عنه، ولكني تجمدت في مكاني.

"ما هذا!" كانت ملئية بالاستنكار وكأنها تصرخ: "كيف تجرأين؟ كيف تجرأين؟ كيف تجرأين" كانت أكثر صدمة منا نحن. تحركت بعيدا عنه ويداي متشبثتان بقميصه التي شيرت. فار شيء في نفسها فتقدمت خطوة نحوي ورفعت يدها عالية وصفعتني بقوة في وجهي. كانت صفعة مؤلمة حارقة فلهثت حين سحق جلدي خاتمها وأساورها. أظلمت الدنيا في وجهي وأنا أغلق عيني، وفار الدم في أذني. ثار تامر. انفجر ضدها وليس ضدي.

الجزء الخامس1991

الفصل الحادي والثلاثون

قالت لي بأنها ستستدعي الشرطة إن لم أعطها مالها. كان لدي مائة جنيه إسترليني. كنت متأكدة من أن لدي مبلغ كبير من المال في محفظتي- مائة جنيه- ولكني وجدت محفظة مليئة بقصاصات وردية توضح بيانات الحساب في البنك. بقيت أقلب بين الأوراق دون أن أجد نقودا. طلبت مني بطاقة شخصية، ولكني بحث دون جدوى في تلك الحقيبة عن جوازي أو بطاقة المكتبة العامة. لا أعرف هذه المرأة. كانت امرأة سوداء تتحدث العربية وترتدي ثوب نوم. شعرت بأنها تحتقر من شأني، وقالت لي بأنها ستستدعي الشرطة لي. تكلمت بهدوء، ولكن كلمة "الشرطة" جعلت دمي يتجمد من البرد.

"نجوى!"

فتحت عيني. هدوء وسكينة بعد كابوس فظيع. قال أنور: "كنت تتمتمين وأنت نائمة."

جلست على السرير وتنفست عميقا. يجب أن لا أغفو بالنهار، فذلك النوم لا يريحني. "لماذا توقفت عن الحضور لي. لماذا أحضر أنا دائما هنا، ولا تحضر أنت؟" نظر إلي من فوق الخطاب الذي كان يقرأه ورد بالقول: "لأنه من المنطقي أن نتقابل في المكان الذي فيه الكمبيوتر."

رمى لي بالخطاب، وعاد للتطلع إلى شاشة كمبيوتره. كان ذلك الخطاب من أخته في الخرطوم. خطاب طويل وحافل بالقصص والهذر. قرأته بحثا عن اسمي. لابد أنه كان قد ذكر اسمي لعائلته. "من هي ابتسام؟"

"بنت خالتي."

"لماذا تذكرها أختك كثيرا."

رد دون أن يتوقف عن الطباعة: "هما قريبتا من بعض."

"هل هذا هو كل شيء؟"

"نوعا ما."

"هل هنالك شيء بينكما؟"

"لا شيء رسمي."

هل يفترض أن أقلق أو لا أقلق من قوله هذا. لا شيء رسمي يعني أن هنالك شيئا غير رسمي.

التفت إلي وقال: "لا. هذا غير صحيح. لا يعني ذلك. أمي وأمها يتحدثان ويرسمان أشياء. منذ زمن طويل وهما يخططان أشياء منذ أن كنا أطفالا. مجرد كلام. لا أشعر نحوها بمشاعر قوية."

طويت الرسالة. تمنيت الآن أن لو أتى نحوي، وضمني إليه، وقال: "لا يجب أن تشعري بعدم الأمان. لا يجب أن تقلقي." ولكنه لن يفعل، وكأنه يتبع قانونا ينص على أنه: لا يجب أن يشعر أنور بالشفقة على نجوى.

قال لي: "تعالي وتحققي من صحة هذا." مشيت إليه قرب الكمبيوتر وجذبت مقعدا. بدأت في التعليق وفي إصلاح بعض الكلمات. بدأت أحس بضيقه من كثرة أخطائه التي اكتشفتها.

"ولكن على وجه العموم، فالنص جيد. وكأنه مأخوذ من صحيفة."

"أي صحفية؟"

"قصدت فقط إنه مقال ثاقب... مهني."

"إن كنت تتهميننني بالسرقة الأدبية، فمن الأفضل أن تخبريني عن المصدر."

أعرف لماذا أتخذ ذلك الموقف الدفاعي. معظم المقالات الانجليزية التي بعث بها للصحف والمجلات لم تقبل للنشر، وكل يوم أو يومين يرفض طلبه للعمل. أعرف كل الكلمات التي تقال للتسرية عنه، ولكني لا أجد اليوم في نفسي الثقة لأقولها له. قد أتفوه بالكلمات الخطأ، وأثير عراكا معه.

تأخذ مشاجراتنا وقتا طويلا قبل أن نتصالح مجددا، ويتطلب رأب الصدع الكثير من التذلل والتملق والصبر.

أنقذني صوت "أمين" وهو ينادي: "الآن نشرة الأخبار يا كمال، أين أنت؟ أنور؟"

تحركنا نحو صوت التلفزيون وكأن مغناطيسا يجرنا. صارت أوجه المذيعين مألوفة لنا... جادين، ومع مرور الوقت صاروا محببين. صرت مدمنة لرؤيتهم وكأنهم ممثلين في مسلسل تلفزيوني طويل. ارتمينا على الأريكة والمقاعد. مع انتهاء الحرب، كان هنالك شعور بأن حدثا خطيرا قد انتهى إلى لا شيء، ولم تعد الأخبار مليئة بالأنباء المثيرة الخطيرة. لقد نمت بيننا رابطة قوية ونحن نجتمع لنشاهد أخبار حرب الخليج على شاشة التلفزيون. وعند انتهاء الحرب لم يعد هنالك ما يربطنا غير لعب الورق. كان أمين يفوز دوما، وكان ذلك يغيظ كمال. لم يكن ذلك يريح كمال ولا أنور. يهدد فوزه، وهو البرجوازي الغني مالك الشقة في قلوستر روود، حسهم بالعدالة، ويؤذي نفوسهم أن يكون له أيضا ذلك الحظ الفطري الرائع. كنت أحاول إعطاء أنور فرصة للفوز، فأمنع نفسي من الفوز بعدم إظهار أوراقي الرابحة، ولكن لم تكن محاولتي تنجح دائما. كنا نلعب "الكنكان"، ومن يفوز يكسب مبالغ ضئيلة مثل نصف جنيه ورقي. كان هنالك شعور عام معين يلف جلسات "الكنكان" تلك... شعور "معدني" بسبب الحرب، وشعور خانق بسبب دخان

السجائر الكثيف والويسكي. يجعلهم الخمر يرغبون في طعام بعينه. ذلك كان الفول. كنت أسخن الفول المعلب، واخلطه بجبن "فيتا" الأبيض والطماطم. كنت أحيانا أقلي لهم بيضا، وباذنجانا وطعمية، وأسخن عددا لا حصر له من أرغفة الخبز. لم أكن أحب الأكل معهم، ولكني كنت أحب التركيز في اللعب. كان ملمس الأوراق الناعمة الجميلة يمنحني متعة تشويق لا توصف.

كنا قد لعبنا عدد من الجولات بعد أن تناولنا الغداء، ولم يضع أحد منا بعد أوراقه على الطاولة، لكن كان من المتوقع الآن أن يملك أي واحد منا النقاط الأربعة والخمسين المطلوبة. قال أمين وهو يسحب ورقة لعب من "الصندوق" ويضع على الطاولة ثلاثة أوراق من فئة الملك وثلاثة من فئة الملكة: "الساعة الآن الخامسة تقريبا. يجب علي أن أذهب الآن، فأنا مدعو للإفطار."

"إفطار في الخامسة؟" ضحكت، وكذلك ضحك كمال. نظرت إلى أنور ووجدته يبتسم ولكن أنظاره كانت مشدودة على أوراق اللعب. كان أمين يضع يده على الطاولة، ستة من كل القلوب إلى الولد، ومع "جوكر" في المنتصف.

رمى أمين بقية أوراق اللعب في الوسط، وسحب نفسا من سيجارته، وجمع ما فاز به. ابتسم وقال: "إفطار رمضان يا مشركين!". شهقت عاليا وقلت: "يا اللللللله!" ضحكوا لردة فعلي. قال كمال إنه عرف أن رمضان بدأ ذلك اليوم ولكنه نسي الأمر. قال أنور: "لماذا يصوم أي شخص عاقل في لندن؟ أو في أي مكان آخر؟ العطش الذي يعانيه الصائمون في حر السودان مضر بالصحة."

رد أمين من غرفة نومه: "أقربائي هنا يصومون بصورة عادية، وكل يوم يعدون مائدة إفطار رمضان." هزتني بعنف فكرة أن رمضان قد يأتي وينقضي دون أن أسمع به. نظرت إلى أنور فوجدته هادئا وعاديا وكأن لا شيء غير طبيعي قد حدث. سألته: "لماذا لم تخبرني؟"

رد أنور: "لماذا يجب علي أن أخبرك؟" لسبب ما جعلت تلك الإجابة كمال يضحك.

"ماذا تقصد لماذا؟ هذا أمر هام. هذا رمضان. يجب أن أعرف عنه. لا يجب أن يأتي رمضان دون أن أعرف أنه بدأ. لو كنا في الخرطوم لكنا عرفنا. روتيننا العادي كان سيتغير."

"الآن عرفت. هل ستصومين؟"

"نعم، دائما أصوم."

"أي نوع من الصوم؟" كان يحاول إغاظتي وهو يخلط أوراق اللعب، بينما بدا كمال مستمتعا بهذا السجال. كانا كثيرا ما يهزءان ويضحكان على ما يقولان إنه سلوكي الغربي، وانفصامي وبعدي عن التقاليد السودانية.

"الصوم العادي المعروف."

ابتسم أنور ورد: "لتفقدي بعض الوزن." كان يسخر دائما من محاولاتي لعمل حمية غذائية. نظر كمال إلي تلك النظرة التي لا أحبها.

قلت: "نعم... جزئيا."

"لماذا لا تصومين في أي وقت آخر من السنة. لماذا هذا الشهر بالذات؟"

"لأن رمضان هو شهر الصوم. هذا هو السبب. كل الناس يصومون."

قال كمال: "ولكنا نحن الآن في لندن. الناس في لندن لا يصومون."

"كنا دوما نصوم."

"صحيح؟ كل عائلتك؟". قالها أنور وابتسم، وشاركه كمال الابتسام.

قلت: "نعم. في الخرطوم كل عائلتي كانت تصوم."

"لم أكن أصوم. وأنت يا كمال... هل كنت تصوم؟"

"لا. لكن أمين كان يصوم."

قلت: "حسنا. ولكني لا أرى سببا لعدم الحفاظ على الصيام وأنا هنا."

اعتدل أنور في جلسته، وحلق في أوراق اللعب في يده وقال: "ولكن ما هو داعي الصيام هنا وهو نشاط مجتمعي."

"هو ضمن تعاليم ديننا."

حدق في وقال: "ولكن ألم يحن الوقت للتشكيك في هذه الأشياء؟ ألا تسألي نفسك عن صلاحيتها لكل زمان ولكل مكان؟ عندما تصومين تقل إنتاجيتك، ولا تستطيعين أن تعملي بكامل قدراتك."

"ولكننا لا نعمل اليوم. نحن فقط نلعب الورق."

"متى تتعلمين أن تناقشي مناقشة جادة؟" سبق أن قال لي مثل هذا القول، ولكني لا أذكر في أي المواقف. إحساس يسمه الفرنسيس Déjà vu، وهو عندما تكون متأكدا من أنك رأيت أو سمعت من قبل ما رأيته أو سمعته للتو. كررها هذه المرة: "متى ستتعلمين؟"

"أنا أناقشك مناقشة جادة." شعرت بالتقزز، ليس لأنه كان يهاجمني، بل لأني كنت الوحيدة في وسطهم التي تهتم بأشياء لا يعيرونها أدنى اهتمام. هل من الممكن أن يعلم المرء أو يرى شيئا عمي عنه الآخرون؟

قال لي وقد بد عليه فجأة الملل: "اذهبي... اذهبي واحضري لي ثلجا."

ذهبت إلى المطبخ وفتحت الثلاجة وحدقت في محتوياتها، وشممت رائحة الطعام البارد. في بطني طعام غداء، وكان من الواجب أن لا يكون هنالك.

أحس بطعم مشروب الكولا في فمي. أفتقد وأحن إلى رشاقة الصيام... جسدي نظيف، وفمي جاف، ثم يحين موعد الإفطار عند الغروب، وتأتي الأطباق الخاصة، والمشروبات الملونة في أباريق زاهية تطفو عليها قطع الثلج..."قمر الدين" بلونه البرتقالي، و"الحلومر" مر" بلونه القرمزي، والقريب فرت بلونه الوردي، والضيوف، والسيارات المتوقفة أمام دارنا، وابتسامات أمي المرحبة وهي تنصح الضيوف بعدم الإفراط في الشرب، وعدم تناول الكثير من الماء، فذلك يعيق الأكل فيما بعد.

عوضا عن أن أجلب الثلج، ذهبت للحمام وأغلقت الباب علي. أحسست بعقلي ينحرف جانبا. كدت أتوقع أن أنظر في المرآة وأرى عنقي مرفوعا لجانب واحد. لطالما كنت أصوم دوما، حتى عندما كنت مرافقة لأمي في المستشفى عند مرضها الأخير. كانت الممرضات في مستشفى هيومانا يعلمن عن رمضان لأن كثير من المرضى في ذلك المستشفى كانوا من العرب. واحدة من أولئك الممرضات سبق لها العمل في السعودية، وجمعت "بعض المال" كما قالت. كان صيام رمضان هو الشعيرة الدينية الوحيدة التي كنت أمارسها - كم يوما فقدت من رمضان؟ طرق أنور الباب، وتصورت أنه يعرف أني مستاءة، وقد أتى ليسأل عني. في الواقع كان أنور يريد فقط استعمال الحمام.

تحدثنا ونحن نقف معا في الحمام، بينما كان الماء يصب ليملأ حوض المرحاض. لن يبارح ذلك اليوم ذاكرتي. كيف كنا محشورين في حمام نتن عوضا عن أن نكون في مكان نظيف.

"ما مشكلتك هذه الأيام؟"

هززت كتفي.

ابتسم وقال: "هل أنت مكتئبة؟" كنت أضحك عندما يفتح عينيه واسعا مثلما يفعل الآن.

"عقلي مشغول."

"بماذا؟"

جلست على طرف حوض الاستحمام. كان وضعا غير مريح. وضعت رأسي في يدي. تكلمت ببطء ودون أن انظر إليه. "خالي صالح سيذهب للخرطوم الأسبوع القادم. أظن أنه ستكون فرصة جيدة لأبيك ليتكلم معه، حتى نعلن خطوبتنا رسميا."

بدا حذرا، وكأنه كان قد فكر في الأمر من قبل. "هذه ليست فكرة جيدة."

"لماذا؟"

"لأنه ليس لي خطط مستقبلية حتى تسقط هذه الحكومة."
"إعلان الخطوبة ليست خططا مستقبلية. لن تغير شيئا."
"بالضبط. إذن لماذا نهتم بها؟" أثبت - مجددا - ما يريد.
"حتى يعلم الناس أننا سنتزوج." لم يكن ذلك ما أردت قوله. كنت أريد أن أقول شيئا آخر، بيد أن عجزت عن قوله بالكلمات: كان الأمر غامضا ومعقدا.
"الناس. أين هؤلاء الناس؟ هل تعدين كمال وأمين "ناس"؟ ومن يرانا في لندن؟ من لديه الوقت لينتقد علاقتنا؟"
كسب تلك الجولة، ولكني انتصبت واقفة وصحت فيه: "بالأمس أغضبتني."
تأوه قائلا: "ماذا فعلت؟"
"ماذا قلت عن أبي؟"
"ماذا عنه؟" لم يتذكر ما قاله. كان بالفعل لا يتذكر.
"قلت بأنك لا تريد لدمائه أن تسري في عروق أبنائك."
"كنت أمزح. هذا هو كل ما في الأمر."
"تمزح."
"نعم. أليس بإمكاننا أن نمزح؟ هل يفترض أن نكون جادين طوال الوقت؟" نظر إلي بتلك العينين الواسعتين.
"لا استطيع الاستمرار هكذا."
فتح الباب وهو يقول خارجا من الحمام: "يا لله. دراما الآن! ستصنعين من هذا دراما. اكبري قليلا.."
جمعت أغراضي وذهبت للمنزل.

حاولت الصوم في اليوم التالي. عند دخول العصر شعرت بخوار قواي، وبنقط سوداء تترأي أمام عيني وأنا أمسح أرضية مطبخ الخالة ايفا. تعرقت واضطررت للجلوس. كانت يداي باردتان ورطبتان من اثر التعرق الشديد فرميت بالممسحة أرضا. كانت الخالة ايفا برفقة مهندس مساح يقيم البيت، فيما كان مساعده يقوم بإجراء بعض القياسات. كنت أسمع ثلاثتهم يتحدثون في الغرفة المجاورة. لم استطع مقاومة الجوع والتعب بأكثر مما صنعت، فشغلت مغلاة الماء الكهربائية. لم يكن بمقدوري الاستمرار في الصوم بغير كوب من الشاي، وبدون مدد من السكر.
عندما غادر المهندس المساح ومساعده البيت، جائتني الخالة ايفا وأخبرتني والدموع تترق في عينيها أنهم قرروا بيع البيت، والرحيل إلى "برايتون" ليكونوا قريبين من أولادهم. لم يكن العمل في مكتب العم نبيل يمضي بصورة جيدة، وهو عازم على التقاعد. هبط علي ذلك الخبر

كالصاعقة، ثم نفذ في جسدي، وأحسست ببرودته القاتلة تسري في عظامي. كنت على وشك أن أفقد هذه الوظيفة، وأفقد أيضا رفقة الخالة ايفا، بيد أن اليوم، وخلافا لكل الأيام الأخرى، بدا المشهد كله فيه وكأنه غير واقعي. مشهد اختلط فيه ذلك الشعور الردئ بالجوع. تمالكت نفسي وقلت لها في هدوء الكبار: "سأزورك في برايتون."

"بالطبع لا بد أن تفعلين. نعم... طبعا. أي وقت. أنا في مقام أمك." كانت لطيفة دوما معي... دوما... والآن سأفقدها أيضا.

قال لي: "لا تقلقي يا نجوى. سأسال وأتقصى وأحاول أن أجد لك وظيفة عند واحد من معارفنا. أعرف سيدة سورية. هي حامل ومصابة بإرتفاع ضغط الدم. طلب منها الطبيب أن ترتاح، ولكن كيف للمرء أن يرتاح في هذا البلد؟ لديها ثلاثة من العيال، وكلهم أشقياء. ستحتاج قطعا لمن يساعدها. ولكن هل أنت متأكدة من أنك تريدين الاستمرار في هذا العمل؟ الأ تودين أن تكملي تعليمك وتدخلي الجامعة؟ سيكون أمامك العديد من الفرص إن كان لديك شهادة جامعية."

هززت رأسي. كان أنور هو من سيبدأ دراسته للدكتوراه. حصل على قبول من كلية الأقتصاد في جامعة لندن، وكنت أنا التي سلفته المال اللازم. لم أكن أثق في أن يكون في مقدوري أن أجلس في قاعة محاضرات وأن أكتب شيئا ذكيا. لن أجيد ذلك. كان أنور يقول دوما بأنني لا أحمل ميلا للثقافة.

حاولت الصيام مجددا. وقت المنبه حتى استطيع الاستيقاظ قبيل الفجر لتناول السحور. ربما لم يعمل المنبه، وربما أكون قد أوقفته وأنا نصف نائمة، وعدت للنوم. تكرر ذات المشهد. حبيبات سوداء مثل قناديل البحر الهلامية تترآي أمام عيني، وشعور عام بالدوار والخوار. يحيرني فشلي في إكمال يوم الصوم، ويذهلني عصيان جسدي وتمرده على الصوم. بدأت أخشى على نفسي من الحبيبات السوداء، والدوار- في الخرطوم كنت أصوم رمضان وأستطيع مع ذلك أن أؤدي تمارين جين فوندا الرياضية قبل الإفطار بساعة واحدة. أقول لنفسي إن رمضان سينقضي، وإن عزائي هو أني لست في حاجة للمحاولة مرة أخرى.

في العيد اتصلت بي رندا من أدنبرة. بذلت كل ما تستطيع كي تصوم رغم أنها كان تؤدي الامتحانات النهائية. احتفلت بالعيد مع الطلاب السودانيين في أدنبرة: فتاة سودانية عادية، ليست مفرطة التدين، وليست فتاة منفلتة كذلك. كنت مثلها يوما، ولكن خلال السنوات جرت مياه كثيرة تحت الجسر. قالت إنها حصلت على درجتها في الطب وسوف تعود للخرطوم كطبيبة

كاملة التأهيل. قد استطيع أن أقنعها أن تقضي معي بضعة أيام قبل رجوعها للبلاد، وأغريها بجولة تسوقية في محلات لندن، ولكن سيؤلمني أن أراها ناجحة وراضية، ولها أب، وأم، ومستقبل وظيفي مهني ينتظرها. لن استطيع أن أكبت مشاعر الحسد التي ستعتمل في صدري. وبالإضافة إلى كل هذا، فما الذي يجمعني مع رندا سوى الماضي. ربما كان من الأفضل الآن أن تسير كل واحدة منا في طريقها.

اتصل بي خالي صالح من تورنتو، أيضا ليهنئني بالعيد. لم أجد في نفسي الجرأة لأخبره بأني سأبدأ العمل مع صديقة الخالة ايفا - أنا الآن خادمة بصورة رسمية تأخذ أجرها بالساعة. لا مجال بعد الآن للتظاهر بأني أساعد صديقة سابقة لأمي. كان محقا في ذلك اليوم الذي تغدينا فيه في مطعم "بيت الأسباجيتي". كان يجب أن اذهب معه إلى كندا. كان سيحميني. كان متوترا من طول إجراءات الهجرة، وغاضبا من ابنه عمر، ومحرجا من عدم رغبته في الزواج مني. لم أشأ أن أكون عبئا إضافيا عليه. الآن إن طلب مني أن أذهب معه فسوف افعل فورا. بيد أنه مضي يدردش معي ولم يأتِ على ذكر أمر ذهابي له. لم تعد كندا خيارا لي.

أتصل بي أنور يسأل: "أين أنت؟ أين كنت؟ أحتاج عونك في كتابة مقال - هذا أمر عاجل. هل لا تزالين غاضبة؟"

"لا. لست غاضبة." قلت ذلك لأن ذلك كان هو الشيء الصحيح.

"هل تستطعين الحضور غدا؟ سأكون قد أكملت المسودة الأولى، ويمكنك أن تطلعي عليها." فكرت في تصحيح مقاله، والسير برفق حتى لا أؤذي مشاعره. بعد أن أقول له: "يجب أن تغير هذا، وتحتاج لتقول كذا" كنت أتملقه وأجامله. كان في حاجة مستمرة لي لأؤكد له ولأطمئنه بأنه ذكي ووسيم، وأن عرجه لم يعد ملاحظا.، وأنه سيحقق في يوم قريب كل أحلامه. بيد أني كنت أحتاج أيضا لأشياء منه.

هاهو الآن يقول لي: "لا تتأخري."

"لا. لن أتأخر." كانت أسهل من قولي: "لن أحضر. لن استطيع أن أساعدك في الانجليزية بأكثر مما فعلت." كان الكذب هنا أسهل - "أراك غدا" - أسهل من الدخول في مشاجرة.

عندما وضعت سماعة الهاتف ومضيت حافية القدمين عائدة لغرفة نومي أحسست بنوع من الطمأنينة يغمرني. رقدت على السرير وخلدت إلى نوم عميق. عندما استيقظت، أخذت حماما بالدش. لم يكن حماما عاديا. كان أشبه بالتطهر... بالبداية الجديدة... بالرغبة في النظافة... والشوق إليها.

في المرة الأولى التي أدخل فيها إلى المسجد رأيت فتاة تجلس بمفردها، وقد وضعت المصحف على حجرها، وهي ترتل سورة الرحمن. جلست استمع لترديد الآيات، ولترديد السؤال: "فبأي آلاء ربكما تكذبان." كانت هنالك نساء أخريات في المسجد، وقد أسندت الكبار منهن ظهورهن على الحائط. كانت هنالك أيضا مجموعة من الأمهات مع أطفالهن، وبدت على أوجههن السعادة لخروجهن من المنازل، ومجموعة أخرى من المراهقات وهن يرتدين سراويل جينز ويغطين رؤوسهن بطرح، وجماعة أخرى من النساء الأنيقات متوسطات الأعمار اللواتي بَدَون وكأنهن عائدات للتو من العمل. من كل هؤلاء، استأثرت الفتاة التي تتلو سورة الرحمن باهتمامي. كان انعزالها التام عن ما حولها ملائكي الطابع. "فبأي آلاء ربكما تكذبان." لابد أنها أخذت دروسا في التجويد. أو ربما تكون أمها قد أعطتها دروسا في المنزل. لا ريب أنها واثقة في نفسها، وإلا لما ظلت تتلو بصوت عال وسط الناس. تمنيت أن أكون مثلها. هذا في حد ذاته أمر غريب. كانت شاحبة وهادئة صافية. ملابسها عادية لا تثير التفاتا. لم يكن وجهها مثيرا أو جميلا، ولم يكن فيها ملمح يشي بنجاح داوي أو سعادة طاغية تستدعي الحسد. رغم ذلك كنت أتمنى أن أكون مثلها... صالحة مثلها. تمنيت أن أكون صالحة، بيد أني لم أكن متأكدة من أني كنت مهيأة تماما أو مستعدة لذلك.

كنت أرتدي ما كنت أظن أنه أكثر ملابسي بساطة. فستان طويل الأكمام يتدلي تحت ركبتي. عندما أنحني ساجدة ينكشف باطن ساقي ومؤخرة ركبتي. أتي شخص من خلفي ورمى بمعطف ليغطيني من الخلف. أظن أنها كانت إحدى العواجيز الموجودات في المسجد.، إذ لاحظت الصعوبة التي نهضت بها، والتنهيد المسموع عند حركتها وهو تقترب مني. وقع المعطف عندما قمت من السجود. غمرني شعور بالخجل عندما انزلق من جسدي ذلك المعطف. سمعت صوت تنهدات وحسرة وكلمات بلغة غريبة على أذني... لعلها تركية أو أوردو. لما فرغت من الصلاة لم أجرؤا على أن أنظر في عين من رمى بالمعطف من خلفي. بقي المعطف مكوما خلفي. جلست على الأرض محدبة الظهر، وأنا أحاسب نفسي على أنني لم أكن صالحة، وأنني بعيدة... بعيدة جدا، وأن أخذ الخطوة الأولي بالحضور هنا لم يكن كافيا.

الفصل الثاني والثلاثون

بدا واضحا لي أنني من الذين قلبت لهم الدنيا ظهر المجن، وجارت عليهم الأيام. هوى مركزي الإجتماعي والمالي بعد إعدام والدي، وخلال فترة مرض والدتي، وعندما هجرت الدراسة في الكلية، ثم بعد اعتقال عمر، وخلال علاقتي مع أنور. أخذت تلك المراحل وقتا طويلا من عمري، اختلطت فيها الأمور عندي والتبست. في بعضها شعرت بأن الأمور ستنصلح وتسير نحو الأفضل. كان للندن أول مجيئنا سحرا وبريقا، وكنت أنا وعمر في الأسابيع الأولى من وصولنا لها قبل محاكمة بابا في غاية السعادة والحبور. لم ندرك أننا كنا منفيين، وأننا سنطلب اللجوء. كنا نستمتع برغيد العيش في الشقة التي نقضي فيها عطلتنا، ولم تكن ماما تبخل علينا بمصروف جيب معتبر. عندما عملت عند الخالة ايفا وجدت عندها حنين صوت مألوف، وذكريات جميلة حولي عن أيام الخرطوم السالفة. الآن فقدت كل هذا بعد رحيلها، وصديقتها السورية لا تعلم شيئا عن السودان ولا عن والدي. وظفتني كخادمة، وصرت لها خادمة. عملت كخادمة مثل أولئك الخدم الذين كانوا يعملون عند والدي. لم أشعر في ذلك بغرابة. كدت أشعر بأن لا ضير في ذلك. لا أحد في المسجد يعلم شيئا عن ماضي.، ولم أتحدث به لأحد. ما يستطيعون معرفته عني ليس مثيرا للإعجاب: افتقد التنشئة الدينية المبكرة، وليس لدي درجة جامعية، ولا زوج، ولا مال. كثيرون تقربوا مني لذات الأسباب. يتكلمون عن أنفسهم ويدرجونني في زمرة الفقراء المعتمدين على الإعانة أو الآتين من بيوت معدمة. لم أشعر في ذلك بغرابة. كدت أشعر بأن لا ضير في ذلك. وصل الانحدار والسقوط إلى نهايته. ببطء ولكن بثقة وتأكيد استقريت في القاع. شعرت هناك - للغرابة- براحة شديدة وانعدام للألم، وبأن الأسوأ قد انقضى دون رجعة وانه في ذلك القاع تستقر الحقيقة.

اختارني مرشدي ولم أخترهم. أحيانا أقف وأفكر في: ماذا أفعل في عربة هذه المرأة، وماذا سأفعل في بيتها، ومن أعطاني هذا الكتاب لأقرأه. كانت الكلمات واضحة جلية، وكأنني كنت أعرف كل هذا من قبل، ولسبب ما، ولطول المسافة، نسيته. انعش ذاكرتي. علمني شيئا قديما. اصدمني. أرحني. اخبرني بما سيحدث في المستقبل، وما حدث في الماضي. فسر لي. فسر لي لماذا أنا هنا، وماذا افعل. فسر لي لماذا جار علي الزمان. هل هو أمر طبيعي؟ وهل له من علاج؟

أخيراً تجسدت لي وفاء. تلك المرأة التي كفنت جثمان أمي. تلك التي كانت تتصل بي هاتفيا كل حين وآخر للتحدث معي عبر محيط واسع، جعل لامبالاتي صوتها يخفت، ومناشداتها تهن. اتصلت بها لأقبل دعوتها لي التي

قدمتها منذ عامين اثنين. لم تبد استغرابا. قالت لي: "سنأتي لنأخذك عند السابعة." بقيت أنتظرها وأجاهد كي أتذكر كيف يبدو شكلها.

مرت من أمام شقتي حافلة صغيرة زرقاء يقودها زوجها الإنجليزي الأشقر. لم أر واحدا مثله من قبل. رجل غربي اعتنق الإسلام. جلست قرب أطفالهم... صبي ذو شعر طويل، وبنتان نحيلتان. بدت وفاء أكثر حيوية وأقل عمرا مما أتذكره عنها. كانت ترتدي بنطالا وحجابا بنيا. ربما كانت منشرحة لوجودها مع عائلتها. لم يلتفت إلي زوجها أو يتحدث معي بينما كانت وفاء تدردش معي بالعربية طوال الطريق إلى المسجد. اشتكت من مدارس الأطفال، ومن تغطية الإعلام عن حرب الخليج، ولكني لاحظت أنها تأخذ هذه الأمور هكذا... دون تعمق أو تدبر. كانت رائحة زيت التربنتين تملأ الحافلة الصغيرة، وكانت هنالك بقايا أوراق حائط ملقاة على أرضيتها. كان زوجها "علي" يعمل فنانا ومهندسا للديكور. أما هي فكانت مساعدة خياطة في محل للخياطة في بوند استريت. قالت لي: "يمكنني أن أخيط لك بعض الملابس". فهمت قصدها من أن ملابسي غير مناسبة.

لكن الذي حيرني هو علي.

فهمت من أنور أن الإنجليز كلهم علمانيون وليبراليون. لم يكن علي هكذا أبدا. كان انجليزيا حتى النخاع، ولم تطأ قدماه أبدا أرضا غير بريطانيا. عندما تعرفت على وفاء أكثر وأكثر حدثتني عن تحوله للإسلام، وكيف كان مسيحيا متدينا، ولكنه لم يجد في الكنيسة التشدد والصرامة التي ينشدها. ومع تكرار توصيلهم لي للمسجد، ازداد فهمي له، وأنا استمع إليه يشكو لوفاء من ازدحام الطريق، أو يمازح أحد الأطفال. لم تكن لهجته هي التي وجدتها غريبة بعض الشيء. لم يكن لامع الذكاء، ولكني أعجبت بعاطفته وبصبره مع الأطفال، وبالطريقة التي ينظر بها للحياة على وجه العموم. قارنت بين أنور وعلي، وكيف أنهما نقيضان لن يلتقيا، وكيف أن وجود أحدهما يقوض الآخر.

عرفت أنور بقدر يسمح لي بأن أخمن ردة فعله لما أسمع وأرى في العالم من حولي. كانت آراؤه حول الدين قطعية محددة، وكان يكن للمتشددين كل الكره. كان يؤمن بأن الاعتقاد في أي شيء غيبي مثل الملائكة أو الجن، أو الجنة أو النار، أو القيامة هو جهل وتخلف. كان يطلب تفسيرا منطقيا، وسببا ماديا لكل حدث. كان لا يملك إلا أن يحتقر من يطلبون العون من الله، ويعملون للجنة، ويخافون عذاب النار. كان يرى ذلك ضعفا. وفوق ذلك، لم يكن يرى في التدين أمرا حميدا عديم الخطر. يضرب أنور مثلا بما جرى في السودان، وضيعة حقوق الإنسان فيه، وانعدام حرية الرأي والتعبير، وشيوع الإرهاب. هنا بالضبط مصدر حيرتي. لا أريد أن أفكر

في مثل هذه الأمور الكبيرة إذ أنها تغمرني وتربكني. لا أفكر إلا في نفسي، وفي مشاعري وأحاسيسي وأحلامي وخوفي من المرض والهرم والقبح، وفي شعوري بالذنب عندما كنت معه. لم يقتل المتشددون أبي، ولم يعط أحد منهم مخدرات لأخي. لكني لم أكن بطبعي مثل أنور، فليس لي مثل شجاعته أو تعليمه أو قدرته على الحديث. استسلمت له، ولكنه ظل عندي واقفا في الجانب الخطأ. لم أبرأ أبدا من الذنب. الآن أريد أن أتطهر... أن اغتسل، وأن أعيد البراءة إلى حياتي. أتوق للعودة لحظيرة الإيمان، وأن أرجع في أمان الله. أشتاق لرؤية والدي مرة أخرى، وأن أكون معهما كما يحدث في أحلام منامي. من يهاجمهم أنور كرجال شديدي التعصب الأعمى وضيق الأفق، هم في الواقع رجال شديدو العطف على زوجاتهم، يحمونهن ويذودون عنهن. ذات مرة اشتكيت لأنور بأن كمال أتى من خلفي في المطبخ، والتصق بي بسرعة، وادعى أن الأمر كان بلا قصد. كل ما فتح الله به عليه هو أن قال: "أنت فتاة مثقفة بما فيه الكفاية لتتعاملي مع مثل هذه الأمور يا نجوى. لا تضخمي الأمور. كوني مرنة معه، فالمسكين لديه من المشاكل ما يكفيه."

قالت وفاء: "أنا سعيدة جدا إنك تأتين معنا للمسجد كل أسبوع. سعيدة بأنك أحببت مجموعتنا."

بالفعل أحببت مجموعتهن. أحببت البساطة وعدم الالتزام بالرسميات، والجلوس على الأرض، وغياب الرجال... غياب الشرر الذي يجلبونه معهم، وغياب القشعريرة والرعشة، والالتباس والغموض. بدونهم كان الجو العام نسويا ناعما ولطيفا بريئا. الأطفال يحيطون بنا... بنات صغيرات ممتلئات يجلسن بالقرب من أمهاتهن، ورضع يحبون إلى أن يصلون إلى الحائط، ويقفون - مع بعض الاهتزاز- على أرجلهم وهم فخورين. أحب الدردشة في هذه الجلسات النسائية، فهي جادة وبسيطة في ذات الوقت.. مفعمة بالحيوية ولكنها تفتقد الذكاء، وتفتقر إلى الفكاهة. ما أسمعه هنا لا أسمعه أبدا في تلفزيون أو أقرأه في مجلة. وجدت صدى في نفسي. أسمعه فأعيه: أحبب من شئت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فإنك ميت. ليس لأبن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري به عورته، وجلف الخبز والماء. ظننت أن مثل هذه الأحاديث ستجعل مني امرأة كئيبة عابسة، وستجرني للخلف. على العكس تماما... كنت أعود من المسجد هادئة منتعشة وكاملة اليقظة وسعيدة تقريبا. ربما كنت سعيدة لأني بدأت أصلي مرة أخرى - ليس كما كنت صغيرة... أصلي فقط طلبا لتحسين درجات الامتحان أو كتقليد يحدث في رمضان- بل بالرغبة الصادقة في الاستمرار

وعدم الانتكاس. أتوق لعمل شيء جديد. أتوق لمتعة روحية، والآن تبين لي أن ذلك هو ما كنت أحسد عليه الطلاب وهم يصطفون للصلاة في ميدان جامعة الخرطوم العشبي. ذلك ما كنت أحسد عليه الجناييني وهو يرتل القرآن، وخدمنا وهم يستيقظون قبيل الفجر للصلاة. الآن عندما أسمع القرآن يتلى، لا أسمعه بغير خشوع ولا تدبر، بل أنصت إليه بكل حواسي.

كان واحداً من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم معظم الليل وهو على سقف داره حتى ظنه أحد الأطفال الصغار شجرة واقفة. شجرة منتصبة فوق سقف الدار... يا للعجب! إن لم يكن ذلك الرجل مستمتعا بما يصنع، كيف له أن يغالب النوم... كيف له أن يواصل الصلاة طوال تلك الساعات؟ تأتي متعة ذلك الصحابي من أنه خشع لله رب العالمين...

كان أنور يتصل بي هاتفيا بين حين وآخر. في البداية كان غاضبا من أني لم أشأ أن أساعده في مقاله. بعد ذلك صار محتارا في أمري. أخبرته عن نشاطي وأصحابي الجدد. قال لي: "إنها مرحلة تمرين بها. أنت لا تشبهين هؤلاء الناس. أنت فتاة عصرية."

كان انطباعه الأول عني هو ذات الانطباع الذي ظل محتفظا به طوال السنوات كفتاة جامعية ترتدي تنورة قصيرة محزقة، وتتحدث الإنجليزية بلهجة أبناء المدارس الخاصة، وتضحك وتتغنج في الحديث، وهي فتاة جريئة مغامرة.

"لقد تغيرت يا أنور."

"لا لم تتغيري. إنك فقط تتوهمين."

"في المسجد أحس بأني في الخرطوم مجددا. إنه الجو العام، الطريقة التي يتعامل بها الناس..."

"أنت مخطئة. في السودان يوجد ما هو أكبر من الإسلام."

لم أشأ أن أجادله. سيكسب الجولة بالأرقام والحقائق، وسيجيد إخراج وتقديم حججه وبراهينه. بيد أني كنت أتبع مشاعري وما أحسه في قلبي، ولا أعرف كيف أدافع عن ما أحسه."

قال لي: "اشتاق إليك. ألا تشتاقين إلي؟"

"نعم. أشتاق إليك، ولكني لم أعد أتحمل ما ظللت ترده عن أبي. لا أستطيع العيش في حياة لا أعرف فيها إن كان رمضان قد بدأ أم لا. لا أستطيع. تعبت من أن أحمل ضميرا يعذبني. تعبت من الشعور بالذنب."

لو تقدم للزواج مني في تلك اللحظة لقبلت علي الفور ولعدت إليه. لكن شاء القدر أن يرد بالقول: "أنت لا تشعرين بالذنب يا نجوى. هؤلاء الناس

غسلوا دماغك بأفكارهم. ما بيننا هو الحب. ليس هنالك ما يدعو للشعور بالذنب."

كان يتحدث عن شيء آخر، وكأنه لم يكن يخاطبني. كان يجيد إهانتي وإيذائي: "لو كان كل ما تسمعينه في المسجد صحيحا، فستذهب خالتك الحبيبة ايفا إلى النار لأنها غير مسلمة. كيف تفسرين ذلك بعد كل الخير الذي قدمته لك."

بدأت أتأتيء وأتلعثم، وانفجرت باكية وأصابني التشنج. حاول - دون جدوى- أن يكتم ضحكته.

لأن تدع محرما خير عند الله من الحج خمسة ألف حجة. أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ وإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ. فمن صبر على طاعة الله تعالى أعطاه الله تعالى يوم القيامة ثلاثمائة درجة في الجنة كل درجة ما بين السماء والأرض. ومن صبر على محارم الله أعطاه الله يوم القيامة ستمائة درجة كل درجة مثل ما بين السماء السابعة والأرض السابعة. كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون. حتى أن النبي صلي الله عليه وسلم (وهو المعصوم) يقول: "واللّه إني لأستغفر اللّه وأتوب إليه في اليوم أكثر مِنْ سبعين مرة".

هل لي أن اسأل الرحمة والغفران لغيري؟ لمن مات؟

نعم. يمكنك ذلك. بالطبع يمكنك. بإمكانك أن تتصدق باسم من مات.، وأن تتلو القرآن وتهبه ثوابه. كل ذلك سيصله. سيسهل عليه ذلك وحشة القبر ووحدته. ستكون تلك الهبة نورا ورحمة على قبره، وسيعلم الميت بمن بعث له بتلك الهدية.

وقفت أمام المرآة ووضعت الوشاح على شعري. تمردت خصلات شعري على الرباط. هربت بعض خصلات الشعر واستقرت على جبيني. دفعتها لمكانها تحت الوشاح.. تكوم شعري كسنام ذي زاوية تحت الوشاح. كان الوشاح القطني قديما رثا. كانت أمي تستعمله لتغطية شعرها عندما تغسله بالزيت. الآن فشل ذلك الوشاح في تغطية شعري كله.

مع غطاء شعري زال شيء ما من وجهي.. انتقص منه. هل هذه هي "أنا" بالفعل؟ دون خصلات شعري المجعد كان وجهي يبدو أنيقا ومرتبا وأليفا. أبدو في غاية الجلال والرقة.

سألت نفسي: في أيهما أبدو أصغر سنا؟ بوشاح أم بدونه؟ في أيهما أبدو أكثر جاذبية؟ كانت الإجابة واضحة عندي. رميت بالوشاح على السرير. لم أكن مستعدة بعد لتلك الخطوة. كان الوشاح يفوح برائحة الزيت الذي كانت تستخدمه أمي على شعرها. أتصورها تأتي من مصفف الشعر في الخرطوم

وشعرها ناعم ومستقيم النهايات، مع بعض الكهرباء الثابتة فيه، ورائحة مثبت الشعر. في مثل تلك الأيام لا يغطي التوب إلا بالكاد رأسها، وتتركه - وهي سعيدة- ينزلق منه. عندما كنت صغيرة كنت أحب أن أمر بيدي على شعرها الناعم، وأستمتع بنعومته المؤقتة. كانت تحذرني وتقول: "هل يديك نظيفة؟"

ستعيد قطرة من الماء أو العرق خصلة من الشعر لمكانها، وفي يوم كهذا ستسير لمكان مميز، حيث ستتألق وتثير الإعجاب وتدير الرؤوس. ولكن في الأوقات غير السعيدة، عندما لا يكون شعرها مصففا، فإنها تجعه كله على شكل "كعكة" ولا تدع الثوب ينزلق من على رأسها. حينئذ تكون أقرب إلى كونها ترتدي الحجاب الكامل. لم تكن لتصدق ذلك، ولكنها مع ذلك كانت جميلة أيضا... حادة النظافة، وهشة من غير ماكياج، في عينيها توهج ونور.

أخرجت أحد أثوابها القديمة - ياردات من الحرير البني اللون. ربطت شعري من الخلف بشريط بلاستيكي، وثبت خصل شعري بدبابيس. لففت الثوب حولي، وغطيت شعري. وقفت أمام المرآة كاملة الطول فرأيت نسخة أخرى من نفسي... ملكية المظهر كوالدتي... وغامضة تقريبا. ربما كان هذا هو نفسه مصدر الإعجاب... مهارة أن تخفي أكثر مما تظهر، وأن تمسك أكثر ما تمنح.

أخذتني وفاء لنشتري أول غطاء لشعري. في آخر الجولة التسوقية اشتريتها من محل "تاي راك". اخترت الألوان، ولكني تركت لها حرية الاختيار الأشكال من مربعات ومستطيلات طويلة. عندما عدنا لمنزلها وفي غرفة نومها، بين أطفالها، علمتني كيف تربط كل واحدة منها، وكيف أربط غطاء الرأس، وأين أضع الدبابيس. قالت لي وكلها تشجيع وحماس: "تبدين لطيفة جدا". من أين أتت هذه المرأة؟ كان دورها هو غسل وتكفين جثمان أمي، والآن تعلمني كيف أغطي شعري مدى الحياة. هي مرشدتي وليست صديقتي. يوما ما ستنتقل بعيدا لتلميذة أخرى، وسأتنقل أنا لمعلمة أخرى. الآن أجلس على مقعد أمام منضدة التسريحة، وآخذ دبوسا من يدها، وأتأمل علب عطورها وكريماتها. عندما آب علي لبيته لم تدخله وفاء لغرفة النوم. أذعن لطلبها من خلف الباب، وغرقنا جميعا في قرقرة ضاحكة. عندما ذهبت لشقتي كنت سعيدة مبتسمة. كنت واعية بذاتي بسبب ذلك القماش المربوط حول رأسي. مررت بنافذة أحد المحلات، ورأيت وجهي منعكسا في الزجاج فجفلت أولا، ولكني قلت لنفسي: "ليست سيئة... ليست سيئة جدا." كانت تحيط بي هالة من الرقة. لم يعد عمال البناء المعلقين في سقالات المبنى العالي يروونني. كنت بالنسبة لهم "غير مرئية" وبقوا هادئين. اختفت الرعشة والقشعريرة، وخبا الشرر. حدث كل الأمر بسهولة ويسر. لكني

فكرت..." آه. هل هذا هو كل شيء؟ فقط مظهري وكيف أبدو؟ لا شيء. لا شيء غير المظهر."

كلما تعلمت أكثر، كلما ازداد ندمي على ما مضى، وفي ذات الوقت ازداد أملي. عندما تدرك رحمة الله، وتنعم بها، ستخجل من أن تعصاه. تعددت نعمه. أولها في رحم المرأة. أعطاها جزءا من اسمه: الرحمن. هذا المكان الذي كنا كلنا فيه. وفر لنا الحماية، ومنحنا الدفء والغذاء... هل تتذكر...؟

أحينا تنساب الدموع من على خدي. أتعرق وأشعر بالحرقان في وجهي وفي صدري. هذه عملية "التنظيف" التي أحتاج لها. تماما مثل تقشير البشرة وتنظيفها وتلميعها. كل تلك الكلمات التي تعلمتها من مجلات التجميل، ومناضد محل "سيلفريدجز". الآن استخدمها لروحي وليس لبشرتي.

كان من المحتم أن يبحث عني أنور - للمرة الأخيرة-. أتي لشقتي وقرع الجرس. عوضا من أن أفتح له باب مدخل المبنى من شقتي قلت له: "انتظر. سأنزل إليك." ارتديت بلوزتي ذات الأكمام الطويلة، وغطيت شعري بوشاح. كان ذلك الموقف يشبه يوم قمت في محل "سيلفريدجز" بتجربة ذلك الفستان الأسود الضيق وخرجت من غرفة تبديل الملابس واستدرت أمامه لأريه إياه. كانت في بقية من روح ساخرة فكهة، وأردت أن أغيظه للمرة الأخيرة. ثبتت الدبابيس في غطاء شعري، ونزلت على الدرج لأشهد الصدمة على وجه أنور.

الجزء السادس2004

الفصل الثالث والثلاثون

فقدت وظيفتي، وأنا الآن عاطلة عن العمل. كانت تلك هي المرة الأولى التي أطرد فيها من العمل، وأن أؤمر بأن لا أعود ثانية. الآن لا أضبط المنبه، ولكني ما زلت استيقظ في ذات الساعة التي اعتدت عليها. أزيح ستائر الغرفة فتصدم عيني أشعة الشمس. هذا يوم الخروج بمي إلى المنتزه ودفعها في الأرجوحة. لم تعطني لمياء الفرصة لأقبل مي قبلة الوداع. عوضا عن ذلك رفعت سماعة الهاتف واتصلت بوالدتها. عادت الدكتورة زينب إلى إبنتها لتشرف على رعاية مي ريثما يتم العثور على مربية أخري، أو تتاح فرصة لها في دار الحضانة بالجامعة. أتت أيضا لتصلح من أمر إبنها العاصي. لم يكن الأمر مقتصرا على سلوكه ليلة الحفل فقط، وإنما أيضا نتائج فصله الدراسية المخيبة للآمال. لقد رسب في الإمتحانات. هاجمه الجميع في وقت واحد... أمه وأخته... وطفقا يقرعانه ويلومانه إلى أن طفح به الكيل فترك لهم الشقة مغاضبا. في الأيام الأخيرة سكن في المسجد. لا شك أن لمياء تلقي باللوم علي. لا تشك أني أغويته، وعبثت ببراءته وشبابه الغض. تعتقد أنني أطمع في ثروتهم. أتخيل صوتها يرن في أذني، وهي تحكي لأمها ما رأته، وتصور لها الموقف بصورة مشوهة وزائفة. ربما هم الآن يجلسون حول طاولة المطبخ، كل يمسك بكوب قهوته، ومي منشغلة بمشاهدة التلفزيون، وصوت الغسالة وهي تدور وتدور، والرجل المكلف بجمع أكياس القمامة يخطو مسرعا في سلم الخدم الخلفي.

يتدفق الدم في وجهي وأنا أفكر في ما ستسمعه الدكتورة زينب، وكيف أن لساني مقطوع لا أستطيع الدفاع عن نفسي. الغيبة قوة عظيمة، فلا غرو إن كان اغتياب الناس من خلف ظهورهم هو من أشد المحرمات.

ظللت أذهب وأجيء في شارعهم، "سانت جونز وود هاي استريت"، وأمر بشقتهم، وأراها، وأمامها العمود الأحمر المربع. أمر بكشك الصحف الذي أفتتح حديثا. توقفت أمام المبني عربة نقل، ونزل منها عامل يحمل صناديق الحليب والعصير والبيض. ما زالت البوتيكات مغلقة. رأيت في نوافذ إحدى المحلات زيا بنيا فاتح اللون، بجنبه حقيبة يد وحذاء بذات اللون. لم يكن علي البضائع المعروضة القليلة بطاقة سعر، وكانت التصاميم في أدنى حدود التعقيد. لا أحتاج لكثير من التخيل لأدرك شعور الواحدة وهي في داخل مثل تلك البوتيكات تختار فستانا. أعلمه جيدا. أعرف التحية التي تخص بها المحظوظات، وغرف تغيير الملابس الفخمة، والسجاد الناعم السميك، ورائحة العطور تملأ المكان. عبرت الشارع لمحل "أوكسفام" لبيع الملابس المستعملة. وجدته مغلقا أيضا. المعطف المعروض في النافذة يبدو جيدا

ويمكن لبسه. يجب أن أدخل لذلك المحل يوما وأجربه. ربما يجب علي أن أتخلى عن كبريائي وأجرب لبس الملابس المستعملة. اكتشفت منذ مدة أن نساء الطبقة الوسطى هنا في لندن يرتدين الملابس المستعملة على سبيل الهزل والمرح والتغيير أيضا. لكني لست من نساء الطبقة الوسطى. لم أحصل على درجة جامعية. أنا من الطبقة العليا ولكن من غير مال.

جذبتني رائحة الخبز الطازج في أحد المخابز. اشتريت فطيرة "كرواسون"، وجلست على كنبة في المنتزه الصغير المقابل للشقة. كان المنتزه شبه خال في تلك الساعة المبكرة من الصباح. جلس أمامي رجل عجوز يقرأ في صحيفة "التلغراف"، ومرت أمامي عجوز تمارس رياضتها الصباحية. يعلمون أن تلك الساعة هي خير وقت للرياضة، وأنقاها هواءا. إبتسمت لي العجوز وألقت علي تحية الصباح. الناس هنا لطفاء، وكبار السن منهم جد مهذبين. يذكرونني بأمي. أحلم بها كثيرا هذه الأيام. مريضة هي، وكثيرة القلق على عمر. لابد لي من قراءة سورة يس، على روحها خاصة وأن لدي الكثير من الوقت. راقبت لمياء وهي تخرج من المبني متجهة بلا شك إلى جامعتها. أعرف ملابسها، فكم من مرة كويتها ورتبتها لها في دولابها. كم مرة جلبت لها المعطف الذي ترتديه الآن من محل الغسيل الجاف. راقبتها وهي تتجه إلى سيارتها. لمياء حسنة الشكل ولكنها تفتقد إلى الجاذبية. يمر بجانبها أحد الجيران فتحييه بإبتسامة واسعة وكثير من الإهتمام. لم أرها تهتم بأحد من قبل. هذا جانب جديد علي في شخصيتها.

تطلعت إلى نافذتهم فرأيت الدكتورة زينب تفتح الستارة لتدخل أشعة الشمس. نسبة لإنعكاس الشمس على زجاج الغرفة لم أتبين التعبير المرسوم على وجهها. لابد أن رعاية مي عمل شاق بالنسبة لها إضافة إلى أعمال المنزل. لسبب ما لا أتخيل لمياء ترفع أصبعا واحدا لتساعد في أعمال المنزل. هذا غير واقعي. لا بد لها أن تقوم بدورها.

قابلت تامر في "ريجنت بارك". بدا لي المشهد غريبا دون وجود مي بيننا. كان شعثا ومنهكا وتعيسا. لا ينام أو يأكل جيدا في المسجد. لأول مرة رأيته وهو يفتقر إلى النظافة. بعد فترة قصيرة شعرت بأنه قد مل اسئلتي عن حاله. لم يعبأ بأسئلتي ورفض أن يشاركني تناول فطيرة الكرواسون التي أعطيتها إياه. كان ذهنه مشتتا بالكثير من الخطط والأفكار. "لن أجلس لامتحانات الملاحق. لا أريد أن أفعل ذلك. سأنتقل لجامعة أخرى خارج لندن."

طافت بخاطري المدن خارج لندن. لابد أنها أكثر اخضرارا وأكثر مللاً بالمقارنة. "إن لم يوافق والداك، كيف ستتدبر أمرك؟ لديهما شقة هنا. هل

سيدفعان لسكنك في مدينة أخرى؟"
بدا أكثر عناداً وقال: "سأجد عملا."
"مثل ماذا؟"
"لا أعرف. سأعمل في توزيع طلبات البيتزا."
"هذا ليس عملا آمنا بالليل. قد تجد من يؤذيك."
لم يصر على إن بمقدوره الاعتماد على نفسه. عوضا عن ذلك قام بركل كرتونة عصير فارغة إلى جانب الطريق. "سألت الجميع في المسجد عن وظيفة. ولكن ما أن سألت حتى كان الجميع يرغبون في معرفة سبب تركي للمنزل، ولماذا تشاجرت مع عائلتي. لا أحب هذا. أريدهم أن يتركوني لحالي. لا أحب من يحشرون أنوفهم في أموري. يجب أن نتزوج، وأعيش معك في شقتك." نظر إليّ وفي عينيه رجاء.
"لن يوافق والداك."
"يجب عليهما أن يوافقا. كلما طالت فترة غيابي عن المنزل، سيدركان مدى تصميمي." أحسست بأنه شخص آخر... يتصرف كمراهق سوقي متمرد.
حاولت مرة أخرى وقلت: "إن آذيتهم، لن تكون سعيدا، وأنا أريدك أن تكون سعيدا."
لا يزال متصلبا في موقفه. "يجب أن أفكر فقط ما يرضي الله وليس ما يرضي أحداَ غيره. لا أريد أن أرتكب ذنبا."
"لن ترتكب ذنبا." كيف لي أن أتأكد من ذلك. لقد شاهدت بعض الناس ينزلقون ويؤذون أنفسهم. شاهدت ذلك في نفسي."
توقف عن المشي وقال لي: "لم أسمعك تقولين نعم. لم تقولين لي أبدا: نعم سأتزوجك."
ضحكت وقلت: "هل هذا صحيح؟"
بدا وسيما الآن وعيناه تبرقان: "نعم. لم أسمعك تقولين لي نعم."
"حسنا. كي أقول نعم يجب أن تعدني بأن تتزوج زوجة ثانية."
"ما هذا الكلام الغبي يا نجوى؟"
"لأنني ربما لن أستطيع أن أنجب لك أطفالا." أذهلتني رنة الأسى والأسف في صوتي.
"لا رغبة لي في الأطفال."
"بالتأكيد أنت لا تعني ذلك."
"بالعكس. أنا أعني ذلك." يريد أن ينال اهتمامي الكامل. يريد أن يكون طفلي.

"ربما لا تكون راغبا في الأطفال الآن. ولكن عندما تكبر سترغب في الزواج بفتاة جميلة زواجا تقليديا."

هز كتفيه وقال: "لا أهتم بالمستقبل. لا أهتم إلا بالحاضر."

لكن بالنسبة لي فإن المستقبل قريب جدا، على مرمي حجر. ليس بعيدا أبدا.

"لا أريدك أن تطلقني. سأفضل أن أبقى في ظل حياتك، أن أكون دوما قريبة منها. أن أسمع أخبارك دائما."

قال برفق: "لا أريدك أن تتكلمي هكذا. لا أريد أن أتكلم عن المستقبل - كل هذه الدراسة السخيفة التي لا بد لي منها. أنا لا أريد حتى الجلوس لامتحانات الملحق."

"إذا كان لك أن تفعل أي شيء تريد فعله، وإذا لم تكن هنالك أي هنالك أي قيود. ماذا كنت ستفعل؟"

ابتسم وعاد لعمره الحقيقي... لينا وحالماً: "كلانا سيعود إلى الزمن الماضي. لزمن الخيول والسيوف والخيام والغارات."

ابتسمت لقوله، وواصل القول: "لن تكون هنالك "إدارة أعمال" أو "تجارة"، ولن أضطر للذهاب إلى الجامعة.

كلانا يعيش ببساطة أكثر مما يجب، في هذا الزمان والمكان. أحيانا أتمنى الموت... ليس بسبب اليأس أو الخوف، ولكن فقط كي أبتعد عن هذا العالم الملئ بالعدوان، والحافل بالتغيير، وأن أبقى في الظل.

المنتزه حلو في هذا الوقت وغير مزدحم. كنا أول من أشترى آيس كريم من حافلة وحيدة، وأول من جلس على أريكة تطل علي البحيرة لمشاهدة البجع.

سألته: "هل تظن أن مي لا تزال تذكرني؟"

"ربما تكون تشعر بالملل من دونك."

"حلمت بها ليلة أمس."

ابتسم وقال: "أحبك. أنت تعلمين ذلك... أليس كذلك؟"

هززت رأسي بالموافقة. غمرني إحساس جارف بالشفقة أسال مدامعي، ولأمنع نفسي من النحيب لعقت الآيس الكريم في يدي، وقلت: "لمياء مدينة لي ببعض المال. تركت العمل معها في الثامن والعشرين من الشهر، ولم تعطني مرتب ذلك الشهر."

"هي صعبة." فتح محفظته وقدم لي كل ما كان معه من أوراق نقدية. أوراق جديدة من فئة العشرين... مصروف جيبه. يأخذ النقود كأمر مسلم به. كان ذلك واضحا من الطريقة التي كان يمسك بها الأوراق النقدية. يمكنه أخذ

المزيد من خزنة النقود... من حسابه في البنك الذي كان يغذيه والداه له كل مرة. يظن أن والداه سيفعلان ذلك دائما، وسيعطيانه الأموال التي يحتاجها دون شروط أو أسئلة. كنت مثله في زمان مضى.

نحيت نقوده عني جانبا.

"يجب أن تعود إلى المنزل يا تامر." قلت له ذلك برفق ولين، لكنه تصلب وتعصب مجددا وهز رأسه رافضا. أبقى رأسه مطأطأ ومحدقا في العشب عوضَ أن ينظر في عيني. حاولت مرة أخرى: "هذا خطأ. تعلم أنه من أكبر الذنوب أن يهجر المرء صاحبه فوق ثلاث ليال، خاصة وأنها أمك وأختك."

"أتحدث مع أمي في الهاتف. هي تعلم أين أقيم." بان الشعور بالذنب في عينيه. كان ذلك الشعور مطمورا تحت جبل من التحدي.

"وماذا عن لمياء؟"

"هل اتصلت بك؟ هل اعتذرت؟"

هززت رأسي علامة الرفض. لا أتوقع منها أن تفعل ذلك.

"حسنا. يجب عليها أن تفعل. أخبرتها بأني سأتزوجك. ستكونين زوجتي، وسواء إن كان هذا الأمر يعجبها أم لا، فعليها أن تعاملك كأختها." هذا موقف متصلب آخر من تامر. الآن صار يتكلم كرجل كبير. أعجبتني فيه هذه الخصلة. لكن كل ذلك البهاء وتلك الرائحة فيه، والتي بدت لي كنسمة عطرة من روائح الجنة... كادت الآن أن تختفي. قريبا جدا سيصبح شخصا عاديا مثلنا.

"وأمك - ما هي ردة فعلها؟" لم أسأله عن ذلك من قبل؟

قال لي: "إنها لا تستطيع أن تصدق أن ولدها سيفعل بها مثل ما فعلت، وبدأت تبكي. كان ذلك فظيعا."

رددت عليه بسرعة: "هي معتادة على مستويات عالية! ما فعلته مع أمك لا يقارن بما فعله عمر بأمي. يظن الناس أن سرطان الدم هو ما قتل أمي، لكن الواقع هو أنها ماتت من الحسرة. ماتت كسيرة القلب."

تحرك مبتعدا عني. هو يتخذ موقفا دفاعيا عندما يتعلق الأمر بأمه. هما قريبان من بعضهما جدا.

بعد أن فارقني - على مضض- إلى جامعته، سلكت طريقي نحو المسجد لأفاجأ في تقاطع شارع ويلنجتون بالدكتورة زينب ومي تدخلان إلى سيارة أجرة. تعرفت أولا على مي. تغيرت الدكتورة زينب. صار وجهها متورما وشعرها ضامرا باهت اللون، وكانت هنالك ظلالا سوداء تحت عينيها. بدت حركتها غير متناسقة نوعا ما وهي تدفع بمي إلى داخل السيارة، ثم تتنهد لتدخل جسدها معها. أغلقت باب السيارة، ولكنها لم تفعل ذلك بالقوة

المطلوبة، فكررت المحاولة مرة أخرى. لم تكن في حالتها الطبيعية التي أعرفها. لقد أصيب تماسكها في مقتل، وهي الآن تسير وسط عاصفة هوجاء.

في قسم النساء بالمسجد وجدت "أم وليد" تقدم حلقة درس. دهشت لرؤيتي في وقت عملي الذي تعرفه، ولكن الدهشة هي ميزتها المعتادة. أشارت لي من بعيد لأنضم للمجموعة المتحلقة حولها. لابد أن الحلقة كانت قد بدأت منذ وقت طويل لأن وقت آذان العصر كان قد دنا. ناولتني "أم وليد" نسخة من المصحف. كانت الحلقة حلقة تفسير، وكانت تفسر سورة الأعراف. أتذكر الآن وفاء وهي تعطيني نسخة من القرآن وهي تقول: "هذه نسخة لك." سافرت هي وزوجها علي إلى بيرمنجهام. الناس يتحركون، والحياة تسير... تذهب أخوات وتأتي أخريات ليحللن محلهن. لأم وليد القدرة على أخذ أي فرد من بين مشاكله الخاصة، وجعله ينصت لها. لعل مرد ذلك هو عامل "الالحاح" في صوتها. "هنالك العديد من التفسيرات لوجود هؤلاء الرجال في "سورة الأعراف". "الأعراف" هو جبل يقع بين الجنة واالنار. هؤلاء الرجال عالقون في المنتصف... يتمنون دخول الجنة، ويخشون النار، ويرون الإثنين معا. يقول واحد من التفسيرات هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله بينهم . وهنالك تفسير آخر يقول إن هؤلاء هم شبان تركوا أهليهم من أجل الجهاد، ولكن دون أخذ الإذن من أمهاتهم وآبائهم. قاتلوا في سبيل الله حتى ماتوا. بذلك نجوا من النار، ولكنهم بسبب عصيانهم لأبائهم وأمهاتهم حرموا من دخول الجنة."

الفصل الرابع والثلاثون

جلست أمامي على الأريكة في شقتي. كانت كلتانا عالقتين في حالة من التوتر الشديد. يملأ ذلك الشعور الغرفة، ويبطئ من صوتي وحركاتي. أعتقد أنه عندما تغادر شقتي فسوف أكون منهكة جدا، وسيكون علي أن أرقد وأستريح. لم تكن مي ترافقها، وذلك يعني أنها ليست زيارة رسمية، ليست زيارة تعرف عنها مي. منذ أن اتصلت بي الدكتورة زينب هاتفيا ظللت أنظف وأرتب الشقة. خبزت كيكة، وغسلت شعري. يجب أن أعطيها انطباعا جيدا عني... ليس فقط من أجل تامر، بل من أجلي أيضا، لأني معجبة بها، وأشعر أن في داخلها قلبا عامرا بالطيبة. ليست كتلك الطيبة الغيبية التي عند تامر، بل هي أمر راسخ وعملي. لاحظت اليوم - أكثر من أي وقتٍ مضى- مقدار الشبه بينها وبين تامر، ولدها الوحيد. هو قطعة منها.. أعني من الجانب الذكوري فيها. بدت أكثر تحكما من ذلك اليوم الذي رأيتها فيه وهو تدخل سيارة الأجرة مع مي. ما زال وجهها منتفخا، وما زالت الهالات السوداء حول عينيها في مكانها، ولكن كان شعرها مصففا بعناية، ومكياجها مرتبا. كانت أنيقة المظهر في بنطالها الأبيض وسترتها الخضراء الفاتحة اللون. كانت تلك هي المرة الأولى التي تراني فيها وأنا لست مرتدية للحجاب. اضطربت عينيها قليلا عندما فتحت لها الباب ورأتني بغير ما اعتادت عليه، بيد أنها لم تقل شيئا، وأخفت دهشتها جيدا. ربما كان ذلك شيئا متوقعاكح--كح عندها. أردت أن أريها أني أتمتع بجاذبية، وأني لي خصالا أخرى ولست مجرد خادمة. عندما تكلمتْ أدركت أنها تعلم ذلك.

تحدثنا في البداية عن موضوعات عامة وآمنة- عن مي وعن الجو، وعن ازدحام لندن في الصيف. قدمت لها عصير برتقال طازج وقهوة وكيكة موز. لم ترفض ما قدمته لها، وأنا ممتنة لها لهذا. أخلاقها العالية دعتها لإكمال كوب العصير وإطراء الكيكة، بل وتناولت منها قطعة أخرى. ربما كنا سنصبح أصدقاء إن لم أصلح للعب دور زوجة الإبن بسبب كبر السن. سنصبح أخوات. ارتحت معها فبدأت أتحدث عن والدتي، وبنوع من الإحساس غير الواقعي أريتها بعض صورنا القديمة. قالت لي أن تامر أخبرها بما ذكرته له عن والدي. كان صوتها عمليا وجادا كطبيب يتحدث مع مريضه عن مرضه الخطير. لا يجب أن أنسى أنها دكتورة. أوضحت لي إنها لا تؤاخذني بماضي، ولكنها لن تتجاهله كذلك. لم أستغرب لإخبار تامر لها، فتلك بداية مشجعة تدلل على أن تامر يتحدث مع والدته، ولو عن طريق الهاتف. ولكني تعودت على السرية، وصارت جزءا مني. الآن أصبحت غير محصنة وقابلة للهجوم.

قالت لي: "زوجي يعرف والدك."

"قصدك يعرف عنه. أغلب السودانيين يعرفون عنه." علت نبرة صوتي، وانفعلت قليلا، ربما بسبب عدم جدوى محاولة جعل شخص ما يرى والدي كلحمي ودمي، ليس كرمز أو كشخصية عامة.

نظرت في عيني مباشرة وقال لي: "نعم يعرف عنه. السياسة مهنة عسيرة في أقطارنا، خاصة مع كل هذه التقلبات."

"نعم. ولكن والدي لم يكن سياسيا بمعنى الكلمة. لم يكن يبالي بالنظام السياسي الحاكم إن كانت مهنته ناجحة. سيكون من الخطأ أن ينسب إليه دور سياسي مثالي فاسد، أو دور البطل الذي سقط. فقط أرجو له من الله الإنصاف والرحمة والمغفرة."

قالت: "الأحوال الآن في السودان تتغير للأحسن. يبدو المستقبل أفضل."

"ربما سيبدأ بعض الناس في العودة للبلاد." قلت هذا وأنا أفكر في أنور وزوجه وولديه الصغيرين. أم هل يا ترى فات وقت الرجوع؟

رفعت صوتها قليلا: "هل تودين أن ترجعي للبلاد؟"

بدا سؤالها عجيبا، وحادا. حدقت في كوب القهوة وهي تحركها بالملعقة.

رددت ببطء: "نعم. سيكون جيدا أن أرجع، رغم أن هذا بعيد الاحتمال."

"ولكنك تستحقين وضعا أفضل. أفضل من العمل الذي تمارسينه هنا.. لا يجد الواحد الاحترام الحقيقي إلا في بلاده. الله يحفظ لك صحتك، ولكننا كلنا نتقدم في السن، ويوما ما سنحتاج لمن يساعدنا."

أدرك ما تقوله لي. كانت تتحقق من دواخلي التي تحس بعدم الأمان. نتحدث عن ذلك في المسجد دوما. عن الأخوات منا اللواتي ليس لديهن أطفالا، أو اللواتي لا يستطيع أطفالهن اعالتهن. هل سيضعوننا في بيوت العجزة حيث سيطعموننا بالملعقة لحم الخنزير المهروس، ولن ندرك الفرق؟

"ستحصلين في الخرطوم على وظيفة محترمة، فقط بسبب خلفيتك الشخصية، وللغتك الانجليزية الممتازة. يمكنك أن تعملي في روضة أطفال، أو كمشرفة داخلية للطالبات."

كانت مقترحاتها تحتاج لرأس مال وتشجيع كثير. لابد أنها كانت ترمي لشيء ما، ولكني لم أفهم بعد مراميها.

واصلت بالقول: "سيمكنك أن تعيني لك خادمة في الخرطوم. هذه الأيام يشغلون فتيات جنوبيات، وليس الأثيوبيات، كما كنا نفعل في الماضي - الأثيوبيات غاليات الآن."

قلت: "الحديث عن الماضي، والدردشة عن الخرطوم لذيذة دائما."

ظهرت الدهشة واضحة على وجهها وكأنها كانت تتوقع إجابة مختلفة. تعجبت من أنها لم تأت على تامر بأي ذكر. بالتأكيد هو أكثر أهمية مني. وضعت كوبها على الطاولة وقالت: "أتيت هنا حقيقة للاعتذار عن ما فعلته لمياء لك. أحيانا تفقد أعصابها بسهولة. لقد تصرفت تصرفا سيئا معك، وأنا آسفة..."

قاطعتها بالقول: "دكتورة زينب. تكفيني زيارتك. لا تحتاجين للاعتذار. أعتبرها كأختي، ومي كبنتي. لقد فقدت أعصابها، ولكني لم أؤاخذها."

نظرت إلي نظرة جادة، وأطالت التفكير: "لطالما كانت لمياء متصلبة نوعا ما. الأشياء عندها إما أبيض أو أسود. لا تعرف التنازلات. لطالما تمنيت أن يكون تامر هو البنت، ولمياء هي الولد."

ابتسمت لما حسبته إشارة فكاهية، لكنها لم تبتسم معي. عوضا عن الابتسام واصلت بالقول: "لا أدري كيف ستحل مشاكلها مع زوجها. أنصحها بأن تكون دبلوماسية معه. لابد من الأخذ والعطاء في مثل هذه الحالات. على الأقل من أجل مي."

غمرني الفضول لمعرفة مشاكل لمياء الزوجية. سرعان ما واصلت حديثها إشباعا لفضولي: "كان هشام يقيم علاقات مع نساء أخريات، وعندما واجهته لمياء ألقى باللوم عليها لأنها تركته وجاءت إلى لندن."

امتصصت صدمة تلك الأنباء. شعرت بالتقدير للدكتورة لبوحها لي بتلك الأسرار العائلية. يقربني هذا منها. ومن تامر، ويجعلني اشعر بأني فرد من العائلة مرة أخرى.

واصلت بالقول: "لم يكن تامر يحب هشام من البداية. لم يألفه أبدا. لا أدري لماذا؟"

رددت بانفعال، ربما بانفعال مبالغ فيه: "لأنه لا يخدع بالمظاهر، ولأنه ينفذ إلى أعماق الناس، ويدرك معدنهم." لعلي كنت متحمسة أكثر مما يجب. أدركت من تحركها على المقعد، أنها لم ترتح لما قلت. الآن يجب أن نتحدث عنه. هذا هو سبب مجيئها في الأساس. أليس كذلك؟

لكنها عادت لأمر لمياء وقالت: "كان على لمياء أن تكون أكثر دبلوماسية- أن ترضيه وترضي نفسها. وبهذه الطريقة تحتفظ بزوجها، وتحصل على الدكتوراه أيضا."

غمغمت: "بالطبع."

هزت رأسها في أسى وقات وهي تتنهد: "بناتي لسن سهلات. مشاكلهن كثيرة. يكبر عيالهن وتكبر مشاكلهن كذلك."

"إن شاء الله سوف تحل مشاكلهن قريبا."

تناولت حقيبة يدها وفتحتها وأخرجت منها شيكا وقالت: "لمياء مدينة لك ببعض المال. هذا هو راتبك مع تعويض لك عما حدث." وضعت الشيك على الطاولة. بلمحة خاطفة قرأت الرقم المكتوب في الشيك. أغمضت عيني ثم فتحتها بسرعة ونظرت للشيك. أتى صوتي في شكل لهاث، أو ما يشبه الضحكة. "هذا أكثر بكثير مما أنال عادة. لابد أن هناك خطأ ما."

تحركت في مقعدها وهزت راسها دلالة على نفاذ الصبر. عندما تكلمني تفعل ذلك وكأني غبية. "ليس هنالك خطأ. هذا المبلغ كله لك."

حدقت فيها. أخذت الشيك وحركته بيدها بقوة وقالت: "هذا تعويض لك لأنك لن تعملي معنا مرة أخرى، ولأن ولدي وعدك بأمور لا يستطيع الوفاء بها. لن يكون لك شأن بعائلتنا مرة أخرى. هل تفهمين ما أقوله لك؟" تهدج صوتها وأضعف ذلك من تأثير كلماتها.

رددت عليها في برود: "أنا آسفة، لكني لا أفهمك."

تغير لون وجهها وقالت بحدة: "أنت تتظاهرين بعدم فهمي."

"لا. لا أتظاهر بشيء."

كانت تلك نقطة تحول. طفرت الدموع من عينيها. تحركت لتجلس على حافة المقعد. "ستأخذين هذا المبلغ وتبعدين عن ابني! فقط خذيه وأتركيه وشأنه. أنت تدمرينه. تدمرينه." كانت تجاهد كي تبقى متماسكة، وكي توقف سيل الدموع المنهمرة. كان ارتباطها بتامر قويا، وكأنه لم يفارقها من قبل. الآن تخشى وتحاذر أن تفقده.

تحركت لأجلس بقربها، ولأضع ذراعي حول كتفها. كان جسدها رطبا من أثر التعرق الزائد. قلت لها: "لا تغضبي نفسك. كل شيء سينصلح."

ردت علي بحده: "فقط إن أخذت المال. إذا تركتيه وشأنه."

لا تفهم سر إعجاب تامر في. لا تريد أن تفهم. سحبت ذراعي. لا ترى في فائدة لها. لا تريدني. لا تقبلني. كنت ساذجة عندما ظننت أنها ستقبلني. بدأت تتنفس بسرعة وبقوة، وتناولت منديلا ورقيا من حقيبتها. قالت وهي تستنشق: "لا أستطيع أن أنوم الليل من القلق. ماذا سيصبح تامر؟ رسب في الامتحان، وعوضا عن أن يذاكر ويجتهد، يظن نفسه قد وقع في الحب. ومع من؟ معك أنت، وأنت أكبر منه، وكان من الممكن أن تكوني أمه، لولا أنك لا تبدين كذلك. يقول لي إن الرسول عليه الصلاة والسلام تزوج خديجة وهي أكبر منه بخمسة عشر عاما. هل هذه حجة؟ نحن نعيش الآن، وليس في ذلك العصر. عندما أناقشه يثور في وجهي، ويغلق تلفونه ولا أستطيع الوصول إليه!"

تتدفق كلماتها نحوي فأتذكر طريقة والدتي وهي تتحدث مثلها عندما تتذكر عمر وتندب حظها. كانت تلك الأوقات الطيبة عندما تفتح قلبها وتخرج ما في نفسها. في غالب الوقت كانت لا تستطيع الحديث.

"لقد كان تامر ولدا طيبا. ممتاز في دروسه. ليس ممتازا بما يكفي ليدخل كلية الطب أو الهندسة، لكنه مجتهد ومجد في دراسته. يعمل بأقصي ما عنده. ليس شقيا، ولم يتعبنا في تربيته، ولم يطالبنا بسيارة له، ولم يصادق البنات، ولا يتأخر بالليل. ما الذي يقلق الآباء غير المخدرات؟ لم يكن يقربها. ارتحنا من أمرها لأنه كان متدينا ومتيقظا دوما. تدينه حماه، ولكني أخاف أيضا أن ينقلب لمتعصب..."

انتظرتها لتكمل جملتها، ولتخرج كل ما لديها. جلست بلا حراك واضعة يدي على حجري، أنظر إلى الشيك. فكرت في أن هذا المبلغ يكفيني للحج. سأشتري تذكرة طائرة إلى مكة، وأقيم في أحد الفنادق القريبة من الحرم. سأستمتع بهذا. يمكنني أيضا أن أحصل على درجة جامعية بهذا المبلغ. أن أذهب للجامعة كطالبة ناضجة مع شاهيناز. استطيع أن أساعد عمر بعد أن يخرج من السجن بعد نحو شهر من الآن. ربما أقنعه بأن يرجع للدراسة الجامعية. كلما تكلمت أكثر كلما شعرت أكثر بالإحباط، لأنها كانت تتكلم ليس عن تامر بل عن نفسها.

"في مرة أو مرتين بدا لي متعصبا عندما طالبني أنا ولمياء بإرتداء الحجاب، وأثار ضجة لأني أدخن- لكنه وقف عند حدوده- لم يكن أبدا متعصبا. كنا نعده فقط مثيراَ للغيظ قليلا. أحينا كنت أعتقد أنه يمضي في المسجد وقتا أطول مما يجب. كنت أخشى أن تضلله جماعة إرهابية، وان تلعب بعقله وتجنده. لحسن الحظ هو لا يهتم بالسياسة. الحمد لله. والآن هذه المشكلة. أتتنا لا نعلم من أين... يريد أن يتزوج من الخادمة!"

هو خير منها، ولكنها لا تقول ذلك صرحة. أرى ذلك بكل وضوح الآن. هي تمثل عقبة أمام نموه الروحي، أو بصورة أدق، يقف رفضها عقبة أمام نموه الروحي. هي تمثل اختبارا يجب عليه أن يجتازه. لن أدعه يرسب في ذلك الاختبار. لن أدعها تدعو عليه، كما كانت أمي تدعو على عمر. أذكر جيدا كيف كان عمر يهز كتفها بعنف ويصرخ في وجهها ويقول: "أعطني مالي. هذه أموالي." رأيت في عينيها الخوف... رأيت فيهما رعبا فظيعا. وكأنها لم تطعمه صغيرا ولاحملته بين يديها طفلا. عندما أعطته ما طلبه واندفع خارجا من الشقة، دعت عليه في غضب، ولكن بهدوء ودون مرارة، مثل قاضٍ ينطق بحكم، بأن لا يكتب له النجاح أبدا، وأن لا يكون سعيدا أبدا. هكذا تدعو الأم على ولدها.

تناولت الشيك وقلت لها: "هذا لا يكفي." فهمت كلامي خطأ بالطبع وظنت أني أريد مزيدا من المال.

قالت بحماس: "نعم. هذا ما كنت أحاول قوله لك. إن بقيت بعيدة عنه بأبعد ما تستطعين. إن تركتِ لندن وعدتِ إلى الخرطوم، فسأساعدك بأكثر مما أفعل الآن. في الخرطوم سأدبر لك مكانا تسكنين فيه، وأبدأ لك مشروعا تجاريا أو..."

"الرجوع ليس من خياراتي. لا أستطيع أن أترك أخي..."

"لكنه يستطيع اللحاق بك. لم لا؟ سيكون ذلك مفيدا له أيضا..."

تعجبت من المدى الذي تستطيع الذهاب إليه في الاقناع! تهزني وتصدمني! تجعلني أخاف منها وأشفق عليها في ذات الوقت.

أخبرتها. وإخباري لها هو بمثابة التخلي عنه. وضعت المفتاح في يدها. ربما لن تنفذ ما أقوله لها، وربما تفعل. من يدري؟ هي امرأة ذكية. تماسكتْ وانصتت لقولي.

الفصل الخامس والثلاثون

قال: "لا أصدقك." كان حاله أسوأ اليوم. ناحل الجسم ومشوش الفكر بسبب قلة النوم. ملابسه لم تغسل منذ أيام وقميصه متغضن وغير مكوي. أتى على كل جواربه النظيفة، والآن يرتدي حذائه الرياضي دون جوارب، مما سبب له تهيجا في كاحليه.

أعدت عليه ما قلته من قبل. أمه مستعدة للموافقة على أن يقوم بتغيير دراسته. ستتحدث مع أبيه وتقنعه بذلك.

"لا يجب عليك أن تجلس لامتحانات الملاحق يا تامر. لا يجب عليك أن تدرس إدارة الأعمال. يمكنك أن تدرس ما تشاء من مواد. أي مادة تريد."

تنفس بصوت مسموع. كانت أشبه بضحكة. هز رأسه تعجبا. "هل اقنعتها بذلك. جعلتيها تغير رأيها!؟"

نظرت بعيدا وأجبته: "نعم." ما زال الجزء الأكثر إيلاما لم يأت بعد. الآن يشعر بالراحة. يجب أن أتدرج في أخباره. أحببت أن أزيل من صدره عبء الدراسة التي لا يريدها، وان أعلمه أن هجره للبيت قد أثمر شيئا. قال مبتسما وفمه مفتوح من الدهشة: "احلفي... احلفي أن أمي تنازلت عن رأيها."

"أحلف لك."

"أنت حنينة. عطوفة علي."

"لا. أنت الذي يستأهل هذا."

"أنت رقيقة... الطريقة التي تتكلمين بها."

طفرت الدموع إلى عيني. "نحن نتحدث عنك.، وليس عني. يجب أن تبدأ بالتفكير في مستقبلك."

"كنت غامضا بعض الشيء عندما أتحدث عن الدرجة التي أود الحصول عليها. أعلم أنها ليست إدارة الأعمال.، وإنها تشمل تاريخ الإسلام. أحيانا، وقتلا للملل، اقرأ النشرات الإعلامية للجامعات، وأنقب في الشبكة العنكبوتية وفي المكتبات. وجدت درجة جامعية يسمونها "دراسات الشرق الأوسط" يدرسون فيها التاريخ والاقتصاد والجغرافيا واللغات. إنها دراسة متعددة التخصصات."

سعدت برؤيته مفعما بالحيوية ويفكر في المستقبل. حماسه يغذيني ويمنحني القوة. قلت له: "هذا هو تامر الحقيقي. أحب أن أراك هكذا. يجب أن تبحث لك عن جامعة مناسبة تقدم هذا التخصص، أو تظل في نفس جامعتك."

رد بالقول وهو يتحرك ليجلس على حافة الأريكة: "ولكن عليّ أن أرجع إلى البيت أولا." يريد الرجوع ومصالحتها، والظفر مرة أخرى برضاها. أحسست بسيل من الغيرة يغمرني فجأة، ولكني سيطرت عليه. لم أنتهِ منه بعد. أعمل الآن. أعمل الآن عليه. لذا ابتسم وأقول له: "يجب عليك أن تطلب من والدتك السماح والمغفرة. لقد آذيتها بهجرك البيت."

قال بصورة عفوية وهو يفكر في شيء آخر: "أنا أعلم."

"كلا. أنت لا تعلم. لقد كانت في غاية القلق عليك."

شيء في صوتي جعله ينظر إلي. "هل هذا هو كل ما تطلبه أمي كي أرجع إلى البيت؟"

راوغت لأكسب الوقت فقلت: "ماذا تقصد؟"

"في مقابل تركي لأدرس ما أريد - كل ما علي هو أن أعود إلى البيت؟" لقد بدأ يرتاب في الأمر. بدا متشككا حتى وهو يسألني.

"ويجب عليك أن تكون واقعيا بخصوص بعض الأشياء. في بعض الأوقات..."

"توقفي. ماذا قالت عنك؟ ماذا قالت عن زواجنا؟"

خفت من غضبته، وعدم رضاه عني. بيد أنه ما من مخرج الآن. تنفست عميقا وقلت له: "قالت إنها لن توافق على ذلك. طلبت مني أن أتركك وشأنك، وقد وافقت أنا."

بدأ يبكي. كان ذلك أمرا فوريا وتلقائيا. الدموع، وكتفيه تهتزان. بكى هو، وتعذبت من أجله، وكأن جلدي كان يبشر من الداخل. كنت محبطة.

قال: "لقد خدعتني. خدعتني أنت لئيمة... لئيمة."

لا أستطيع الدفاع عن نفسي. لن أدعه يبكي هكذا مرة أخرى. هذه هي خاتمة طفوليته. في المستقبل ستكون دموع الرجال... من الألم، ولكن ليست هذه التنهدات والتشهقات. تركني وذهب مهرولا في اتجاه شقتهم. سيذهب إليها الآن... يحتاج إليها الآن. ستحيطه بذراعيها... حيث سيجد الراحة والغوث.

جلست وأنا في غاية الألم من قسوتي. مرت ساعة من الزمان وأنا على تلك الحال، ولكن الوقت لا قيمة له. لا يزال بإمكاني أن أسمع صوته، واشم رائحته. لا أزال أرى الارتباك في عينيه، والطريقة التي نظر إلى بها وكأني مجرمة. مشيت عبر المنتزه قاصدة شارع بيكر. في البنك وضعت الشيك الذي كتبته لي الدكتورة زينب في حسابي. وأنا أملأ المبلغ في قسيمة الدفع تبين لي أن ذلك المبلغ هو نفس المبلغ الذي استدانه مني أنور قبل سنوات ليدرس به للدكتوراه. لم يرجع لي ذلك المبلغ أبدا، ولا حتى جزء منه. مع

مرور الزمن قبلت بهذه الخسارة كعقوبة... كغرامة كان علي أن أدفعها لأخلص نفسي. وهاأنذا الآن، وبأكثر الطرق غرابة، أسترد ما فقدته.

بعد أيام من ذلك، ضغطت علي جرس شقتهم وانتظرت. حددت لي موعدا في الساعة السادسة. كان "هاي استريت" في حالة فوضاه الصيفية المعتادة. تمر فيه مسرعة السيارات الرياضية، وأغطيتها العلوية مفتوحة، والهواء يعبث بخصل الشعر الطويلة، والموسيقى تنطلق منها عالية مدوية. في رصيفه يجلس رواد "كافييه روج". وفي ركن على الشارع سيارة كبيرة تبيع الآيس كريم، ومحركها يشتغل. كان هنالك صف من الأطفال، وآخرون كثر في أرجاء المنتزه. أستطيع أن أسمعهم. هذه هي المرة الأخيرة التي أرفع فيها أصبعي وأضغط على هذا الجرس. بدأت العمل معهم هنا في الخريف. لا أزال أذكر منظر الأشجار العارية، ونظافة الصباح البارد حينها. الآن أرفع رأسي وأرى مئذنة المسجد فوق الأشجار. مئذنة مسجد ريجنت. لن أراها مرة أخرى من ذات الزاوية مرة أخرى.

فتحت لي الدكتورة زينب باب المبني. كم من مرة فتحت هذا الباب، وتركته ليغلق من خلفي، إما بمفردي أو مع مي. تأخرت قليلا لأمسح قدمي على البساط، ولأقول وداعا للمصعد القديم، والذي جعلني أتكلم مع تامر لأول مرة. مررت بأصابعي على خشب الدرابزين الفخيم. لم تأت مي لتحيتي، بل اندست خلف تنورة جدتها وهي تختلس نظرة لي بين حين وآخر بعينين لامعتين. هي خجولة الآن لأنها لم ترني منذ أسابيع، ولأنها لا بد أن تكون قد سمعت كثير من خطب لمياء في هجاء نجوى. لابد أن أصبر عليها وأن انتظر حتى تتبع غريزتها الطبيعية وترتمي في حضني. قد يستغرق الأمر طول وقت الزيارة، أو قد لا تحدث على الإطلاق.

لاحظت - وأنا بذلك سعيدة- أن الشقة ليست بنفس مستوى نظافتها عندما كنت أعمل بها. لمحت ملابس تامر مكومة في المطبخ تنتظر الكي، والصحون تملأ الحوض تنتظر الغسيل. قادتني الدكتورة زينب إلى حجرة الجلوس، وعاملتني كضيفة، وهي تحييني بحرارة بكلمات الترحيب المصرية المعتادة. بدت مستضعفة، ولكن بانت السعادة واضحة عليها لعودته إلى البيت. كان يقف أمام النافذة. لاحظت التغير في حاله على الفور. هنا ملابسه نظيفة، ولديه حمام وينام الليل على سرير وليس على الأرض. ولكنه مرتاح الآن ليس فقط بسبب أدوات الراحة المتوفرة في المنزل، بل بسبب أن عبئا ثقيلا قد أنزاح من صدره بعدم دراسته لإدارة الأعمال. عادت إليه أو كادت الظرافة وهالة النضارة.

لكنه كان متحفظا مني، وما زال غاضبا مني. ضم ذراعيه حول صدره. علقت على الطاقية البيضاء التي كان يضعها على رأسه وقلت: "لم أرك تغطي شعر رأسك من قبل؟" بادرت أمه بالاجابة عنه بالقول: "هذه فقط حتى يقص شعره. ربى شعره طويلا وصار غير مرتب."

لم يعترض على ردها، وجلسنا. كان يعابث لمياء التي كانت تلعب من خلفه. قدمت لي حلوى "فيريرو روشي" وعصير تفاح، اعقبهما شاي وبسكويت من الحلواني الواقع في ذات الشارع. سألته من باب فتح مدخل مهذب للكلام: "هل سمعت البرنامج عن الصوفية في الراديو؟"

رد باقْتضاب: "لا. لم أسمعه." اشتقت لحالنا في الشهور الماضية عندما كان يعود من الجامعة ويثرثر معي.

قالت الدكتورة زينب: "أنا استمع للراديو، ولكني لم استمع لهذا البرنامج. كم قطعة من السكر تأخذين؟"

لما أجبت، قالت: "تامر كان يستمع لشريط عمرو خالد". حركت السكر في الشاي وهي تحذر مي من الإقتراب من إبريق الشاي.

سألته: "ماذا كان موضوع الدرس؟"

أجاب وهو ينظر في السجادة: "أن ترضى بما قسم الله لك."

كنا نحس بذاتينا بسبب وجودها الغامر. كانت زيارتي هذه تشبه زيارتي لعمر في السجن، ولكن الفرق أنني هنا أتحلى بالخجل، وبالتطهر وبالهدوء المناسب. تحتفظ مي بمسافة مني لكنها لا تنفك تحدق في. ذكرتها بالألعاب التي كنت أشاركها فيها وبالأيام التي قضيناها في المنتزه. قربت بعد ذلك مني. أخرجت الهدية التي أحضرتها لها: هذا هو البيت الذي بناه الجاك. قلبت صفحاته وقلت لها: "تعالي وأجلسي بجانبي حتى أقرأه معك."

هزت رأسها بالرفض. وضعت الكتاب على الطاولة حتى تنظر على الأقل إلى الصور.

رن جرس الهاتف، وأجابت عليه الدكتورة زينب. عندما كانت تتكلم في الهاتف بقينا أنا وتامر صامتين. كان يتحاشى النظر إلي. في لحظات كان يغلق عينيه. كان ما زال مرهقا، وما زال مجروحا. لما ودعت محدثها في الهاتف سألته: "هل كان تحويلك من الجامعة أمرا سهلا؟"

"كان سهلا." أعلم أن تامر قد قطع لأمه وعدا بعدم الاتصال بي، أو مقابلتي، أو الكتابة إلي. سيكون ذلك أمرا سهلا لأنه سيسافر معها للقاهرة.

أشارت بيدها نحو طاولة الطعام وقالت له: "أريها يا تامر الصفحات التي طبعتها من الانترنيت." قام مترددا، وواصلت أمه الكلام: "ستكون كل دراسته بالإنجليزية، لأنها جامعة أمريكية."

قرأت تفاصيل المواد: "دراسات قرآنية، العمارة الإسلامية في إسبانيا وشمال أفريقيا، ابن خلدون. سيكون سعيدا نشطا وراضيا بما يدرس.

قلت: "هذه موضوعات ملهمة."

للمرة الأولى أحس ببعض الدفء في رده، وأشعر بأنه عاد تامر الذي أعرف: "نعم. هي دراسة ملهمة ومثيرة. أتطلع لها كثيرا."

بدأت أشعر بلسعات نار تشتعل في داخله. جعلني ذلك ابتسم وأقول: "أنت محظوظ."

تنهدت الدكتورة زينب. لا تعتقد أنه محظوظ. لا تعتقد أن حبه لي كان أمرا طيبا مباركا.

ران الصمت علينا جميعا مرة أخرى. ماذا أفعل هنا، ولماذا رغبت، وبشدة، في الحضور؟ هل توقعت منه إعتذارا، أم أنا التي ينبغي أن تعتذر؟

تردد قليلا ثم سألني: "ماذا ستفعلين الآن؟

"سأحج هذه السنة إن شاء الله. أخطط لذلك."

بدا عليه الاهتمام. لم أخبر أحدا من قبل بذلك. كنت سعيدة بأنه كان أول من يعلم.

ابتسم للمرة الأولى... ابتسامة خجولة حذرة. "مبروك يا نجوى. هذا أمر ممتاز." نطق أسمي بيسر.

نظرت الدكتورة زينب في ساعتها. يجب أن أذهب. ولكن مي حملت كتابها وجلست بقربي. أرادت أن أقرأ لها. بدأت أقرأ. بدأت القراءة: "هذا هو البيت الذي بناه الجاك." نسيت الدكتورة زينب، ولم يكن في بالي إلا مي وهي تنصت لي، وتامر ينظر إلينا. وطول مدة قراءتي للكتاب الصغير كنت منغمسة في القراءة، وهي في الانتصات... لم يكن هنالك مستقبل أو ماضي.

طلبت مني مي أن أقرأ لها مرة أخرى، ولكن يجب علي أن لا أبقى أطول مما بقيت. نظرت في عيني الدكتورة زينب مباشرة، وشعورها بالعرفان نحوي مدفون في طبقات وطبقات من التصرفات العملية من طرفها. لا تريدني أن أضعف، أو أن أنسحب في اللحظات الأخيرة من الاتفاق. كانت زيارتي تلك مخاطرة غير محسوبة العواقب، وهي تدرك ذلك. نظرت إلى كما ينظر الدكتور إلى مريضه، وكنت أشعر بالدوار وبالإرهاق. أشعر وكأني كنت أعمل طوال اليوم، أو أنني كنت أطبخ لساعات وساعات، أو أكوي الملابس، وأروح وأجيء في خدمة المنزل. أردت أن أحبو نحو السرير وأنام. حان وقت الرحيل. انحنيت نحو مي وقبلتها قبلة الوداع.

الفصل السادس والثلاثون

وقفت شاهيناز في مدخل بابي. عندما تتحدث، يأتيني صوتها بعيدا. قلت لي: "صوتك في الهاتف بدا متغيرا. لذا فكرت في أن أحضر بنفسي وأراك." كانت تمسك بيديها عددا من الأشياء: أحمد، وكرسيه المتحرك، وشيئاً يشبه كيس النوم. تبعتني إلى الداخل. "سهيل قال لي أنه من الأفضل أن أنام عندك الليلة، فالوقت متأخر."

تقول إن الوقت متأخر، وأنا لا أدري ما الوقت. الظلام دامس في الخارج. لابد أن الوقت متأخر.

سألتني: "هل غادروا؟"

استغرق الأمر بعض الوقت ليصل السؤال إلى عقلي... وكان وقعه مؤلما. أحسست بإنتظارها، وقلقها.

"نعم سافروا عصر اليوم." لم ترد لي الدكتورة زينب أن أضعف أو أتردد، أو لتامر أن يغير رأيه، فدبرت أمر السفر سريعا.

أمسكت شاهيناز بيدي: "الأمر قاس وصعب عليك. أليس كذلك؟ - لكنك فعلت الشيء الصحيح."

"لم أستطع النوم ليلة أمس. حاولت النوم نهار اليوم، ولم أستطع أيضا."

جلستْ مستريحة، وبقيت أنا في الأريكة. أغلقت عيني وأنا أستمع لحديثها عن أحمد. قالت: "عمتي ليست بخير اليوم." ليست بخير اليوم. لست بخير اليوم تعني أنني سأكون بخير غدا. هذا تنبؤمعقول. تنبؤمطمئن. فقط علي أن أنتظر. غدا سأذهب لوكالة سفر وأستفسر عن رحلات الحج الجماعية، وعن أسعارها، وعن بعد الفندق من مسجد الرسول. كان أحمد يصدر أصواته المعتادة... كلمات ليس لها معنى مربوطة بالتواءات وعلامات تعجب واستفاهمات. كأنه كان يرطن بلغة أجنبية. صوته عذب. أغلق عيني. ليس هنالك ما ينبغي عمل حسابه أو الحذر منه. فقط سيل من الذكريات والخواطر. لابد أن طائرتهم قد وصلت القاهرة الآن. أرغب في النوم، ولا شيء سواه.

قالت لي: "سأصنع لك شاي البابونج. دائما يصيبني بالنعاس."

قمت من مرقدي بصعوبة وابتسمت في وجهها. "تعال يا أحمد وأجلس على حجري." عوضا عن ذلك، مضى بعيدا عني وهو يحبو في إتجاه معاكس في الغرفة. وقف مستندا على كرسي. إنه يعابثني ويود اللعب معي. نظر إلى عيني وصمت، وكأنه يتحداني أو يغيظني.

"تعال. قلت لك تعال."

فعلها أخيرا، واقبل علي. حملته وأجلسته فوق حجري. "ألست أنت أجمل طفل في العالم كله؟ أم أنك لم تعد طفلا؟ أنت ولد كبير الآن."

قالت وهي تحضر لي الشاي: "أنه يتحرك في كل مكان. الآن عليّ أن أغلق باب الحمام حتى لا يرمي لعبه في التواليت."

دغدغته وسألته مداعبة: "هل هذا ما تفعله يا أحمد؟". ضحك مفتخراً بنفسه.

"هل لاحظتي العلامة التي على بشرته؟" جذبت سترته وأرتني ساعده وعليه نقطة سوداء، مثل رشة حبر.

مررت يدي عليها وقلت: "ربما كانت شامة. هل ولد بها؟"

"لست متأكدة. ربما. لم ألاحظها من قبل. أرجو أن لا تكون شيئا خطيرا."

لدقيقة واحدة... لدقيقة ومباركة واحدة نسيت نفسي تماما، وانغمست تماما في قلقها على وليدها.

"أسألي حماتك."

"نعم. سأفعل." وحررت سلك الهاتف من قبضة أحمد، والذي كان يمضغه.

مررت يدي على ذراع أحمد. "أنت بخير. أليس كذلك؟ ماما فقط تعمل من الحبة قبة حول الأخطاء الصغيرة فيك." ضحك ضحكة مكتومة، ومضى يحدق في حبه الأول. تنظر إليه بحب تشوبه غريزة التملك، وألم لا أفهم سببه. تنهدت وقالت: "دعينا نصلي يا نجوى حتى ننام".

أمتني في الصلاة، إذ كانت أعلم في الدين مني. أدخل صوتها الرقيق السكينة إلى قلبي. كان من السهل التركيز على الكلمات التي كانت تنطقها مع بعض التردد. صعد أحمد على ظهرها، ثم تشبث بعنقها مما جعل الوقوف عليها صعبا. أفسد ذلك علي تركيزي. كدت أضحك على سلوكه الغريب، ثم أتى صوتها الرقيق فأعادني لعالم آخر. مهما يكن من أمر، فسأعود. هذا هو مركزي وأصلي وغايتي. كل ما عدا ذلك فهو متغير وإلى زوال.

وزعنا أنفسنا للنوم. ذهبت شاهيناز وأحمد إلى الأريكة، وأنا على الأرض. رقدت وظللت مستيقظة أستمع إلى صوت تنفسها. تعجبت عندما سمعت أحمد... أحمد الطفل الصغير يشخر. مرت سيارة أجرة في الخارج. أعرف أنها سيارة أجرة من صوت كوابحها. أخذوا سيارة الى مطار هيثرو هذا الصباح. قبلوا لمياء ومي قبلة الوداع. تخيلت نفسي واقفة في باب الشقة أودع الدكتورة زينب. أحمل مع تامر حقائبها. ينظر إلي. هذا ليس حلما، بل إعادة لمشهد وداع أمه وهي تغادر لندن لحضور مؤتمر في أمريكا. ناولتني ورقة جديدة من فئة العشرة جنيهات كبقشيش. تناولتها كما أريد لي أن

أتناولها، مثلما تتناول أي خادمة بقشيشاً من مخدمها. خجلت من نفسي وهو يراني - وهو واقف بجانبها- وأنا أدسّ ورقة النقود في جيبي.

قالت شاهيناز: "لقد أخذتِ النقود، لذا لا يمكن أن يكون الأمر يتعلق بالحب." لابد أنني غفوت، وأن صوتها كان حلما، لأنها لا يمكن أن تقول لي ذلك في الواقع. إنه أمر لا يتوقع منها أن تقوله لي. أشعر بحمى واعتلال عام. احتاج لغرفة والدي. أحتاج لسريرهما وأغطيته النظيفة. تلك الامتيازات. أصعد سلما شديد الانحدار إلى غرفتهما، وهناك أجد السرير الذي أتوق إليه. أسمع صوت أمي، ويدها الباردة علي جبهتي الساخنة. تسقيني ملعقة دواء... شراب للكحة شديد الحلاوة يحرق حلقي. يتذمر عمر. يغار مني لأني مريضة، ومهمة، وتهتم بي والدتي. يريد مني شيئا فتقول له أمي: "دعها وشأنها. ألا ترى أنها تتألم من الحرق." أنظر في وجه أبي القلق، ويده الدافئة على خدي. أشم عطره. يصرخ في وجه أمي: "هيا أعطها مضادا حيويا. لا يمكن أن تتركيها هكذا! "أتقلب في الفراش سعيدة ومطمئنة من حب والدي لي. حولنا وفي ما وراء السرير، كانت الغرفة مظلمة ومليئة بالأشياء... كل الممتلكات التي تميزنا غدت خرابا وأطلالا. لست أعجب. هذا هو التحلل الطبيعي، وأنا به راضية. اهترأت السجادات.، وتقطعت الستائر. هدمت المقتنيات، وغطاها التراب. الأشياء المخجلة التي كان ينبغي أن تظل مستورة ومخفيه، هي الآن معروضة للعيان. تهدم جزء من السقف، وتكسرت الأرضية، والجدران المنهارة غدت الآن ملطخة بعلامات الذنب.

انتهى